رواية
الشيخ الأولمبي
راهيم حسّاوي
نوفل

راهيم حسّاوي

النشيد الأولمبي

راهيم حسّاوي

نوفل

جميع الحقوق محفوظة.

صدرت عام 2025 عن **نوفل**، دمغة الناشر هاشيت أنطوان

© هاشيت أنطوان ش.م.ل.، 2025
info@hachette-antoine.com
www.hachette-antoine.com
facebook.com/HachetteAntoine
instagram.com/HachetteAntoine
twitter.com/NaufalBooks

لا يجوز نسخ أو استعمال أيّ جزء من هذا الكتاب في أيّ شكل من الأشكال أو بأيّ وسيلة من الوسائل – سواء التصويرية أو الإلكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات أو استرجاعها – من دون الحصول على إذن خطّي مسبق من الناشر.

صورة الغلاف: **© Addictive Stock Creatives / Alamy Stock Photo**
تصميم الداخل: **ماري تريز مرعب**
تحرير ومتابعة نشر: **روان عز الدين**

ر.د.م.ك. (النسخة الورقية): 978-614-06-0382-0
ر.د.م.ك. (النسخة الإلكترونية): 978-614-06-0383-7

للمرة الخامسة:
إلى الذين لا أعرفهم ولا يعرفونني...

ننام كالموتى
ونستيقظ كاليتامى

1

ثمّة فارق ما بين الجوع وبين اشتهاء المرء لطعامٍ محدّدٍ دون غيره، فالجياع عادةً لا يأكلون استجابةً لنداء المعدة، بقدر ما يرغبون في تحريك أصابعهم، وما تخفيه الأمعاء ستفضحه النبرة والوجوه والنظرات المُنكسرة في ما بينهم. لم يعد الجوع كافرًا؛ لقد أعلن إيمانه، وصارت حاله حال كلّ مؤمن يرجو الخلاص.

في الوقت الذي كان فيه الناس على الضفّة الثانية يناقشون ميزات طعامٍ عن آخر، ويحفظون عدد السعرات الحرارية التي تحتوي عليها حبّة جوز أو شريحة لحمة لأجل الحصول على أجساد رشيقة، كانت علياء تسأل أباها إن كان يريد البيض مسلوقًا أو مقليًّا. سألته وهي في يومها الثاني من دورتها الشهرية، لقد كسرت ثلاث بيضات لهما، وقطّعت بصلةً صغيرة وحبّتي بندورة، بينما كان صوت فيروز في هذا الصباح الخريفي يحاول أن يرمّم لها شيئًا ممّا تشعر به من انكسارات؛ ألم دورتها الشهريّة، أبوها المرميّ على سرير المرض، الحال التي وصلت إليها البلاد من بؤسٍ ودمار، والبيضات الثلاث الوحيدة التي كسرتها، كما لو أنّها تكسر أحلامها التي لم ترَ منها أيّ شيء.

وضعتْ طعام الإفطار على الطاولة التي شهدت الكثير من الوجوه في وقتٍ سابق، وجلست في الجهة المقابلة لأبيها. كانت نظراتهما نظرات خادعة، هو يُشعرها بأنّه بخير، كي يحرّرها من كلّ هذا العبء، وهي تُشعره بأنّها على ما يُرام بتحريك شفتيها مع كلمات أغنية فيروز، وبطبيعة الحال فإنّ صوت فيروز أصبح مثل هدنةٍ متّفقٍ عليها بين الناس لعدم قدرتهم على التحدّث في ما بينهم في الصباحات.

في أحد أحياء مدينة اللاذقيّة الواقعة على الساحل السوري، تعيش علياء التي بلغت التاسعة والعشرين من عمرها، حاصلة على شهادة الأدب الإنكليزي من «جامعة تشرين»، لها وجهٌ وديع بعينين كأنّهما زجاجتان شفّافتان بنصف ماءٍ ووردتين، وشعرٌ أسود طويل مموّج، ونهدان يحثّان هواة الفنّ على رسمهما في الهواء بإصبع الإبهام. تعجبها الحالة البشريّة التي تسري في عروقها، وثمّة حالةٌ من الألفة لتلك الأخطاء التي ترتكبها بين الحين والآخر. تكره الكمال، وتدين المخطّطات التي يسير عليها البعض لتحقيق أهدافهم الكبيرة، فهي تتحرّك ببطءٍ يمنحها شعورًا عارمًا بالحرّية. حتى عندما تمارس رياضة الركض الصباحي على الكورنيش البحري، ترى الوجود مسترخيًا، وحتّى لو كانت مسرعة، فهي تتعاطى مع

العالم كما لو أنّه قُبلةٌ بطيئة ما بين السماء والأرض. هي التي تتذكّر كيف أصابها جرحٌ صغير في يدها عندما كانت صغيرة، وراحت تراقبه، حينها مدّت يدها نحو الشمس لترى كيف يتخثّر الدم على الجلد، وفي اليوم الثاني رأت هذا الدم اليابس مثل وجهها البريء الذي يخفي وراءه الكثير من الأشياء. أحبّت الطبيعة التي حدثت فوق ذلك الجرح، وفي اليوم الثالث راقبت القشرة اليابسة وهي تتشقق من تلقاء نفسها، كما لو أنّ ثمّة ولادةً جديدة على يدها، حتّى إنّ مفهوم مرور الوقت أعجبها، وهي في هذا العمر دومًا ترى أنّ مفهوم الزمن على علاقةٍ وطيدة باللغة، سواء كانت لغةً منطوقة، أو لغةً تدور ما بين المرء ونفسه، وهذا ما يجعل علياء تبدو جميلةً في عالمها الداخلي، حتى في لحظات انكسارها.

لها أخٌ بلغ العشرين من عمره، اسمه فادي، غادر إلى ألمانيا مع خالها فادي الذي ليس على وفاقٍ مع أبيها. وهذا الخال بلغ الخمسين من عمره، عقيمٌ وليس له أولاد، بقي متزوّجًا عشر سنوات ثمّ انفصل عن زوجته، ويعتبر أنّ ابن اخته فادي هو من رائحة أخته، وأنّه حصّته من الحياة. بعد ذلك، اتّفق مع فادي على الرحيل إلى أوروبا على نفقته الخاصّة، وكانت الأمّ قد اختارت هذا الاسم لابنها تيمّنًا بأخيها. لم يكن الأب راضيًا عن هذا الاسم، ولم يكن راضيًا عن رحيل ابنه مع هذا الخال، لكنّ ظروف البلاد جعلته يرضخ لذلك، وبطبيعة الحال لم تكن العلاقة بينه وبين ابنه فادي على ما يرام، بسبب هذا الخال.

ولها أختٌ تكبرها بخمس سنوات، متزوّجة ومقيمة في دبي مع زوجها وطفلين تحت العاشرة، تعمل في السلك التدريسي في إحدى مدارس المرحلة المتوسّطة. كانت قد تزوّجت بأحد زملائها أثناء دراستها الجامعيّة، وكان زواجًا جيّدًا إلى حدٍّ مقبول، رغم أنّها كانت تودّ أن تأخذ مساحةً من الحياة ومغامراتها قبل ارتباطها الذي اختصر عليها الكثير ممّا كانت تريده من الحياة. ذات مرّةٍ اعترفت لعلياء بأنّها معجبةٌ بها، وبالبطء الساحر الذي تسير عليه، وبقدرتها على جعل الخاسر يشعر بالراحة إذا ما جلس معها، وهذا ليس إحباطًا أو يأسًا في شخصيّة علياء، بل حالة اكتفاءٍ بذاتها لدرجة قد تستفزّ الذين يصارعون الحياة ليجدوا لأنفسهم مكانةً بين عيون الناس، دون معرفةٍ منهم أنّ عيون هؤلاء الناس قد لا تبصر إلّا نفسها، ومن الصعب أن يمنحوا الآخر ما يستحقّ من تلك النظرات. لذلك نجد أنّ المرء يبدو أكثر سعادةً كلّما كان قدره مرهونًا بمحيطٍ تقلّ فيه الأسماء، ويقلّ فيه الصراع نحو المجد وهوس الظهور، وأنّ أكثر الذين يزجّون بالناس نحو المجد هم أولئك الذين يعبثون بمعايير العدالة ومعايير الاستحقاق، ليجدوا لأنفسهم مكانةً مع من لا يستحقون ذلك، وبذلك تتحوّل الأشياء إلى فوضى مستفزّة تفتك بمن لديهم الفرصة لقول شيءٍ مفيد في هذه الحياة.

ماتت الأمّ قبل ستّ سنوات، كانت تعاني من ارتفاعٍ في ضغط الدم، ورافق مرضها هذا سحب ابنها للتجنيد الاحتياطي في جيش النظام الحاكم، وبعد ذلك بسنةٍ واحدة لقي حتفه في أحد الاشتباكات مع قوّات المعارضة، ما سبّب لها الكثير من الحزن والأسى. ثمّ تدهورت صحّتها، وصارت الكوابيس كما لو أنّها تمتصّ دمها بعد رحيل ابنها الذي كان يعاني من اكتئابٍ بدرجةٍ عالية، ويُقال إنّه هو من أطلق النار

على نفسه. وهذا القول أكثر ما زاد من حدّة كوابيسها واكتئابها قبل موتها، ولقد حاولت معرفة الحقيقة، لكن دون جدوى، بينما الأب لم يكن يريدها أن تسعى وراء ذلك، كلّ ما في الأمر أنّ ابنهما لم يعد موجودًا، سواءٌ مات برصاص قوّات المعارضة، أو برصاصة انتحارٍ على يده. علياء كان يراودها شبه يقين بأنّ أخاها هو من قتل نفسه، فقبل أسبوعين من موته كان في إجازة لثلاثة أيّامٍ في المنزل، جلس معها يشربان المتّة تحت شجرة الزنزلخت التي بجانب المنزل، كان ذلك في صبيحة يومٍ خريفي كلّ ما فيه هادئٌ ما عدا ارتعاشات الحنين التي بدت في عينيه أثناء شهقات الماء العابر من ثقوب مصّاصة المتة، وكان يميل بعنقه بلطفٍ شديد، كما لو أنّه قطعة قماشٍ بيضاء على حبل غسيلٍ فوق السطح. كانت علياء عاجزةً عن نطق أيّ كلمةٍ في حضرة هذا الصمت الممزّق بالجمال، فبقدر ما كان المشهد مريحًا، كان مصحوبًا بشيءٍ يشبه الوداع، فلقد كانت نظراته تشير إلى سعادةٍ تتعلّق بأشياء بسيطة، ولكنّ العالم من حوله يريد أن يمنعه منها من خلال سفك الدماء لأجل شيءٍ لم يعد يستوعبه. كان بإمكانه أن يصرخ في هذه اللحظات كالصرخة التي في لوحة مونش، لكنّه استبدلها بلوحة «الوقت الذائب» لسلفادور دالي. كلّ هذه المشاعر المتضاربة دارت في ذهنه، وكانت علياء قادرةً على فهم ذلك، دون أن يتفوّه بشيء، فعادةً يأخذ الصمتُ أقصى حالاته عندما يصل المرء إلى مسألةٍ تحتاج إلى وقتٍ مجهول ليتحقّق ما يدور في نفسه، وهذا الانتظار يكفي لقتل المرء بالأرق، فهو لا يعرف متى سينتهي هذا العبث، ولا متى سيجلس جميع الناس بسلامٍ لشرب المتّة مع من يحبّون. هذا ما كان يدور في رأس أخيها رواد في تلك اللحظات.

المشهد بين علياء وأبيها وهما يتناولان طعام الإفطار بدا كما لو أنّ أحدهما يفكّر في رواد، والآخر يفكّر في أمّ رواد، هذا ما كانت تشير إليه طاولة الطعام بالفراغ من حولها. وأسوأ ما قد يحدث بين شخصين جالسين معًا، هو معرفة كلّ واحدٍ منهما بما يفكّر الآخر فيه، فلا هو قادرٌ على أن يثق برجولته في ما يتعلّق بالصلابة، ولا هي قادرة على أن تثق بأنوثتها في ما يتعلّق برقّة بكائها الجاثم على صدرها دون انفجار، فهذا المشهد يؤرّقها كلّما جلست مع أبيها وكانت هذه الطاولة ثالثهما. وأكثر ما يجعل أباها يشعر بأنّه عبءٌ على نفسه وعليها هو تلك المشاعر المختلطة المتعلّقة بمرضه بداء السكّر، وتقاعده عن العمل وتقدّمه في السنّ فجأة، فبات يرى نفسه مثل خردةٍ مركونة في المنزل. ما يؤرّقه أكثر هو إصرار علياء على الاعتناء به، هذا بحدّ ذاته يُشعره بشيءٍ من الحرج لو حدّثها عن مشاعره العاطفيّة التي قد تصيب المرء في لحظة خيالٍ كما لو أنّ يد امرأةٍ تمرّ على صدره ليطيب الهواء في رئتيه، ويتوقّف ازدياد التجاعيد على جبينه، فالسنوات التسع الأخيرة أكلت كيانه كما أكلت البلاد بطريقةٍ تراجيديّة، ولا غرابة في أن يفكّر بهذه الطريقة، ما دام ابنه رواد فكّر بذات الطريقة دون علمٍ منه.

حين وضعت علياء البيضات المقليّة بشكل ثلاث عيون على الطاولة، لحظتها تمنّى لو أنّ امرأةً ما كانت ثالثتهما، فليس هناك ما ينقذ المرء في ظروف هذه البلاد سوى شيءٍ من الحبّ. يريد أن يعيش ما بقي من سنواته بشيءٍ يحرّك الدماء التي في عروقه. لقد بلغ الثالثة والستين من عمره بين عشيّةٍ

وضحاها، وبرحيل أمّ رواد بات وحيدًا، وبوجود علياء بات كما لو أنّه أصيب بعدوى المقارنة ما بين سنوات عمره وسنوات عمر علياء التسعة والعشرين. لقد تغيّر كلّ شيء، ويريد معرفة ذاته من جديد، أو ربّما يريد نسيان كلّ ما قد فات، حتّى إنّه بات يرغب في أن يناديه الآخرون بأبي علياء، فلا رغبة له في ربط اسمه برواد الذي أحزنه رحيله.

مرّت ساعات الصباح، وقامت علياء لتحضير المتّة مع صحنٍ صغير مملوء بحبّات بذور دوّار الشمس. كان الصمت يغلب على المكان، باستثناء عباراتٍ قصيرة تدور حول الطقس، وحول رحيل بعضٍ ممّن تعرفهم علياء إلى أوروبا بهدف اللجوء. لقد باتت اللاذقيّة مثل مدينةٍ عجوز مصابة بداء باركنسون، ليست لديها القدرة على حمل موجةٍ واحدة من أمواج بحرها الذي لطالما تغنّت به البلاد، وزاره السيّاح، وسار على رماله العشّاق، وشهدتْ مياهه أغنيات الصيّادين وهم يجولون بأبصارهم في الأفق البعيد.

أخذت علياء سيجارةً من علبة سجائر أبيها، هي ليست مُدخّنة، لكنّها تفعل هذا في أوقاتٍ قليلة. أشعلتها، وأغمضتْ عينيها للحظات، وتمنّتْ لو أنّها تبقى رهينة هذه الإغماضة لوقتٍ طويل، لترى من خلالها ذلك الجرح الصغير وهو يتخثّر تحت خيوط الشمس التي لمعت فوق الدم بكلّ ما فيه، فلطالما كانت مأخوذةً بالهدوء، حتّى إنّ لغتها الإنكليزيّة تصلح لأن تكون نموذجًا تعليميًّا لمن يودّ تعلّم هذه اللغة. تتحدّث بطريقةٍ كما لو أنّ حديثها يخرج على شكل كلماتٍ مكتوبة، سواء كان بالعربيّة أو الإنكليزيّة، أمّا في ما يتعلق بحديث عينيها، فهذا ما لم يحظَ به أيّ أحدٍ من قبل، رغم بعض المحاولات التي حدثت أثناء دراستها الجامعيّة. وفي السنة الماضية حاول معها أحد شباب هذه المدينة، إذ وقع في حبّها، وكان حبًّا من طرفٍ واحد، اسمه بديع ويكبرها بسنتين، حصل على الشهادة الثانويّة ولم يرغب في دخول الجامعة، بل في دخول «المعهد العالي للفنون المسرحيّة»، لكنّه فشل مرّتين أثناء اختباره أمام اللجنة التي من شأنها الموافقة عليه أو رفضه، وبقي طوال الوقت يتّهم أعضاء هذه اللجنة بأنّهم تقصّدوا رفضه، وراح يُحلّل سايكولوجية كلّ واحدٍ منهم، ويُطلق الشتائم عليهم كلّما ذُكر الفنّ والمسرح، وبأنّهم دمّروا حياته، وحلمه الكبير بأن يصبح أحد أهمّ نجوم المسرح والسينما. ذات مرّة رأى زوجة أحد أعضاء اللجنة في أحد مقاهي العاصمة، اقترب من طاولتها، وقال لها إنه يجب عليها الانفصال عن زوجها لأنّه رجلٌ فاسد وحقود وكارهٌ للفن، وإنّ زوجها لم يستوعب المشهد الذي قام بتجسيده أمام اللجنة، وإنّه كان ساديًّا بنظراته وطريقة جلوسه والكلمات التي تحدّث بها، وإنّه سيندم هو ومن معه على فعلتهم هذه، قدّمت الزوجة أسفها له، وتمنّت له التوفيق، ثمّ غادر المقهى.

الغريب أنّه بعد مرور عدّة شهور سمع خبر انفصال هذه السيّدة عن زوجها، شعر بشيءٍ من النشوة، وبأنّه يمتلك موهبة الإقناع والتأثير على الآخر، وهذه من صفات الممثّل الناجح حسب اعتقاده بنفسه. هذه الحادثة جعلته يعتزّ بنفسه وبموهبته، وقاده الخيال إلى الربط بين ما حدث له مع هذه السيّدة في المقهى، وبين ما حدث لهاملت مع شبح أبيه. لكنّ الحقيقة التي حدثت بعيدةٌ كلّ البعد عن أوهام بديع،

فهو لا يعلم أنّ السيّدة لا تتذكّر من حديثه أيّ شيء، وأنّه أصبح طيَّ النسيان لحظة مغادرته المقهى بعد الكلام الذي اعتادت سماعه من الذين لم يُفلحوا في اختبارات دخول «المعهد العالي للفنون المسرحية»، وأنّ زوجها ومن معه لا يفقهون في الفنّ شيئًا، وأنّ السبب الوحيد الذي أدّى إلى انفصالها عنه يتعلّق بقصّة خيانته لها مع إحدى زميلاته في النقد المسرحي. مصادفة الانفصال جعلت بديع يعتقد أنّه هو من أقنعها بهذا، وستكون الحقيقة ثقيلةً على صدره لو عرف أنّها ليست كذلك بعد حين.

يُعاني بديع من فرطٍ في النشاط، يحبّ الكلام والحركة والأحداث، وهذا ما حدث حين تعرّف إلى علياء أوّل مرّة، عندما كانت تشتري الخضار. حينها مرّ بديع من جانبها، وبدأ يشتري من ذات الخضار التي كانت تنتقيها. كان يرتدي تيشيرت صيفيّة، بلونٍ أبيض، عليها رسوم لهيكلٍ عظمي يُمسك بيده فنجان قهوة وهو يضع ساقًا على ساق، لحظتها وقعت عيناها على هذه الرسوم، فابتسم بديع لنظرتها، ثمّ قال:

– تصميمٌ جيّد، أليس كذلك؟

قالت علياء وهي تتفحّص حبّة بطاطا:

– هو كذلك.

أراد بديع أن يشرح لها الدلالات التي يراها في تعابير الهيكل العظمي هذا، لكنّ علياء لم تُفسح له المجال بسبب انشغالها بانتقاء الكزبرة الخضراء، مع أنّه هو أيضًا بدأ ينتقي الكزبرة الخضراء لنفسه، فيما وقف بجانبها. في هذه اللحظات، سأل الخضرجي علياء عن أبيها، فأجابته أنّه بحالةٍ لا بأس بها، وهنا أدرك بديع أنّها من سكّان هذا الحيّ الذي قطن به أخيرًا بعدما استقلّ عن أهله، واستأجر بيتًا صغيرًا ليبتعد عن مشاكله مع أبيه الذي غضب عليه بسبب عدم دخوله الجامعة، ولهاثه وراء حلمٍ من غبار، عدا عن اكتشافه أنّه كان نائمًا مع امرأةٍ أربعينيّة في المطعم الصغير الذي يُعدّ آخر ما بقي للعائلة كمصدر رزق. لم يكن أبوه يعلم أنّ لديه نسخةً من مفتاح للمطعم، حينها ادّعى بديع أنّ المسألة لم تكن موعدًا غراميًا، ولم يحدث أيّ شيءٍ بينهما ممّا قد يتبادر إلى الذهن، بل كانت صديقةً قديمة لم يرها منذ زمن بعيد، وقد التقى بها مصادفةً في وقتٍ متأخّر من الليل، كانت متعبة وبحاجة إلى حضنٍ يضمّها، وإلى أذنٍ تصغي إلى ما تعانيه من وجع الحياة. كان مضطرًّا إلى قول هذا أمام أبيه وأمام عامل الشاورما الذي أراد في قرارة نفسه معرفة إن كان بديع ضاجعها أم لا، أراد معرفة ذلك بدافع الفضول، حتّى إنّه راح يخمّن بينه وبين نفسه على أيّ طاولة حدث ذلك، فيما أبوه لم يقتنع بما قاله، وكان متأكّدًا من أنّ الحادثة المخزية كفيلةٌ بجعل الزبائن ينفرون من المطعم لو أنّهم سمعوا بها، فحينها سينظرون إلى هذا المطعم كما لو أنّه ماخورٌ فاحش لمواعيد ما بعد منتصف الليل.

***

بعدما غادرت علياء محلّ الخضرجي، عرف بديع مكان بيتها، وبقي يهتمّ بهندامه كلّما جاء ليشتري الخضار بين الحين والآخر، على أمل رؤيتها مرّةً ثانية، لكنّ هذا لم يحدث، إلى أن رآها ذات مرّة مصادفةً في مقهى «زهرة عبّاد الشمس». بطبيعة الحال، يمكن للمقاهي أن تكون مكانًا للمصادفات الجيّدة والمصادفات السيّئة على حدّ سواء، حينها كانت علياء جالسةً مع سيّدةٍ وابنتها، وذلك بدعوة من السيّدة كي تسلّمها الأجر المالي لقاء الدروس الخصوصيّة التي كانت قد قدّمتها لابنتها.

كان بديع جالسًا في الجهة الثانية، ولم يكن قد رأى علياء، وحين قرّر الذهاب إلى دورة المياه، جاءت عينه في عينها، وتابع مروره دون أن يُلقي التحيّة، وحين خرج وجدها تودّع السيّدة وابنتها، بينما عاد إلى طاولته. جلس ينظر إليها ليعرف إن كانت ستجلس أم ستغادر المقهى، نادى النادلة، وسألها عن إحدى المسرحيّات التي لم يجدها ضمن رفوف مكتبة المقهى، قالت له إنّ بعض الزبائن أحيانًا يستعيرون الكتب، مع أنّها عادةٌ سيّئة وغير لائقة، ولكنّ الحرج الذي تقع فيه هو ما يجعلها توافق على هذا إن كانت على معرفةٍ وثقةٍ جيّدة مع الزبون.

جلست علياء تُكمل ما بقي من فنجان قهوتها، وكانت حركاتها تشير إلى أنّها تستعدّ للخروج. في هذه اللحظات، انتبه بديع إلى أنّه يرتدي ذات التيشيرت التي عليها ذلك الهيكل العظمي الذي بيده فنجان قهوة، شعر بشيءٍ من الحرج، فطوال الفترة الماضية كان يمرّ على الخضرجي وهو يتقصّد أن تراه بثيابٍ غير تلك الثياب التي كان يرتديها، كي لا تظنّ أنّه لا يملك سوى هذه التيشيرت التي أصبحت بمثابة كارت محروق بذلك الحديث الذي دار بينهما على عجل.

قام بديع وتقدّم من طاولة علياء، ألقى عليها التحيّة مع ابتسامةٍ خفيفة، سألها إن كان بمقدروه الجلوس معها قليلًا، وقبل أن تجيبه، ذكّرها بنفسه حين التقى بها عند ذلك الخضرجي، نظرت إليه وقالت:

– تذكّرتُك، ولكن لا بدّ لي من الذهاب الآن .

عبّر لها عن سعادته بهذه المصادفة، وطلب منها أن يلتقيا في هذا المقهى في وقت لاحق، ووافقت علياء على ذلك بابتسامة دون أن تمنحه شيئًا من لغة العيون، أو ذلك الارتباك الذي ينمّ عن حالة إعجابٍ متبادل. التقيا بعد ذلك أكثر من مرّة، وفي نهاية الأمر أدرك أنّها تتعامل معه بمثابة صديقٍ لطيف لها ولأبيها الذي تعرّف إليه أخيرًا.

من الأشياء التي جعلت أبا علياء سعيدًا ببديع، تلك الثرثرة والأحاديث التي كان يحملها معه أثناء زيارته له، فهو لا يترك شيئًا إلّا يتحدّث فيه. صارت الصداقة ما بينهما أقوى من الصداقة ما بين بديع وعلياء، وكثيرةٌ هي المرّات التي يجتمعان فيها دون وجود علياء. استمتع أبو علياء بتحليل بديع للهيكل العظمي الذي على تلك التيشيرت، ففي كلّ مرّةٍ يرتديها ينتهز الفرصة للحديث عنها بطريقةٍ وتحليل يختلفان عمّا قبل.

الوضع الذي تمرّ به البلاد جعل الناس يتعلّقون بأبسط الأشياء، كي لا يفقد الواحد منهم عقله، فالصراع الدائر ما بين المعارضة والنظام الحاكم لم يزل على حاله منذ تسع سنوات، وثمّة مدنٌ ساخنة في الحرب، ومدنٌ باردة يموت سكّانها بتلف الأعصاب حتّى لو كانت آمنةً دون حربٍ واقتتال. وإن كان الموت بالأسلحة حكرًا على مكانٍ دون الآخر، فموت الأرواح باليأس والكآبة راح ينهش المدن الآمنة دون سواها.

باتت علياء على يقينٍ بأنّ كلّ واحد في هذه البلاد أصبح خاضعًا لمتاهات نفسه المتعبة، تقوده إلى ما يحلو لها، دون درايةٍ منه، هكذا كما لو أنّه في جزيرةٍ نائية للخضوع لبعض التجارب النفسيّة، لمعرفة مدى قدرة الإنسان على العيش دون وجود منظومةٍ متوازنة من حوله، فيبدأ يفكّر في قطع جذع شجرةٍ ليصنع منها قاربًا، ويصطاد طيرًا ليأكل، ويعتلي شجرةً ليحمي نفسه من الحيوانات المفترسة.

باتت تشعر أيضًا بأنّ ثمّة أمراضًا نفسيّة حديثة لم تُصنَّف تحت أسماء معيّنة، وأنواعًا من الفوبيا التي صار المواطن قادرًا على الحديث عنها من تلقاء نفسه، دون سماعه بها من قبل. وما يجعل الناس يعتقدون أنّهم لم يفقدوا عقولهم بعد، هو اطمئنانهم بأنّ كلّ واحدٍ منهم لم يزل قادرًا على تذكّر اسمه، وهذه الحالة هي التي جعلت علياء تشعر بأنّ رواد هو من قتل نفسه، وبأنّ بديع تحدّث عن الهيكل العظمي أكثر من مرّة لعدم وجود صديقٍ يتحدّث عنه، حتّى إنّ عامل الشاورما كان يريد معرفة ما حدث في تلك الليلة ما بين بديع وتلك المرأة ليجد حدثًا جديدًا يجعله يخرج من روتين عمله وحياته الشاحبة.

سبق لعلياء أن عملت في السلك التدريسي في إحدى مدارس الدولة في اللاذقيّة، لكنّ الراتب الشهري لم يعد كافيًا بعد تدهور سعر العملة المحليّة نتيجة الظروف التي تمرّ بها البلاد، وكانت تعمل إلى جانب ذلك، في إعطاء الدروس الخصوصيّة لتعليم اللغة الإنكليزيّة. بقيت على هذه الحال إلى أن عملت مع منظّمةٍ إنسانيّة براتبٍ أفضل، وهذه الوظيفة جعلتها تتواصل مع شخصيّاتٍ حول العالم ممّن يعملون في المنظّمة ذاتها، وكانت قد سافرت إلى بيروت مرّتين لحضور اجتماعاتٍ تتعلّق بطبيعة عملها في هذه الوظيفة، وهناك تعرّفت إلى زميلةٍ لها، اسمها كارمن، لبنانيّة الأب وروسيّة الأم، حصل بينهما الكثير من الودّ، وقد سبق لكارمن أن زارت اللاذقيّة قبل سنوات، بدعوةٍ من ابن خالتها، وهو ضابطٌ روسي يخدم في قاعدة حميميم العسكريّة، لكن في تلك الأثناء لم تكن كارمن تعرّفت إلى علياء.

ولأنّ كارمن سوف تعود إلى موسكو لتتزوّج وتستقرّ هناك بعد تركها الوظيفة والعمل مع زوجها، أرسلت مع علياء هديّةً لابن خالتها الضابط الروسي. حينها شعرت علياء ببعض الارتباك، لكنّها كانت لطيفةً مع كارمن، ووعدتها بتسليم تلك الهديّة التي كانت عبارةً عن لوحة بورتريه بقلم الرصاص لأمّه التي تُوفّيت في السنة الماضية في موسكو. كارمن هي من رسمتها، فهي تجيد الرسم كهوايةٍ محبّبة لديها، وكانت تتمنّى لو أنّها درست الفنّ التشكيلي بدلًا من دراستها للقانون الدولي.

بعدما عادت علياء إلى اللاذقيّة بيومين، جاءها اتّصال من رجل يبدو أنّه قضى سنواتٍ كثيرة ليصل إلى مثل هذه النبرة المُحكمة الإتقان بتتالي الكلمات بإيقاعٍ واحد، وبقدرةٍ فائقة على منح المستمع صورةً عن ملامح وجهه وهو يتحدّث. قال إنّه الملازم صفوان، من أمن الدولة في اللاذقيّة، وإنّ اتصاله هذا مجرّد اتّصالٍ ودّي، ولا ينبغي عليها أن تقلق من أيّ شيء، وأخبرها أنّه يودّ تسلّم الأمانة التي أرسلتها كارمن إلى ابن خالتها الذي يخدم في قاعدة حميميم العسكريّة. رحّبت به علياء بنبرةٍ هادئة ولطيفة، وأخبرته بأنّها كانت تنتظر اتّصالًا لأجل تسليم البورتريه، وبأنّ إيصال الأمانة ما بين شخصين من مقدّسات الحياة، وهي حريصةٌ على هذا كلّ الحرص. على أثر كلامها هذا، قدّم الملازم صفوان الشكر لها، وتحدّث قليلًا عن مكانة الروس وضرورة حسن التعامل معهم، فثمّة صداقةٌ وطيدة ما بين البلدين، وروسيا بلدٌ حليف وصديق قديم لهذه البلاد، ثمّ اتّفقا على أن يلتقيا صباح الغد في مقهى زهرة عبّاد الشمس لتسلّمه البورتريه الذي كان بقياس 30/20 سم، داخل إطارٍ خشبي بنّي اللون، يحيط بوجه امرأةٍ روسيّة بملامح يبدو عليها البؤس.

انتظرت علياء قدوم الصباح. جلست في غرفتها بعدما نام أبوها الذي لا يعرف شيئًا عن الأمانة التي حملتها معها من بيروت، وبينما كانت تجول بنظرها وقعت عينها على البورتريه الذي كان على طاولتها بجانب صورة لأخيها رواد، وعلى الجدار الذي يعلو الطاولة صورة معلّقة لأمّها. ثلاثة موتى في غرفتها؛ امرأتان وشابٌّ بسيط يُقال إنّه هو من قتل نفسه.

جالس الليل علياء كأنّها آخر الساهرين في اللاذقيّة، وهبط عليها حزنٌ من ذلك النوع الذي يجعل المرء يبدو كما لو أنّه حاول المستحيل ولكنّه لم يُفلح في ما يريد، ذلك الحزن الذي يأتي بمثابة رفيقٍ بوجهٍ مملوء بالطمأنينة، وبدت الحياة هي أيضًا حزينة كأنّها لم تُفلح في تقديم ما يستحقه الناس الطيّبون. بدت غرفة علياء كما لو أنّها صالة استقبال للحزن، وراودها شعورٌ بأن تحتضن صور الموتى الثلاث دفعةً واحدة، لتجد سببًا مباشرًا لتبكي قليلًا، فالبكاء لم يعد مسألةً سهلة في هذه البلاد، إذ عندما يغلب التذمّر على المرء، تُصبح الدموع في مكانٍ بعيد.

لم تستطع النوم، ودون سببٍ واضح تذكّرت بديع، لقد أصبح من أفراد عائلتها، فالفراغ الذي تركه رواد هو ما جعلها تشعر بهذا، وكذلك العلاقة التي توطّدت ما بينه وبين أبيها، ففي الوقت الذي لا تكون فيه مع أبيها، يكون بديع جالسًا معه، يتحدّثان، ويتسامران، ويتهكّمان على الحياة معًا، إلّا أنّها في المقابل، باتت تحمل عبء هموم بديع المتعلّقة بحلم المسرح والتمثيل، وبدأت تتعاطف مع حلمه هذا. أمس جسّد مشهدًا تمثيليًّا أمامها وأمام أبيها تحت شجرة الزنزلخت التي يطيب لها ولأبيها الجلوس تحتها في ساعات الصباح وعند الظهيرة، وفي نهاية المشهد أرخى بديع رأسه نحو الأرض وبكى، لحظتها صفّق أبوها له، بينما بقيت هي تنتظر أن يرفع رأسه، لترى إن كان هذا البكاء بكاءه، أم بكاء الشخصيّة التي

جسّدها، رفع رأسه، ثمّ ابتسم لهما بوجهٍ متعطّش لكلمة إطراءٍ تمنحه شيئًا من الثبات، ليستمرّ في ما يحلم به.

خرجت علياء في العاشرة صباحًا نحو مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، وتوقّفت أمام محلّ الخضرجي، تبادلا التحيّة وعبارات الاطمئنان، وكما العادة سألها عن صحّة أبيها وأحواله، وكذلك سألته عن ابنته هدباء، أخبرها بأنّها مكتئبةٌ قليلًا، وبأنّها تبحث عن فرصة سفر إلى أوروبا، وبأنّ اللاذقيّة ضاقت عليها، ولم تعد تشعر بأيّ جدوى من مكوثها هنا، كما تحدّث عن غيرة الصبايا بعضهنّ من بعض، فابنة عمّتها أصبحت في أميركا، وصديقتها جيداء أصبحت في باريس، وهذه البلاد أصبحت مثل محرقةٍ لأحلام الشباب والشابّات، إذ لم يعد فيها أملٌ للفرح أو لشيءٍ من الشغف. ومع أنّه أعرب عن موافقته على هذه الرؤية، تحدّث عن حبّه لهذه البلاد، وأنّه لا يستطيع العيش يومًا واحدًا خارجها. قال كلماته هذه وهو منشغلٌ بترتيب الخضار داخل صناديقها أمام المحلّ، وكانت علياء واقفةً تهزّ رأسها بعد كلّ عبارةٍ يقولها، فبعض الأحاديث عادةً يكفي أن تكون من طرفٍ واحد دون الآخر، كما لو أنّها مسألةٌ متّفق عليها في توزيع الأدوار ما بين متحدّثٍ ومستمع، وهذا ما حدث بينهما.

غادرت وهي تحمل بيدها بورتريه السيّدة الروسيّة، وقد انتابها شعورٌ بأنّها تحمل قاعدة حميميم بكلّ ما فيها من ضبّاطٍ وجنود وطائرات، وتمنّت أن يتمّ تسليم البورتريه للملازم صفوان، وأن تمرّ المسألة بسلام. فرغم بساطة الموضوع، انتابها شعورٌ بأنّها كانت مُخدّرةً لحظة قبولها أخذ البورتريه من كارمن في بيروت لإيصاله إلى ابن خالتها الذي ربّما يكون في هذه اللحظات يحلّق في أجواء سماء هذه البلاد، ولذلك كلّف الملازم صفوان بتسلّم البورتريه بدلًا منه.

دخلت مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، وجالت بنظرها في المكان، ثمّة شابٌّ وشابّة يجلسان معًا، ومجموعة أشخاص حول طاولة أخرى، بينما كانت النادلة ترتّب الكتب على رفوف مكتبة المقهى، اختارت مكانًا يتيح لها رؤية الملازم صفوان لحظة دخوله، ثمّ جلست بهدوء كما لو أنّها تحمل بيضةً تخشى عليها أن تقع فتنكسر. جاءتها النادلة بوجهٍ مبتسم، وسألتها عمّا تريد أن تشرب، أجابتها علياء بأنّها تنتظر شخصًا سيأتي بعد قليل، حينها ستطلب لها وللذي معها، قالت لها النادلة بالابتسامة ذاتها:

– حسنًا، لكِ ذلك، ونحن سعداء أنّك من زبائن مقهى زهرة عبّاد الشمس.

بعد دقائق من الانتظار قامت علياء ووقفت عند رفوف مكتبة المقهى، وراحت تجول بعينيها على عناوين الكتب الموجودة. ثمّة كتبٌ قرأتها، وكتبٌ سمعت بها، وأخرى جديدةٌ لم تسمع بها من قبل، إلى أن وقعت عينها على مسرحيّة «الدرس» للكاتب الروماني يوجين يونسكو. كانت قد قرأتها قبل سنوات بعيدة، أحبّتها كثيرًا، وراودها شعورٌ بأنّ الموقف الذي دار في المسرحية ما بين الأستاذ والتلميذة، قد يشبه الموقف الذي سيدور بينها وبين الملازم صفوان، ستجلس على الكرسيّ، وسيبدأ صفوان ببثّ الكثير من تلك اللغة العنيفة والسريعة كما كان يفعل ذلك الأستاذ مع تلميذته التي بدأت تشعر بألمٍ في

أسنانها نتيجة التوتّر، إلى أن قُتلت في نهاية المسرحية. وفي الوقت ذاته، لم تكن علياء تعرف أنّ بديع قد سأل النادلة في مرّةٍ سابقة عن هذه المسرحيّة التي كان قد استعارها أحد الزبائن.

إنّ المرء لا يخشى الآخرين بقدر ما يخشى السيناريوهات التي قد تدور في ذهنه، وبالتالي هو يخشى الضجر، فالفعل الذي يحدث في الذهن ومن ثمّ يحدث في الواقع يكون أثره مضاعفًا على المرء، وليس بالضرورة أن يكون الحدث ضارًّا أو ذا أثرٍ سيّئ، يكفي أن يكون نمطيًّا وفيه الكثير من الضجر على النفس، ففي بعض الأحيان يتمنّى المرء أن ينقص من عمره يوم، مقابل خلاصه من حديث يبدّد النفس ويرمي بها في سؤالٍ محزن وكئيب عن سبب كلّ هذا الإصغاء لحديثٍ يُشبه حالة غثيان.

ما إن التفتت علياء، حتّى جاءت عينها بوجه شخصٍ وسيم بثياب أنيقة، يقف بجانبها، ابتسم لها قائلًا:

– الملازم صفوان.

قالت له:

– علياء.

مدّ يده وصافح يدها مع ابتسامةٍ صغيرة بدت على وجه كلّ واحدٍ منهما، رغم أنّها كانت جالسة على طاولةٍ محدّدة قبل قدومه، قرّر أن يجلسا على طاولةٍ أُخرى اختارها دون أن يأخذ رأيها. جاءت النادلة إليهما على عجل، ووقفت تسألهما عمّا يريدان، نظر صفوان إلى النادلة وسألها عن اسمها، استغربت سؤاله لكنّها ابتسمت له وقالت:

– سوسن.

قال:

– اسمٌ جميل، حسنًا يا سوسن، إسبريسو دبل.

ابتسمت علياء للنادلة وقالت:

– قهوة من فضلك.

نظر صفوان في المكان كما لو أنّه يودّ شراء المقهى، إلى أن وقعت عينه على رفوف المكتبة، قام وتوقّف عند الرفوف وبدأ يجول بنظره على عناوين الكتب، وكانت سيجارته بيده، بينما يده الثانية وضعها في جيبه، ومال بخصره قليلًا. بدا كمن يمتصّ الوقت من جهة، ويداعب المكان ليصنع لنفسه شيئًا من الألفة داخله، كأنّه يؤكّد لنفسه أنّه سيعود مرّاتٍ أخرى ليشرب قهوته في هذا المقهى الذي لم يسبق له أن دخله من قبل. كانت علياء تُراقب حركاته وهي تنتظر عودته ليجلس من جديد، لكي تسلّمه البورتريه وتغادر. انتابها شعورٌ بأنّ حركاته هذه لم تكن من فراغ، فالضبّاط عادةً يستلذّون بالحركة الهادئة في المكان، كما كانت ترى في أفلام السينما، تُعجبهم نظرة الناس إليهم، وينتابهم شعورٌ بأنّ الواحد منهم يبدو رشيقًا كما لو أنّه يحرّك يده في الهواء.

عندما وضعت النادلة قهوتهما على الطاولة، عاد وجلس. ظنّت علياء أنّه سيبدأ حديثه عن أحد عناوين الكتب التي نظر إليها، لكنّه لم يفعل، وراح يحدّثها عن البلاد وعمّا تمرّ به، ثمّ حدّثها عن نفسه، وأخبرها عن حسن حظّه بتكليف لوكاس له ليتسلّم البورتريه بدلًا منه، بسبب عدم رغبته في النزول إلى المدينة، فهو ما زال حزينًا على وفاة أمّه، وأنّ من الجميل أنّ كارمن فكّرت في رسم بورتريه لخالتها. أخبرها بأنّه قد التقى بكارمن حين جاءت لزيارة اللاذقيّة قبل سنوات، وبأنّه أمّن لها شاليه عند البحر، فهو يقوم بكلّ ما يحتاج إليه لوكاس على صعيد احتياجاته الشخصيّة، ولو أنّ لغته الإنكليزيّة جيّدة أكثر ممّا هي عليه لتوطّدت الصداقة بينهما أكثر من ذلك. عبّر عن امتنانه للوجود الروسي في قاعدة حميميم كحليفٍ وصديق للبلاد، وأنّه يرى أنّ روسيا باتت قوّةً هامّة لأجل التوازن الدولي، بعدما كانت أميركا هي من يتزعّم سطوة القرارات الدوليّة في الشرق الأوسط.

بقي صفوان يثرثر كثيرًا، وكانت علياء تصغي إليه لينهي كلّ هذه الأحاديث ومن ثمّ يتسلّم الأمانة التي جاءت من أجلها. تذكّرت هذا المكان حين التقت ببديع أول مرّة، وشعرت بفارقٍ كبير بينهما، فبديع حدّثها عن حلمه بالتمثيل، ورغبته في التودّد إليها، بينما راح صفوان يحدّثها عمّا تهرب منه في نشرات الأخبار، إلى أن شعرت بالتعب والغثيان وما يشبه الألم في أسنانها.

ارتشفت آخر رشفة من فنجانها، وكان صفوان يمسك فنجان قهوته وهو يضع ساقًا على ساق، فبدا كذلك الهيكل العظمي الذي على تيشيرت بديع. مدّت يدها وأمسكت البورتريه وأعطته لصفوان، أخذه منها وراح ينظر في ملامح والدة لوكاس، ثمّ قال عبارةً أراد منها أن تليق بالحديث عن الموتى وهيبة النظر إلى وجوههم:

– ملامحها حزينة، كما لو أنّها كانت تعلم باقتراب أجلها.

لم ترغب علياء في مشاركته في قول ما دار في ذهنها على إثر عبارته هذه، فالحديث في الفلسفة قد يتجاوز فكرة الخبز والملح ما بين شخصين، ودرجة عالية لا تحدث إلّا إن كان الودّ بلغ الكثير من الطمأنينة بينهما، وما عدا ذلك تصبح مكاشفات مجّانيّة، وحالة جدالٍ لا تخلو من عدوانيّةٍ في تعابير اللغة ودلالاتها.

طلب صفوان فنجان قهوةٍ آخر، وراح يحاول معرفة إن كانت كارمن أخبرتها شيئًا عنه أثناء زيارتها للاذقية، وتفاصيل الأيّام التي قضتها في ذلك الشاليه، وفي الوقت ذاته أراد معرفة آخر أخبارها، فلقد انقطع التواصل بينهما منذ مغادرتها اللاذقيّة، وبما أنّه لم يكن واضحًا في حديثه، كذلك كانت علياء. لم تتحدّث في شيءٍ يثير الريبة، لأنّها بطبيعة الحال لا تعرف شيئًا عمّا يرمي إليه الملازم صفوان، كلّ الذي قالته أنّ علاقتها بكارمن علاقة ودّية، جمعتهما صدفة العمل في تلك المنظمة، وأنّ كارمن قد تركت الوظيفة، وسوف تستقرّ نهائيًّا في موسكو بهدف الزواج والعمل مع زوجها هناك. انتابت علياء فكرة أنّ ثمّة علاقةً عابرة حدثت ما بينهما، وهذا يحصل، وليس غريبًا على كارمن من خلال معرفتها بها وبحبّها لصخب ومغامرات الحياة، وفي الوقت ذاته ليس غريبًا على شخصٍ مثل صفوان ألّا يفرّط بأيّ فرصة، حتّى

على مستوى لقاءٍ في مقهى يكاد لا ينتهي. لم يزل يثرثر ويخرج من حديث ويدخل في آخر، ومرّةً ثانية، انتابها شعورٌ بأنّ كارمن ورّطتها بإيصال هذه الأمانة عن قصدٍ أو من دون قصد، وتمنّت لو أنّ لوكاس هو من جاء ليتسلّمها بدلًا من الملازم صفوان الذي شعرت بأنّه سيطلب لقاءها مرّةً أخرى، سواء بطلب منه، أو بمصادفةٍ ما على أرض هذه المدينة التي باتت الوجوه مرئيّةً فيها أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وذلك بعد هجرة الكثير من سكّانها نحو أوروبا بحثًا عن الخلاص الفردي من عبء ما وصلتْ إليه البلاد من انهيار وفوضى. وفي الوقت ذاته، كان تخمينها في مكانه عندما ربطت توقّعاتها بهذا اللقاء وبتفاصيل مسرحية «الدرس» التي انتابها شيءٌ من الحنين لإعادة قراءتها من جديد، وللمصادفة فإنّ بديع سأل النادلة في ذلك اليوم عن هذه المسرحيّة التي كانت مُعارة لأحد زبائن المقهى.

بعد صمتٍ دام لحظاتٍ، نظر إليها قائلًا:

– سعيد بلقائك.

لم تعرف ما يجب عليها قوله، واكتفت بالقول:

– شكرًا.

قال لها:

– وماذا تعملين بعدما تركتِ وظيفتك في المنظمة التي كنتِ تعملين بها؟

قالت:

– أُدرّس من يرغبون في تعلّم اللغة الإنكليزيّة. دروس خصوصيّة.

هزّ رأسه مع مدّ شفته السفلى، كم لو أنّه سمع شيئًا راقه، ثمّ قال:

– خبرٌ جيّد، ربّما أصبح تلميذًا لديك.

قالت بوجهٍ ثابت ودون ملامح:

– ربّما.

قال:

– طبعًا سأدفع لك ما يجب عليّ دفعه مقابل ذلك.

قالت:

– بديهي، طبعًا.

لقد قال لها ذلك كي لا تظنّ أنّه قد يستخدم مكانته في الدولة، وقالت له ذلك كي لا يظنّ أنّها خائفةٌ منه، وبقولهما هذا، حاول كلٌّ منهما نفي الحقيقة التي تعتريه.

إنّ المرء يبقى على ما هو عليه ظنًّا منه أنّه كامل الثبات، إلى أن يقع بما هو دون الكارثة بقليل، فينشط الخيال لديه، وينشط الضجر لديه كما لو أنّه يودّ معرفة آليّة هندسة القدر، وخطوات بنائه، لا

ليتفاداه، فلا يمكن للمرء تفاديه، بل ليعرف مدى قدرته على ذلك الثبات الذي هو عليه، أمّا في حال وقوع الكارثة فهذا ما لا يضرّ ولا ينفع في ما يتعلق بهذا الخيال، وهذا الثبات.

قرّرت علياء الذهاب، فطلب منها صفوان أن يوصلها بسيّارته، شعرت بشيءٍ من الحرج، هي لا تريد ذلك، فقالت إنّها لا تريد أن تأخذ من وقته، ثمّ إنّها تودّ المشي، واضطرّت إلى أن تقول له:

– المشي مفيد.

وفي المقابل قال لها:

– عندما يكون هناك ما يستحقّ الرؤية أثناء هذا المشي.

ربّما هذه أفضل عبارة قالها صفوان طوال جلوسه معها، فلم يعد أيّ شيءٍ في هذه المدينة يستحقّ الرؤية، كلّ شيءٍ يوحي بالضجر، حتّى أسماك بحر اللاذقيّة باتت تفضّل نهاياتها بصنّارات الصيّادين بدلًا من البقاء في عتمة وخواء بحر هذه المدينة، فإن كانت المدن تُعرف من مسارحها كما يُقال، فكذلك المدن الساحلية تُعرف من شواطئها.

خرجا معًا، وهو يحمل بيده البورتريه، وقبل أن يصافح يدها قال:

– ربّما لوكاس سيلتقي بك كي يقدّم لكِ الشكر.

قالت:

– لم أفعل شيئًا يستحقّ الشكر.

قال:

– أظنّ أنّه يجب علينا معرفة بيتك، إذا قرّر ذلك.

قالت:

– رقم هاتف المنزل لديكم، يستطيع لقائي في هذا المقهى إذا قرّر تقديم الشكر الذي لا داعي له.

قال:

– أعتقد أنّ الأمكنة العامّة لا تروقه كثيرًا بحكم أنّه ضابط، فالروس يهتمّون بتفاصيل كهذه.

لم تعرف ما الذي يريده صفوان على وجه الدقّة، ولم تكن لديها طاقةٌ للخوض في هذا الحديث أكثر من ذلك. شعرتْ بأنّها بحاجةٍ إلى الركض على كورنيش البحر الذي اعتادت الركض عليه، ولكي تكتفي بما دار من حديث، طلبت منه فجأةً أن يوصلها إلى البيت، وينتظرها في سيّارته قليلًا ريثما تُبدّل ثيابها بسرعة وتلبس بيجامتها وحذاءها الرياضي، ومن ثمّ يوصلها إلى بداية الكورنيش، قالت له:

– والركض مفيد أيضًا.

ابتسم صفوان، وصعدا السيّارة. أوصلها إلى البيت أولًا، ثمّ إلى بداية الكورنيش الجنوبي، نزلت من السيّارة بعدما شكرته وصافحت يده التي مدّها إليها، ثمّ غادر وهو ينظر إليها للحظات من خلال مرآة سيّارته.

ما إن اختفت سيّارة صفوان عن ناظريها، حتّى بدأت تهرول، ثمّ توقّفت، ثمّ تابعت، إلى أن توقفت وانحنت بظهرها واضعةً يديها على ركبتيها. أخذتْ نفسًا عميقًا، ثمّ زفرتْ، أغمضتْ عينيها للحظات، وأرخت يديها اللتين كانتا مثل سنبلتين تتأرجحان في الهواء، وكان جسدها كما لو أنّه في حجرةٍ زجاجيّة معزولة عن كلّ مايحيط بها، وانتابها شعورٌ حيال الفارق ما بين الرأس المرفوع بدافع الفخر، وبين الرأس المرميّ نحو الأسفل بليونةٍ واسترخاء دون الحاجة لذلك الفخر الذي لطالما كانت تكاليفه باهظة الثمن في بلادٍ يزداد تنافس أفرادها في ما بينهم كلّما ازداد الخراب فيها.

بعد ذلك، وقفت في مكانٍ مرتفع وراحت تجول بعينيها نحو الصيّادين وهم يقفون على الصخور المتراصّة بعضها فوق بعض. كان المشهد يوحي بأنّهم كانوا يصطادون الأحاديث في ما بينهم أكثر من اصطيادهم للأسماك، وبأنّهم هاربون من إسمنت البيوت وضجر نشرات الأخبار نحو هذه الصخور التي بدتْ مثل مجموعةٍ من الماعز يلتفّ بعضها حول بعض وهي تلهو على صدى ارتطام الأمواج بأقدامها. ورأت المراكب التي طغى اللون الأبيض على أكثرها، فبدا البحر كما لو أنّه لوحةٌ لطفلٍ مرّر اللون الأزرق على ورقةٍ بيضاء بخطوطٍ بسيطة، بدا البحر بريئًا وصبورًا مثل جمل، ومنحها الكثير من الحنين لأخيها رواد الذي طالما تداخل ملح أمواجه بمسامّ جلده، فلقد كان يأتي ليسبح فيه كلّما ضاقت به اليابسة.

نزلت نحو الشاطئ وملأت جيوبها بحفنات من الرمل، ثمّ غادرت لتزور قبر رواد وتنثر حبّات الرمل هذه فوق قبره، ولتخبره عمّا يعتريها. لطالما كان الموتى أفضل من يُجيدون الإصغاء، وأفضل من يكتمون الأسرار، وأفضل من يمكننا أن نبالغ في حبّنا لهم بعد رحيلهم، لدرجة أنّ بعض الأحياء يمارسون فنّ الذكريات معهم بتفاصيل لم تحدث، لشدّة أمنياتهم بحدوثها بدافع الندم. هذا ما يبرّر عذوبة كلمات الرثاء التي يكتبها البعض في مناقب الذين رحلوا، دون أن يعلموا بأنّ الموتى يموتون مرّتين، مرّةً عندما يغادرون الحياة، ومرّةً عندما ينهال عليهم هذا الرثاء من أشخاصٍ لم يسبق لهم أن منحوهم نصف ابتسامةٍ أو نصف كلمة عندما كانوا يمدّون أيديهم كالغرقى.

جاء الصباح وكانت علياء في سريرها، سمعت صوت بديع وهو يتحدّث مع أبيها في الصالون، وقد عرفتْ أنّهما يلعبان لعبةً كانت قد ابتكرتها مع أبيها من بعد رحيل أمّها، ثمّ تعلّمها بديع منهما، وراح يلعبها مع بداية كلّ لقاءٍ بأبيها، إذ شعر بأنّها لعبةٌ ترتبط بخيال الممثّل وفنّ التمثيل، لذلك أحبّها وصار مدمنًا عليها. كانت علياء قد أطلقتْ عليها «عجن الكلام»، وهي عبارة عن لعبةٍ تقوم على سماع المرء عبارةً أو نصف عبارة من حديثٍ بين شخصين عابرين، تبقى في أذن هذا الذي وصلت إليه، ليبدأ هذا الأخير بتخيّل فحوى الحديث الدائر بينهما، كما لو أنّه يكتب سيناريو لدقيقة أو دقيقتين ريثما تخرج العبارة من رأسه، هكذا كما لو أنّه يلهو، ويمكن أن يشارك شخصًا آخر في هذا اللهو إلى أنْ تصبح لعبة بينهما، كما فعلت علياء مع أبيها.

حدث ذلك أول مرّةٍ حين كانت علياء واقفةً تنتظر الميكرو، وسمعت شخصًا يقول للذي معه وهما يعبران من أمامها:

– لنتّفق قبل أن نلتقي بها.

بدا عليهما شيءٌ من القلق، ولم تكن خطواتهما متناسقةً في ما بينهما، وراحت علياء تفكّر في التي سوف يلتقيان بها، ربّما زوجة أحدهما وأخت الآخر، وربّما أحدهما عشيقٌ لها والآخر صديقها، وربّما كانت أمّهما أو أختهما، أو ربّما كانت زوجة مسؤولٍ وتريد منهما معرفة شيءٍ سرّي عن زوجها... ثمّة احتمالاتٌ كثيرة لا تنتهي. أدركتْ أنّهما لن يتّفقا وهما يسيران نحو المقهى الذي في المنعطف القريب من نهاية الشارع حيث تنتظرهما، فمن الواضح أنّ المسافة باتت قصيرةً ما بينهما وبينها، ولو كان غير ذلك لأخذا تاكسي أو وقفا ينتظران الميكروباص معها، فقالت بينها وبين نفسها: «من الواضح أنّهما أهدرا الكثير من الوقت في ما مضى، ومن الصعب أن يتّفقا بينما أحدهما يسبق الآخر بخطوتين أو ثلاث».

وفكّرت أيضًا؛ على من سيقع الضرر أكثر من الآخر، من كان يسبق الآخر والقلق بادٍ عليه؟ أم على ذلك الذي وراءه بعدّة خطوات، وقد استسلم للواقع ولم يعد يأبه بشيء؟!

صعدت الميكرو بعدما قضت بعض الوقت وهي تفكّر فيهما، كما لو أنّ هذه الحياة لم يعد فيها ما يستحقّ التفكير سوى عبارةٍ غامضة لشخصين عابرين بخطواتٍ مبعثرة. مضت إلى بيت طالبةٍ كانت تنتظرها لأجل درسٍ خصوصي في اللغة الإنكليزيّة، ثمّ عادت إلى البيت، وكان أبوها جالسًا حزينًا، ولم يكن قد مضى شهر على رحيل أمّها. جلست معه لدقائق وكان الصمت ينهش خشب أرجل الطاولة والكراسي، كما لو أنّ الأشياء ستقع من شدّة الصمت، وكانت ملامحهما كما لو أنّها بين ظلال قضبانٍ معدنية. نظرت إليه وقالت:

– لنتّفق قبل أن نلتقي بها.

استغرب عبارتها للحظات، وأفسحت المجال لاستغرابه دون أن تقاطعه بتوضيحٍ عاجل يتعلّق باللعبة التي أحبّت أن تلعبها معه لتُخرجه من هذا الذي هو فيه، عدا أنّها أحبّت هذه اللعبة في مدينةٍ لم يعد فيها ما يُحكى عن الأهل والجيران، أو عن أفراد العائلات ممّن غادروا الحياة، وممّن هاجروا خارج البلاد.

نظر إليها وقال:

– لنتّفق قبل أن نلتقي بها!

قالت مبتسمةً:

– نعم.

قال بعدما أعاد ظهره إلى الوراء:

– حسنًا، ولكنّي أعتقد أنّني سأسبقك إليها، فلماذا يجب علينا أن نتّفق، عدا أنّنا متّفقان على كلّ الحزن الذي نمرّ به من بعد رحليها.

حدث سوء تفاهمٍ كبير، لم تكن تتوقّع أنّ العبارة ستأخذه نحو الحديث عن أمّها. قرّرت أن تكمل الحديث معه وفقًا لما سار عليه، وتابعت دون أن تشعره بسوء الفهم هذا، لكنّها في الوقت ذاته، كانت تترقّب أن تخبره ما كانت تودّه، إلى أن قام إلى الحمّام ثم عاد وجلس. عاد الصمتُ من جديد، وبعد لحظاتٍ أخبرته بتفاصيل اللعبة، وبما حدث معها، وعن تفاصيل التخمينات التي دارت في داخلها حول اللذين عبرا من أمامها، وحول التي سيلتقيان بها. وفيما كانت تخبره بذلك راح يبتسم شيئًا فشيئًا كما لو أنّه طفلٌ يصغي إلى حكايةٍ غريبة، وما إن أنهت حديثها حتّى راح يشاركها تخميناتٍ جديدةً على أثر هذه العبارة الوحيدة التي وصلتها، وتحدّث كما لو أنّه حكيمٌ مغمض العينين بإسهابٍ واسترخاء. راق هذا المشهد علياء، فصارت كلّما سمعت عبارةً عابرة من مكانٍ ما تأتي وتخبره بها ليسهبا في تأويلاتها وأحداثها وتخميناتها الدراميّة وهما يشربان المتّة معًا.

وحدث أن كان أبو رواد ذات مرّةٍ عند الخضرجي، وبينما كان يدفع حساب مشترياته، سمع امرأةً تقول لزوجها وهما ينتقيان الباذنجان:

– لقد فعلتُ ما كان يجب عليّ فعله بدافع الضمير لا أكثر.

بقيت هذه العبارة في رأس أبي رواد إلى أن وصل إلى البيت ودخل المطبخ حيث كانت علياء، قال لها ذات العبارة التي سمعها وبدأت اللعبة التي تعلّمها منها وأعجبته. راح يقول تخمينه لما تحتمله العبارة من أحداثٍ وخيال، ربط العبارة في بداية الأمر بأنّ الزوجة قد تدعو شخصًا ما على العشاء بطلبٍ من الزوج، ورجّحت علياء أنّ خصومةً ما حصلت مع ضيفهما هذا، ثم تحدّث عن تخميناته للوجبة الرئيسيّة بناءً على الباذنجان الذي اشترياه. هكذا أدمن أبو رواد هذه اللعبة، وأحبّ الأحاديث التي تأخذه من واقعه، إلى أمكنةٍ من خيال، ولم تكن اللعبة تخلو في بعض الأحيان من الكوميديا، هذا يحدث في نهايتها، بعد أن ينهيا سردهما الجدّي بتبادل التخمينات حول العبارة المُصطادة من لسان أحد العابرين في الأمكنة العامّة، عدا أنّه شعر بأنّ هذه اللعبة تشبه قطعة المعجون التي كان الصغار يشكّلون منها ما يخطر في بالهم من أشكال.

خرجت علياء من غرفة نومها، ألقت التحيّة على بديع وأبيها المنشغلين بلعبة عجن الكلام، دخلت الحمّام، ثمّ جلست بعد ذلك تستمع إلى تخميناتهما حول عبارةٍ جلبها بديع إلى أبيها، وكان قد سمعها من شابّةٍ عابرة تتحدّث في هاتفها المحمول، وتقول:

– لقد تركتها عند النافذة.

بدأت التخمينات بينهما، بدءاً من مصّاصة المتّة، إلى الحديث عن صديقةٍ لها تعاني من الاكتئاب، كانت قد زارتها وتركتها جالسةً عند النافذة، وحديثها هذا كان يدور مع الذي سبّب لها هذا الاكتئاب، أو ربّما مع الذي كان يودّ الاطمئنان عليها من خلال هذه الصديقة المشتركة التي كانت تتحدّث معه عبر الهاتف.

كان بديع يكرّر كلمة «ربّما» بينما أبو رواد يكرّر «معك حق، ولكن»، وكانت علياء سعيدةً وهي ترى لعبتها قد أصبحت متداولةً بينهما بهذه الحماسة، وشعرت بأنّ العالم سهلٌ للغاية لو أرادت البشريّة ذلك، وأنّ ثمّة مساحاتٍ لامتناهية من الجمال والرخاء، هكذا كما كان يفكّر رواد حين كان جالسًا يشرب المتّة معها.

الألعاب من أعظم الأشياء التي عرفتها البشريّة، وفكرة الألعاب ليست مجرّد تمريرٍ للوقت، بل تحمل في طيّاتها الكثير من رغبات الإنسان. إنّها ليست حكرًا على الصغار أو على أصحاب المواهب، فلا علاقة لمفهوم اللعب بتلك البطولات التي تتيح المجد لأصحابها، خصوصًا تلك الألعاب التي تحدث بين الأفراد بمعزلٍ عن الامتيازات التي يصل إليها اللاعب كالاحتراف والبطولات. لولا الألعاب لكانت نزعة الإنسان نحو الألق عبارة عن ضجرٍ لامتناهٍ، فأصل الألق مرتبطٌ بمفهوم اللعب؛ اللغة ألق، والنكتة ألق، وكذلك الحبّ والجنس... ألقٌ لا يخلو من اللعب الذي يعدّ أكبر عقدة في حياة الإنسان. إنّ النظرة الأولى التي يتحدثون عنها لحظة وقوع الحبّ، ما هي إلّا بداية اتّفاقٍ طفولي على اللعب، وحتّى بعض جرائم القتل التي تحدث أحيانًا هي أيضًا تعبيرٌ عميق عن الحرمان من اللعب. أوّل صدمةٍ يتلقّاها المرء في حياته، هي عندما يحاول اللعب مع أحدٍ ما أو مع مجموعة أشخاصٍ لكنّهم يحرمونه من المشاركة، لتبقى عقدةً دامغة في كلّ سلوكياته، ولتصبح كلّ المفاهيم لديه متعلّقةً بمفهوم الحرمان من اللعب، كالحبّ من طرفٍ واحد، ورفض شخصٍ في وظيفة عمل. كما أنّ عدم دعوة شخصٍ لشخص إلى حفلة عيد ميلاده هو شكلٌ من أشكال الحرمان من ممارسة اللعب في هذه الحفلة، إذ يصل الأمر إلى أنّ أصل الابتكار والفنون في وضعيات ممارسة الجنس لم يأتِ إلّا من تلك النزعة المتعلّقة بألق اللعب، والتودّد لمن شاركه هذا اللعب، وهذا ناتجٌ ممّا يشبه الانتقام من أولئك الذين حرموه من مشاركة اللعب معهم في حديثٍ ما، أو فنجان قهوة، أو حفلة عيد ميلاد. هذه الأشياء ما هي إلّا انعكاسٌ لأصل الألعاب التي يُدركها الطفل فورًا من بعد ثدي أمّه، وحتى ثدي أمّه قد يكون أوّل لعبةٍ يتلقّاها المرء، هذا أصل الحبّ الذي يبقى لدى الطفل تجاه أمّه التي منحته تلك الدعوة الأولى للّعب معه من خلال ثديها.

كان رواد بأمسّ الحاجة إلى اللعب، ولكن لم ترقه لعبة «الشرطي والحرامي»، فلم يكن يملك تلك الساديّة ليكون الشرطي، ولم تكن على وجهه ندبة سكّينٍ لتجعله الحرامي. كلّ ما كان لديه مصّاصة متّة في جيبه الأيمن، وقلم رصاصٍ وممحاةٌ في جيبه الأيسر ليرسم الأشياء الصغيرة على دفتره الصغير، أمّا رأسه فلقد كان مملوءًا بحبّ البلاد والناس الطيّبين الذين أكلوا من ترابها حين كانوا صغارًا. كان يحبّ كلّ الأخطاء البريئة التي عاش عليها الأجداد، كالعظم الذي من حصّة الأهل، واللحم الذي من حصّة الأساتذة في المدارس، بناءً على طلب الآباء، وأحبّ دفاتر الديون في الدكاكين، معتبرًا أنّ أوّل مصدر ثقةٍ وشهادة حسن سلوك ينالهما المواطن في الحيّ بعد نهاية كلّ شهر، حين يسدّد ما عليه من تلقاء نفسه، هكذا كما لو أنّه في المدينة الفاضلة. أحبّ شطحات سائقي التاكسي في سرد بطولاتهم أكثر من شطحات القادة في

سرد بطولات البلاد حين تأخذهم الحماسة في المناسبات والأعياد الوطنية، وأحبّ قصص الحبّ التي تحدث في الحدائق العامّة، وعند أبواب المدارس، ومواقف الباصات وسط الزحام، وأحبّ أولئك الذين لم يكملوا تعليمهم بحجّة أستاذ الرياضيّات وأستاذ اللغة الإنكليزيّة، وقصص العمّال الذين وقعوا في حبّ ابنة المعلم، ونصائح الكبار التي أكل الزمان عليها وشرب. لكنّه كان مولعًا بعاطفتهم التي يمارسونها مع من هم أصغر منهم سنًّا من خلال تلك النصائح، وكان يرى أنّ طلب الزبون من عامل المطعم أن يُكثر له من المخلّل أو الحمّص على سندويشته هو شكلٌ من أشكال المواطنة، وشكلٌ من أشكال التعبير، وبرأيه، تبلغ الكوميديا ذروتها في هذه البلاد عندما كان الأستاذ يحذّر من أضرار التدخين، وفي عيد المعلم يتلقّى الهدايا، من ضمنها علب السجائر التي يجلبها إليه بعض التلاميذ. لقد أحبّ هذه البراءة بين الناس بما يتوافق مع جينات فصولها الأربعة التي لا شبيه لها في أيّ مكان آخر، وكان محبًّا للبلاد كما لو أنّ قلبه عاصمة لها، وجبينه النشيد الذي يردّده لها كلّ صباح مع عصافير شجرة الزنزلخت.

2

باتت اللاذقيّة تبدو مثل قرص بيتزا بمثلثاتٍ غير متساوية، وبمثلثاتٍ ناقصة لا وجود لها، فثمّة من يمارس ترف الحياة فيها، وثمّة من يلعق ملح بحرها، ويجترّ اللهاث وراء لقمة العيش. كانت تبدو على الحياد مثل حربٍ باردة لا رائحة للرصاص فيها، وبقيت مثل إبرةٍ في كومة قشٍّ وتأويلات. قاعدة حميميم الروسية تنشر ظلالها عليها كما لو أنّها الزوجة الثانية لبحرها العتيق، والضبّاط الروس يظهرون بين الحين والآخر في مناسباتهم الوطنيّة، يجول بعضهم هنا وهناك برفقة ضبّاط سوريّين، كما لو أنّ مكيافيلي كان يجول معهم. سبق للوكاس أن دخل المطاعم وأكل الشاورما والفلافل والفتّوش في مطاعم هذه المدينة، وسهر في ليالي الصيف في كافتيرياتها المحكمة الحراسة، ودخّن الأركيلة التي أحبّها واعتاد عليها بين الحين والآخر مع الملازم صفوان، إلى أن تُوفّيت أمّه. لقد مرّ وقتٌ طويل على عدم خروجه إلى هذه الأماكن، فالحزن اجتاح قلبه، والكآبة نالت منه، وكان بمقدروه مغادرة سوريا والذهاب إلى موسكو في إجازةٍ طويلة، لكنّه لم يفعل، ترك كلّ مراسم الدفن والعزاء على عاتق عمّه وخالته وزوجها وابنتهما كارمن، وباتت موسكو بالنسبة إليه جرحًا عميقًا، يحتاج إلى وقتٍ طويل ليبرأ منه، ومن ذكريات مراهقته المتعلقة بأمّه. تلك الذاكرة التي أوجعته لسنوات، ثمّ غادرت وأصبحت طيّ النسيان، لكنّها عادت إليه من جديد برحيل أمّه، كما لو أنّها حدثت بالأمس القريب. وبطبيعة الحال، فإنّ المرء يعود بذاكرته بالتزامن مع من يغادرون الحياة، فلقد ظلّ لوكاس لعدّة سنوات تلت مراهقته، يتذكّر تفاصيل تلك الليلة التي جمعت ما بين أمّه وذلك الذي يُدعى ديمتري، وتعود به الذاكرة إلى تلك الليلة كلّما وقعت عيناه على رقعة شطرنج.

لطالما أحبّ لوكاس أن يكون لاعب شطرنجٍ مخضرمًا، مثل معظم الروس، شجّعه والده على ذلك، وأخذه أكثر من مرّة إلى نوادي الشطرنج ليلتقي مع هواة اللعبة ومحبّيها. كان لوكاس قد لفت انتباه البعض من أقرانه ومن أصدقاء أبيه، منذ أن كان في العاشرة من عمره، وكان يتمتّع بالكثير من الهدوء والثبات، ما جعله يبدو غريبًا بعض الشيء في عيون أقرانه ممّن يلعب الشطرنج معهم، فلا فرق بين تعابير وجهه حين يحرّك قطعةً في مكانٍ جيّد، وبين تعابير وجهه حين يحرّك قطعةً في مكان سيّئ. هذا بحدّ ذاته كان يربك الخصم، ولا سيّما أنّهم كانوا لا يزالون في مرحلةٍ مبكرة من أعمارهم ومن خبراتهم. وعندما كان

يرفع رأسه عن الرقعة، يعتقد الخصم للحظة أنّه سوف ينظر في عينيه، ولكنّه لم يكن يفعل ذلك، بل كان ينظر إلى الفراغ الذي بين رأس الخصم وحافة كتفه، وهنا يشعر الخصم بالخيبة لعدم التقاء عينه بعين لوكاس لحظة رفع رأسه، بينما لوكاس يكون بحاجة لمعرفة ما يجول في عينَي خصمه.

بعد ذلك غادر والده الحياة، وكانت أمّه في الخامسة والأربعين، فقد تزوّجت في عمر مبكر، فيما كان لوكاس قد أصبح بعمر المراهقة. حينها تعرّفت إلى ديمتري الذي يصغرها بعشر سنوات، في أحد نوادي لعبة الشطرنج التي كان يرتادها لوكاس برفقة والده قبل وفاته، إذ تابعت أمّه اهتمامها بذلك، وكانت تلتقي هناك ببعض الصديقات والأصدقاء من آباء وأمّهات أصدقاء لوكاس، فثمّة زاويةٌ جميلة للجلوس في النادي لشرب القهوة والتمتّع ببعض الأحاديث، بينما طاولات الشطرنج في الجانب الآخر، كان ذلك يحدث مرّةً واحدة في نهاية الأسبوع.

ذات مرّةٍ كانت جالسة وحدها في ذلك النادي، تراقب ابنها لوكاس وهو يلعب الشطرنج، وكانت الوحدة تحتلّ قلبها بعد رحيل زوجها الذي أحبّته. ليس من الوفاء ألّا تحبّ المرأة بعد رحيل زوجها، بل الوفاء أن تقع في حبٍّ طاب لها من تجربةٍ سابقة، وأن يبقى قلبها ممتنًّا لمن جعلها تدمن الحبّ وتألفه مع رجلٍ آخر، هذا ما كان يراودها خلال الشهور الأخيرة، وشعرت بأنّ اهتمامها بلوكاس لن يسدّ الفراغ الذي تمرّ به. ثمّة فارقٌ كبير ما بين يدها التي تمسح بها شعر ابنها قبل النوم، ويدها التي تمسح بها كتف رجل وهو يتنفّس الهواء وشفتاه على شفتيها، وثمّة فارقٌ ما بين قلقها على ابنها من رفاق السوء وتعاطي المخدّرات، وقلقها على رجلٍ بأن لا يصبح نهداها بين يديه مثل جرعة مخدّرات. لقد عظم الحبّ في وجدانها وهي بكامل نضجها، وفي ذروة حماستها لتفاصيل لم تحدث معها من قبل، وبدت الثياب التي باتت ترتديها مثل حروف نداءٍ للموسيقى التي تسري في دمها طوال الوقت. كانت امرأةً جميلة مثل شرارةٍ تُشعل الدماغ وتجعل الوجه مشدوهًا ثابتًا، وكانت نظراتها متنوّعة الاحتمالات، تصلح لكلّ شيءٍ يُراد، أمّا شعرها فهو أمنيةٌ لأقلّ الحلّاقين موهبة، أيّ تسريحةٍ أو قصّة يقوم بها ستبدو جميلةً وبأفضل هيئةٍ وأحسن حال.

أثناء جلوسها هذا، اقترب ديمتري من طاولتها وهو أستاذٌ للشطرنج يأتي إلى النادي بين الفترة والأخرى من باب التطوّع. سبق أن رأته وهو يدور بين رقع الشطرنج ويُعطي ملاحظاته للّاعبين، ومن بينهم لوكاس الذي ناقشه ذات مرّةٍ في مسألة تتعلّق بنهاية دورٍ بينه وبين أحد أقرانه من الأصدقاء، حينها بدا على ديمتري شيءٌ من الإعجاب بلوكاس، ومنحه ابتسامةً وتشجيعًا على ذلك النقاش وتلك المسألة، وفي المقابل تلقّى لوكاس نصيحةً من ديمتري تتعلّق بحركة الملك أثناء النهايات.

وقف أمامها مبتسمًا:

– ديمتري، مهندس ديكور، ولاعب شطرنج متواضع.

نظرت إليه وقالت:

– نتاليا، والدة لوكاس. مع أنّني أخشى من المتواضعين، ولكن بإمكانك الجلوس.

جلس ديمتري قائلًا:

– ولأنّني مغرمٌ بالهندسة سأجلس.

كانت بدايةً هادئة من دون ضجيج، شرب القهوة معها، وتحدّثا عن لوكاس قليلًا، وكانت النظرات بينهما تبدو كما لو أنّهما تحدّثا عن أمورٍ كثيرة، فأجمل المعاهدات والاتّفاقات هي تلك التي تحدث دون الحاجة إلى التوقيع على بنودها، والعبرة تقبع دومًا في أطراف المعاهدات لا في بنودها. بعدها غادر المكان بالهدوء نفسه الذي ظهر عليه لحظة وقوفه أمامها.

بقيت عبارته المتعلّقة بغرامه بالهندسة في بالها، وابتسمت لها بعد مغادرته، فيما راودها شكٌّ في مسألة تواضعه، فمن الواضح أنّه قصد ذلك التواضع المرهون باللطف الذي ترافقه تلك الابتسامة لحظة تقديم المرء نفسه للآخر. أمّا تلك الوسامة التي هو عليها فلم تنتبه إليها حين لمحته في المرّة السابقة، فهذه بالنسبة إليها مسألةٌ بديهيّة، إذ لا يمكن للوسامة أن تبدو على المرء ما لم تكن محمولةً بذلك اللطف وتلك الكلمات وحسن الوقوف أمام امرأةٍ يتودّد إليها تاركًا وسامته خلف ظهره.

بعد ذلك، تجدّد اللقاء بينهما على الطاولة نفسها، بثيابٍ أخرى، وحديثٍ آخر، ومسافةٍ أقصر، كما لو أنّهما يلعبان الشطرنج، ولكن دون الحاجة إلى موت الملك، بل بدت كما لو أنّها القلعة، وهو ذلك الحصان الذي يصهل عند أسوارها.

ديمتري الذي يصغرها بعشر سنوات، طرقَ باب قلبها كما لو أنّه مسح عشر سنوات من عمرها. انقلب الطقس في موسكو كأنّه اقترب من خطّ الاستواء، والثياب التي كانت بالنسبة إليها عاديّةً جدًّا، باتت تبدو عليها أجمل بكثير. صارت ساعات اليوم الطويلة أقصر ممّا كانت عليها قبل أن يرتطم قلبها بقلب ديمتري، واتّسعت شوارع موسكو حين كانت تمشي فيها وهي تفكّر فيه. بدت النصب التذكارية في «حديقة ألكسندر» كما لو أنّها تودّ مرافقتها وديمتري حين كانا يمشيان فيها، وكان قلبها قادرًا بنبضاته على مواجهة ذلك التفوّق الروسي بطائرات الميغ والسوخوي التي سيأتي يوم ويحلّق ابنها لوكاس في إحداها دون أن تدري بهذا القدر الذي سيقوده إليها حين يكبر.

في أحد مساءات موسكو الباردة جاء ديمتري وطرق باب بيتها، كان ذلك بدعوة منها ومن لوكاس الذي رغب في أن ينهل منه بعضًا من خطط النهايات في أدوار الشطرنج، فأكثر ما كان يربك لوكاس في اللعب هو تلك النهايات، حتّى لو كان متفوّقًا على خصمه. سبق له أن استفاد من ذلك الشرح السريع في النادي، حين سلّط له الضوء على ضرورة تحرّك وتقدّم الملك نحو المربّعات الساخنة بالبيادق، وعلى ضرورة ربط فيل ببيدق، ليجد الملك له مكانًا بالمناورة والاختباء من ظلال قلعة الخصم، إلى أن يضطرّ الخصم إلى التضحية بتلك القلعة مقابل الفيل، ومن ثمّ يأتي دور الملك باحتلال المنطقة وحماية تلك البيادق والتقدّم بها إلى خطّ النهاية ليصبح أحدها وزيرًا، ثمّ يستسلم الخصم دون أن يدري أنّ الملك الحقّ هو الذي ينقلب

دوره ما بين بداية اللعبة ونهاياتها، ويتحوّل من رمزٍ محاط بحمايةٍ من كلّ الجهات، إلى قائدٍ يتوسّط المعركة، ويحمي القطع التي دفعت الغالي والنفيس لحمايته في ما مضى.

أعدّت نتاليا طبق البورش الذي يحبّه ديمتري، وطبق الكاشا الذي يحبّه لوكاس، بينما فضّلت هي أن تتناول شوربة الفطر بالخضروات. كان الحديث بين الثلاثة لطيفًا، والدفء حميمًا كما لم يحظَ به هذا البيت منذ رحيل والد لوكاس، وبحركةٍ عفويّة تناولت نتاليا القليل من طبق ديمتري حين أعرب عن إعجابه بطبق البورش، هذه الحركة الصغيرة جعلت لوكاس ينتبه إليها، فقال وهو يأكل من طبق الكاشا:

– إنّه شهيّ.

ابتسمت له دون أن تشاركه ولو بملعقةٍ واحدة، كما فعلت مع ديمتري، فشعر لوكاس بمرارةٍ رافقت طعم الكاشا في بلعومه، ورافقت تلك الاضطرابات التي تحدث في عمر المراهقة، عدا عن رحيل والده في عمر مبكر، بالإضافة إلى تلك الحساسية العالية التي يتمتّع بها لاعبو الشطرنج، والخيال الذي لا يمكن للاعب شطرنج أن يتفوّق باللعبة دونه، إذ تُبنى عليه مجموعة حركات.

إنّ شعور المرء بشيءٍ من الخيبة أو بانكسارٍ صغير يكون مضاعفًا عندما يحدث في اللحظة التي يسبقها شعورٌ بالسعادة، حتى وإن كان هذا الانكسار ليس واضح المعالم، أو ليس بحجمٍ كبير، إلّا أنّ القلق الذي يرافق اللحظات الحميمة يجعل المرء دومًا في حالة ترقّبٍ وحالة خيال، كما لو أنّ ثمّة شيئًا ما يهدّد هذه اللحظات التي لم تحدث منذ رحيل أبيه. في الوقت ذاته، ودون وعي منه، لم يرقه المشهد، فقد اعتاد رؤية أبيه على هذا الكرسيّ الذي يجلس عليه ديمتري. وما زاد المشهد فوضى هو تلك الحركات التي ظهرت على أمّه نحو هذا الرجل الذي تبادل معه نظرةً خاطفة، وهو الذي اعتاد في الشطرنج ألّا يمنح تلك النظرة التي تتيح للخصم رؤية حدقتَي عينيه. كلّ ما يحدث حول الطاولة بدا كمشهدٍ سوريالي؛ نظراتٌ حميمة ما بين رجلٍ وامرأة، ونظراتٌ ما بين تلميذٍ وأستاذه في الشطرنج، وكانت حركة أياديهما التي تتناول الطعام، كما لو أنّها حركات شخصين يتنافسان على رقعة شطرنج بصمتٍ مطبق، وعيون بلغتين مختلفتين.

بعد العشاء، نقل ثلاثتهم الأطباق وما على الطاولة إلى المطبخ، وكانت نتاليا سعيدةً بالكلمات التي تحدّثت بها مع لوكاس ومع ديمتري أثناء خطواتهم ما بين الصالون والمطبخ. ظهر الاسترخاء على ديمتري كما لو أنّه يرسم ديكورًا جديدًا للمكان بعينيه، أمّا لوكاس فأخفى كلّ ما كان يعتريه، فبدا كما لو أنّه واقف ما بين امرأةٍ عاشقة، لكنّها أمّه، وما بين أستاذٍ لا يبخل عليه بالنصائح والتعليم، لكنّه خصمه وخصم روح أبيه التي كانت جالسةً معهم على الطاولة بعينين لا تتحرّكان.

مضت ساعةٌ من الحديث بعد تناول العشاء، ومثلما يتلقّى لاعب الشطرنج حركة حصان مزدوجة (كش ملك) من جهة، ووزير قد انتهى أمره بذات الحصان من الجهة الأخرى، كذلك شعر لوكاس حين طلبت أمّه من ديمتري أن يُكمل السهرة معهما، وقالت إنّ الوقت لم يزل باكرًا على الذهاب، فلقد كانت سعيدةً للغاية بوجوده الذي كان فرصةً جيّدة ليتعارف لوكاس وديمتري أكثر، ولتزداد الألفة بينهما، وما جعلها

تطلب من ديمتري البقاء هو أنّ هذه السهرة جاءت في ليلة عطلة نهاية الأسبوع، وهذا سببٌ مقنع لبقاء ديمتري دون أن ينتابه الحرج منهما.

شعر لوكاس بشيءٍ من النعاس، لكنّه لم يُظهر هذا لهما، كان يقظًا كما الكبار، إذ إنّ المراهقين يحبّون تقليد الكبار في علاقتهم مع السهر، ومن جهةٍ ثانية، أراد لوكاس في قرارة نفسه أن يلعب الشطرنج مع ديمتري. فقد وقف عند الطاولة الصغيرة التي عليها رقعة الشطرنج، وبدأ يلهو بالقطع التي عليها كي يراه ديمتري ويطلب منه اللعب، لكنّ ديمتري كان مشغولًا بحديثه مع نتاليا، ونتاليا مشغولة بنظراتها إليه. كان تأثير الفودكا قد بدأ يظهر عليهما، وذلك حين أطلقت نتاليا ضحكتها على رواية ديمتري لحادثةٍ غريبة حصلت له أثناء تنفيذ تصميم هندسة ديكور لقصر أحد رجال الأعمال في سانت بطرسبرغ: لقد حدث خلافٌ بين ذلك الرجل وزوجته حول تفاصيل ديكور الصالون، وعلى أثر هذا الخلاف غمزت الزوجة كي يقف ديمتري مع رأيها، وهذا ما حدث، ولقد ضحك ديمتري أيضًا حين أخبر نتاليا بأنّه أدرك في ما بعد أنّ الزوجة كانت على صواب أكثر منه في ذلك التفصيل، حتى وإن كان مهندس ديكور.

هذه الضحكات جعلت لوكاس يزداد إصرارًا على أن يكون له دورٌ في هذه السهرة، لذلك طلب من ديمتري أن يعطيه رأيه في مسألةٍ شطرنجيّة تتعلّق بالنهايات، ومثل هذه المسائل تكون عادةً عبارة عن عدّة قطعٍ قليلة، موزّعة بطريقةٍ ذكيّة، ويكون السؤال:

– كيف يمكن للأبيض أن يفوز على الأسود بعدّة نقلات؟

وثمّة مسائل سهلة الحلّ، ومسائل معقدّة الحلّ، ودومًا يحتاج الحلّ إلى خيالٍ قد يصعب على لاعبي شطرنج بمستوًى جيّد، أو حتّى بمستوًى ممتاز.

راقت الفكرة ديمتري، كما راقه تأثير الفودكا وتأثير المساحات المكشوفة من جسد نتاليا، وشعر بأنّ مذاق القبلات في هذه اللحظات سيكون له طعمٌ غير الطعم الذي حدث مرّةً واحدة في حديقة ألكسندر عندما افترقا بعد قضاء وقتٍ ممتع بالأحاديث.

جلس ديمتري يرتّب مسألةً من المسائل التي يعرفها، ووضع الملكين الأبيض والأسود، ثمّ وضع وزيرًا وقلعة وبيدقين من القطع البيضاء، ووضع قلعةً وحصانًا وبيدقًا متقدّمًا من القطع السوداء، وقال للوكاس:

– الأسود يلعب ويفوز.

كانت مسألةً من العيار المتوسّط، ليست سهلةً وليست مستحيلة. ترك الرقعة أمام لوكاس الذي جلس يفكّر في الحلّ، بينما عاد ديمتري وجلس بجانب نتاليا، مرّت خمس دقائق ولم يزل لوكاس يحاول الحلّ، في هذه اللحظات قامت نتاليا إلى المطبخ وهي شبه ثملة، وحين لاحظ ديمتري أنّ لوكاس في عالمٍ آخر، لحق بنتاليا إلى المطبخ، وقف وراءها وهي تضع التشيبس في صحنٍ لتقدّمه للوكاس، وضع يديه على خصرها وأطراف مؤخّرتها، ومال بعنقه على عنقها، تنهّدت وأمسكت يده بشدّة، ومالت بفمها ليلتقي بفمه الذي كان ينتظر وصول شفتيها المبلّلتين بالاشتهاء. بدأت الغواية تذوب من حلمتي نهديها، وكانت

النشوة بينهما أرقّ من رقائق التشيبس التي كانت أمامها، وجامحةً أكثر من جموح الحصان الذي وضعه ديمتري على الرقعة التي أمام لوكاس.

عادا إلى الصالون، وكان لوكاس لا يزال منكبًّا فوق رقعة الشطرنج. وضعت نتاليا التشيبس وكأسًا من العصير على الطاولة الصغيرة التي أمام لوكاس، تناول قطعتين وهو يفكّر في الحلّ، وبدا أنّه غير موجودٍ معهما، كان غارقًا بما يفكر فيه، وكان ديمتري ونتاليا غارقين في أخذ جولةٍ ثانية من القبلات، وبما هو أبعد من القبلات. لم يسبق لهما أن مارسا الحبّ معًا، إذ لم تكن اللقاءات كافيةً لذلك، ولم تكن الرغبة قد وصلت في ما مضى إلى ما وصلت إليه في هذه اللحظات المفاجئة، فالرغبة تكون أكثر جموحًا حين تحدث في المكان واللحظة اللذين لم يُخطَّط لهما، ولهذا يهرب البعض إلى الكحول كي يكسر حالة الوعي بتلك النشوة التي تدور في الرأس، وهذا الدوران ما هو إلّا ترجمةٌ حرفيّة لما هو موجود في الرأس بطبيعة الحال.

أطفأت نتاليا المصابيح، وأشعلت إنارةً خافتة من زوايا بعيدة، وكذلك شغلت اللامبدير الصغير الذي يقع بالقرب من تلك الزاوية حيث يجلس لوكاس. بدا المشهد كما لو أنّ لوكاس وقطع الشطرنج على خشبة مسرح وسط دائرةٍ مضاءة، ولم يعد يرى من حوله بقدر ما كان يرى رقعة الشطرنج التي كانت الإضاءة تحتلّ وسطها، أعجبه المشهد، وابتسم لأمّه وكذلك لديمتري الذي وقف عند حائط الممرّ يدخّن سيجارةً وبيده كأس الفودكا الثالثة، بينما وقفت نتاليا وسط الصالون وبيدها الكأس الثانية، وراحت تراقب لوكاس بنظرات حبٍّ وتقديرٍ لإصراره على حلّ المسألة، وفي اللحظة التي أراد فيها ديمتري الذهاب إلى الحمّام لعلّ نتاليا تلحق به، قام لوكاس بحلّ المسألة وهو يقول:

– وأخيرًا.

تقدّم ديمتري منه ونظر إلى الحلّ الذي قام به لوكاس، ابتسم له، وقال له كلماتٍ حماسيّة. شعر ديمتري بحماسةٍ من نوع آخر نحو نتاليا، أراد مضاجعتها فورًا، فلقد انتابه الكثير من الحبّ نحوها في هدأة هذا الوقت، كما زادت هذه الإضاءة الخافتة من رغبته، وهنا قرّر ديمتري أن يكون لئيمًا، فأعطى لوكاس مسألةً أكثر صعوبة، وتحتاج إلى وقتٍ طويل للوصول إلى حلّها، وما جعل ديمتري يفكّر في ذلك هو يقينه بأنّ لوكاس لن يرفع رأسه عن رقعة الشطرنج إلى أن يحلّ المسألة.

ترك لوكاس منكبًّا يفكّر في مسألةٍ معقّدة الحلّ، واقترب من نتاليا التي كانت ترتدي تنّورةً طويلة بفتحةٍ تكشف عن ركبتها وساقٍ مثل زجاجة بيرة عليها بعض قطرات الندى. في عينيها مزيجٌ من السعادة، عينٌ للوكاس وهي فخورة به، وعينٌ لديمتري وهي مستسلمةٌ لجموحه المفاجئ مثل انزلاق صابونةٍ من بين اليدين. لقد أجّج كلّ الدماء التي في عنقها حين وقف وراءها في المطبخ، وأشعل المسافة ما بين نهديها وهو يقف ناظرًا إليها كما لو أنّه ثورٌ في حلبة ثيرانٍ إسبانيّة. لم يكن يفصله عنها سوى أن تختار المكان الذي ستتحرّك نحوه ليتبعها، المطبخ أو الحمّام، وربّما غرفة نومها أو في نهاية الممرّ المظلم

الذي يفضي إلى تلك الغرف. كان الصمت في مكانٍ يزداد وينتصب، يتّسع ويضيق مثل خمسة أصابع تتداخل بخمسة أصابع ليدٍ أخرى، عدا ذلك، ثمّة قلبٌ ينبض بالحبّ، وصدرٌ يحتضن، وشوقٌ يحتاج إلى ترجمةٍ فوريّة ولا يقبل التأجيل.

لم تختر أيّ مكانٍ من الأمكنة التي دارت في بال ديمتري، مشت بخطواتٍ هادئة وواثقة نحو البلكون الواسع الذي يطلّ على حديقةٍ صغيرةٍ في الحيّ، وتبعها ديمتري بعدما ألقى نظرة وداعٍ على لوكاس المنكبّ فوق رقعة الشطرنج. بدت خطواته كما لو أنّه يمشي فوق أزرار آلة البيانو، وقف على باب الشرفة وكانت نتاليا واقفةً تسند ظهرها إلى الدرابزين وبيدها كأس الفودكا الثالثة. نهداها كسرا البرد الذي في المكان، وساقها التي ثنتها إلى الأعلى، زادت من حرارة الدماء التي تجري في عروق ديمتري. اقترب منها ووقف أمامها كما لو أنّه يريد حلّ مسألةٍ أكثر تعقيدًا من المسألة التي وضعها للوكاس، تنفّس أمام وجهها، وتنهّدت أمام يده التي أمسكت خصرها بشدّة. كان هذا كفيلًا بمعرفة المدى الذي يجعله قادرًا على أن يرمي بنفسه من هذا البلكون على الأرض، فلقد ذاب بها كما لو أنّه لم يلمس امرأةً مثلها من قبل، وذابت به كما لو أنّها ستلمس آخر رجلٍ في حياتها، وستبقى هذه الصورة تعوم فوق كلّ ذكرياتها مع من قابلتهم في حياتها. كانت على يقينٍ تامّ بأنّ لحظة الحبّ حين تأتي لا بدّ من أن تحمل معها شيئًا خارج السياق، كهذا البلكون الذي يخرج عن سياق بناء المنزل، كما لو أنّه برعمٌ خرج في الهواء.

استدارت وأعطته ظهرها، رفع تنّورتها والتصق بمؤخّرتها، هبط شعرها نحو الأسفل كأنّه أغصان نباتاتٍ على حافة البلكون. وقف وراءها مثل ماسحة زجاج سيّارة في ليلةٍ ماطرة، وراحت تشدّه نحوها بيدها كما لو أنّها تريد أن يدفع بها نحو الأسفل لتسقط من البلكون. أمسك بشعرها من منبته، وحكّ لها فروة رأسها بأظافره مثل حيوانٍ بمخالب، وكان صدى الكلمات بينهما يتردّد دون كلام، فهي تريده أن يستمرّ دون توقّف، وهو يريدها أن تطلب المزيد. كانت مؤخّرتها بين فخذيه مثل كرة سلّةٍ داخل الشبكة، إلى أن ثنى ركبته ليأخذ زاويةً مائلة ويمسك حلمة نهدها بأصابعه ويشدّ عليها، طفح الوجود في رأسها ثمّ استدارت نحوه وتبادلا القُبَل بطريقةٍ عشوائيّة، عضّت كتفه وتمنّت لو أنّه يتأوّه، غير آبهةٍ بأيّ شيء، إلى أن جلس على الكرسيّ الذي في زاوية الشرفة، جثت بين ركبتيه، ومالت برأسها وهو يُمسك بمنبت شعرها. كان مثل حجر صوّانٍ بمسنّنات قدّاحة، وخرجت منهما الشرارات كتلك الصادرة عن أسلاك كهرباء عارية تحت المطر، وكانا متداخلين كما الخاتم في الإصبع، ثمّ انطفأ البريق في عينيهما للحظات، وعاد الهواء الطبيعي إلى رئتيهما من جديد، كما لو أنّهما كانا في سباق مئتي مترٍ للجري.

لكنّهما لم يكونا على علمٍ بأنّ لوكاس كان شاهدًا على اللحظة التي رفع فيها ديمتري تنّورتها وهو يقف وراءها. لقد استطاع حلّ المسألة في زمنٍ لم يكن في حسبان ديمتري، نظر من حوله فلم يجدهما في الصالون ولا المطبخ، فظنّ أنّهما في المطبخ يتحدّثان بصوتٍ منخفض كي يمنحاه الهدوء في التفكير، إلى

أن وقف على مدخل البلكون للحظاتٍ قليلة ليرى ديمتري وهو ويقف وراء أمّه في مشهدٍ لا يختلف عن حلّ مسائل النهايات في الشطرنج.

لحظتها عاد لوكاس إلى مكانه، وشعر بالكثير من الحرج والاضطراب، ففي اللحظة التي كانت فيها السعادة تغمره حين وجد حلّ المسألة المعقّدة، شاهد ما هو أكثر تعقيدًا، وما لا يريد رؤيته، إذ إنّ خيال الأبناء عادةً لا يمكن أن يقودهم إلى حقيقة أنّ الآباء يضاجعون أمّهاتهم، حتى وإن كانوا على علم بذلك، فكيف يمكن لأحدهم أن يرى أمّه في أحضان رجلٍ آخر يضاجعها في مشهدٍ كهذا!

كان المشهد ثقيلًا على قلبه، هو الذي أصابه جرح صغير حين تناولت أمّه من طبق ديمتري دون طبقه، وما كسر خاطره أكثر هو أنّ ديمتري تقصّد وضع مسألةٍ شديدة التعقيد لأجل أن يحظى بذلك الوقت مع أمّه. كان لوكاس على يقينٍ بأنّ أمّه تستطيع فعل ذلك في مكانٍ آخر، فهو يعرف أنّ الغريزة بالغة التعقيد، ولا سيّما أنّه يخوض ذروة تلك الاضطرابات المتعلّقة بمرحلة المراهقة التي يمرّ بها، ومثلما كان حريصًا كلّ الحرص على ألّا يتبادر إلى ذهنها أنّه يمارس العادة السرّية، كذلك كان عليها ألّا تقع أمام عينيه وهي في حالةٍ كتلك. في اللحظات التي عاد خلالها إلى رقعة الشطرنج، مرّ الوقت عليه بمنتهى البطء، فقد كان يدرك كلّ بقيّة التفاصيل التي قاما بها بعدما رفع تنّورتها، ولم يكن يريد شيئًا عندها سوى أن يراهما يخرجان من البلكون.

لقد شعر بمؤامرةٍ كسرت وجدانه، ففي اللحظة التي كان مستمتعًا فيها بالتفكير أمامهما في حلّ المسألة كما لو أنّهما كانا الجمهور، أدرك أنّهما المستمتعان على البلكون، فيما كان هو الجمهور دون قصدٍ منه. لقد شعر بأنّه وقع في شعورٍ بالغ التعقيد، كيف يمكن للمنزل أن يجمع كلّ هذه التناقضات في سهرةٍ تجمع ثلاثة أشخاصٍ ورقعة شطرنج وبلكونًا مثل نتوءٍ بارز في جبينه.

بقي لوكاس جالسًا يدّعي التفكير ورأسه فوق رقعة الشطرنج، ليفسح لهما العودة دون أن يشعرهما بأنّه حلّ المسألة، لحظتها وقف ديمتري فوق رأسه وهو ينظر إلى الرقعة، بينما دخلت أمّه الحمّام، فقال ديمتري بصوتٍ خافت، وبنبرةٍ يظهر عليها الهدوء:

– يبدو أنّك لم تُفلح في حلّها.

قال لوكاس دون أن يرفع رأسه:

– لستُ خبيرًا مثلك في النهايات.

صمت ديمتري للحظاتٍ، وكان يرجو أن يرى وجه لوكاس وهو يصغي إليه ليرى ما الذي في عينيه، ثمّ قال:

– ستكبر وتعرف أنّ المرء كلّما تقدّم في العمر، يصبح بحدّ ذاته جزءًا من النهايات، كما لو أنّه هو المسألة التي يسعى إلى حلّ لغزها.

رفع لوكاس رأسه وقال:

– لم أفهم.

قال ديمتري:

– سيأتي يومٌ وتفهم، كأنّك تقف على بلكون وترى العالم من فوق، كما لو أنّها النهاية.

لم يقل لوكاس أيّ شيء، لكنّه شعر بأنّ ديمتري يملك قدرةً على هندسة الكلمات مثل هندسة الديكور التي يعمل فيها. أحسّ أنّه تحدّث بكلماتٍ كهذه ليجعله ما بين بين، فإن شعر لوكاس بما حدث على البلكون، يكون ديمتري قد أجابه على عبارته، وإن لم يكن يعلم بما حدث، يكن قد مارس البوح الذاتي الذي انتابه بعد تلك اللحظات، كأن يقول أحدٌ ما:

– الطقس جميلٌ في هذا اليوم.

يقول ذلك بناءً على حالة بوحٍ يحتاجُ إلى قولها دون ذكر الأسباب وبقيّة التفاصيل التي جعلته يشعر بجمال طقس ذلك اليوم.

لم يكن ديمتري يعلم بأنّ عبارته الأخيرة التي قالها للوكاس في ما يتعلّق برؤية العالم عن البلكون كانت مثل نبوءةٍ د ون قصد، و لم يكن يعلم لوكاس بأنّ هذه ا لعبارة ستبقى في ذ هنه د ون و عيٍ منه، ستقوده ليصبح في يومٍ من الأيّام طيّارًا حربيًّا في الجيش الروسي، ليرى العالم من فوق، وليرى أصغر شيءٍ يمكن رؤيته. ذلك البلكون الذي اعتبره ديمتري مكانًا جيّدًا للعلوّ، سيراه لوكاس بمثابة هدفٍ عسكري يمكن إطلاق صاروخٍ عليه بكبسة زرٍّ كمسألةٍ تتعلق بالنهايات، كخديعةٍ مثل الحرب والسياسة.

خرجت نتاليا من الحمّام، وكان وجهها مبتهجًا مثل طفلة، وابتسامتها ظهرت في عينيها، وقفت بجانب ديمتري وقد أمسكت بيده بعفويّةٍ تامّة وهي تسأله عمّا إن استطاع لوكاس حلّ المسألة أم لا، وقبل أن يجيبها ديمتري، أجابها لوكاس:

– لا، رغم أنّني كنتُ أملك كلّ الوقت المتاح لحلّها.

قالت له وهي تمسح على شعره:

– لا عليك، يبدو أنّها كانت صعبةً للغاية.

قال ديمتري:

– نعم، هي كذلك.

وكاد لوكاس يصرخ ليخبرهما أنّه حلّها في اللحظة التي كانا يمارسان الحبّ فيها على البلكون، بعدما نسج ديمتري له هذه المؤامرة البالغة التعقيد ليحظى بأمّه كما يحلو له، وكما يحلو لها أيضًا، لكنّه اكتفى بالصمت الذي أقلق أمّه للحظةٍ، وأثار الشكّ داخل ديمتري للحظتين. فما قاله لوكاس حول امتلاكه كلّ الوقت المتاح، يُثير الريبة في ما يتعلّق بالوقت الذي أراده ديمتري ونتاليا لذهابهما إلى البلكون، وحدوث ما حدث.

وبعد ذلك بقليلٍ قرّر لوكاس الذهاب إلى غرفة نومه لينام، فلم تعد لديه رغبةٌ في أيّ شيء يحيط به من تفاصيل المكان ومن فيه. قرّر ذلك كمن يقول في قرارة نفسه: تستطيعان فعل ما ترغبان فيه دون خديعة ودون مؤامرة ودون بلكون، غرفة النوم بانتظاركما إن كانت لديكما الرغبة في متابعة ما حدث بينكما.

كانت ليلةً تاريخيّة لا تُنسى من ذاكرة لوكاس، ولا من ذاكرتَي ديمتري ونتاليا. ظلّت العبارات التي دارت بين لوكاس وديمتري حيّةً لا تموت، وكذلك النظرات، والأهمّ من هذا كلّه ذلك المشهد الذي وقعت عيناه عليه عند قضبان البلكون الحديديّة، تلك القضبان التي أمسكتها نتاليا بيديها بينما كان ديمتري يمسك خصرها بمخالبه مثل حيوانٍ مفترس دون توقّف، ودون هوادة.

ظلّ لوكاس يذهب إلى نادي الشطرنج، وكان يرى ديمتري بين الحين والآخر، وبدت العلاقة واضحةً بعد ذلك بين ديمتري وبين أمّه، لكنّ لوكاس توقّف بعد ذلك عن الذهاب إلى النادي، وانطفأت رغبته في لعب الشطرنج، وصار يهتمّ بدروسه أكثر من ذي قبل. لقد لاحظت أمّه ذلك، ولم تضغط عليه في ما يتعلق برغبته هذه، لكنّها ذكّرته بأنّ والده كان يرغب في أن يكون لاعب شطرنج محترفًا، ويحقّق البطولات في موسكو وخارجها، لكن دون جدوى.

لم يعد ديمتري يرغب في المجيء إلى بيت نتاليا، كانت هي تذهب إلى بيته بين الحين والآخر، إلى أن أصبحت العلاقة فاترةً بينهما، فلم يتّفقا على ما يتعلّق بالارتباط، ديمتري أراد ذلك، لكنّ نتاليا لم ترغب فيه، كانت فقط تعيش الحبّ معه، وذكّرته بفارق السنّ بينهما. بقيت الأمور بينهما على هذه الحال، إلى أن جاءت فرصة عملٍ ممتازة لديمتري من شركةٍ أميركيّة في مجال الديكور، حينها اقترح أكثر من مرّة على نتاليا أن تسافر معه، سواء بمفردها أو برفقة لوكاس، لكنّها رفضت ذلك، وكانت ممتنّةً لكلّ التفاصيل والحبّ الذي حدث بينهما. بدا عاطفيًّا جدًّا في اعترافه بأنّها كانت امرأةً لا يمكن نسيانها، وبأنّ البرود الذي حدث بينهما بطريقةٍ غير مباشرة كان بسبب التفاصيل التي لاحظتها في لوكاس، كما لو أنّه لا يرغب في وجود هذا الرجل في حياتها، مع أنّه لم يقل أيّ شيءٍ صريح بهذا الخصوص. لكنّ تركه للشطرنج خلّف في داخلها شيئًا من الشكوك التي تتعلّق بموقفه من ديمتري. وربّما في تلك الليلة انتابها شيءٌ من الفوضى الداخليّة المتعلّقة برؤية أو معرفة لوكاس بما حدث، فقد كانت تلك الليلة ثملةً بالكحول، وجامحةً بالرغبة، ورشيقةً بالحبّ، وسعيدةً بلوكاس، وعالية المقام على ذلك البلكون، كما لو أنّها رغبت في أن تتأرجح في الهواء كما شعرها الذي تدلّى من الأعلى.

مرّت سنتان على ذلك الحبّ حين جاءت فرصة العمل لديمتري، ولم تكن هذه الفرصة هي التي جعلته يُغادر موسكو، بل البرود الذي حدث بينه وبين نتاليا، ومن جهة ثانية، كان يرغب في الذهاب إلى أميركا حيث تعيش عمّته في ولاية فلوريدا التي لطالما حدّثته عن سحرها وسحر البحر والراحة التي يمكن أن يحظى بها المرء حين يتوفّر لديه المال. كانت امرأةً تملك ذلك المال، ولكنّها كانت بحاجة لمن يكون

بالقرب منها بين الحين والآخر، لتكسر الوحدة والوحشة بعد وفاة زوجها الأميركي، ومغادرة ابنتها إلى كندا بعد زواجها. لم يكن ديمتري يعلم أنّ عمّته هي التي سعت لتأمين الفرصة التي حظي بها من تلك الشركة، كان يستحقّ ذلك بعد اطّلاع الشركة على سمعته ومنجزاته في هندسة الديكور، والشهادات والامتيازات التي أرفقها بملفّه. قبل ليلةٍ من يوم الرحيل، كانت نتاليا في بيت ديمتري، ساعدته في حزم أمتعته، وفي غسل قلبه من وجع الوداع، تعانقا طويلًا وتبادلا كلمات الحبّ والودّ والأمنيات، وعبّرا عن امتنانهما للسنتين اللتين جمعتهما معًا. كانت نتاليا فيّاضةً بالدفء الذي سال من بين أصابعها على رأس ديمتري وهي تعبث بشعره، كان حزينًا على هذا الفراق، لكن ابتسامته كانت حاضرةً كلّما وقعت عيناه على عينيها. تبادلا الدعابات التي حدثت بينهما في ما مضى، وكان العشاء ممتعًا في تحضيره، وشهيًّا في مذاقه، والمساء واسعًا مثل رداءٍ فضفاض على فؤاديهما، واحتضنتهما الأريكة بمنتهى الحبّ. عند الباب تبادلا القبلات الدافئة، وكلّما وضعت يدها على مقبض الباب لتخرج، أمسك ديمتري بيدها، فيعاودان تبادل القبلات من جديد، إلى أن فتحت الباب ووقفت أمامه، ولم يكن يعلم أنّ تبادل نظرات الوداع على مسافة مترٍ واحد أكثر صعوبة من وداع المطارات الذي لا يحبّذه ولم يرغب في حدوثه مع نتاليا.

قال لها:

– أبلغي لوكاس تحيّاتي.

قالت له:

– بالتأكيد.

قال لها:

– أحبّك.

قالت له:

– وأنا كذلك، وربّما أكثر.

قال لها:

– لن أعود ثانيةً إلى موسكو، أريدها أن تبقى في ذاكرتي مثل وجهك الذي أحببته.

قالت له:

– وسأبقى في موسكو لأنّها باتت أجمل من أيّ وقتٍ مضى من بعد الحبّ الذي وقع بيننا.

أمسكها من كتفيها وقال لها:

– أستطيع أن ألغي سفري وأبقى هنا.

قالت:

– لا، يجب أن تغادر، أفضل ما قد يحدث لهذا الحبّ هو بقاؤه في الذاكرة.

تعانقا من جديد، ثم أدارت ظهرها وغادرت، فيما بقي واقفًا للحظات كما لو أنّه يقف أمام بوّابة الخروج في مطار فلوريدا لحظة وصوله.

مرّت السنوات مسرعةً كعادتها، ماتت نتاليا، وبقي ديمتري في فلوريدا يدير شركته، تُوفّيت عمّته، تاركةً له منزلها وبعضًا من المال، بينما أصبح لوكاس الآن في اللاذقيّة يعيش لحظات حزنه في قاعدة حميميم العسكرية التابعة لنفوذ بلاده. لقد راودته أمنيةٌ عابرة تتعلق بحاجته إلى رؤية كارمن، وتمنّى لو أنّها جاءت من بيروت إلى اللاذقيّة كما المرّة السابقة، لكنّها اكتفت بإرسال تحيّاتها له، وذلك عبر البورتريه الذي تسلّمه الملازم صفوان من علياء.

عند الساعة الثانية فجرًا قرّر لوكاس النزول بسيّارته إلى الكورنيش الجنوبي، كانت اللاذقيّة شبه نائمة، ولم يكن ثمّة ما يشير إلى الصحو سوى مشهد البحر الغارق بنفسه. توقّف عند زاويةٍ خاوية، ونزل من سيّارته، ثمّ وقف ينظر في الامتداد، وعادت به كلّ الذكريات. تذكّر ديمتري تلك الليلة ومسائل الشطرنج في النهايات، والعلوّ الذي حدّثه عنه، ذلك العلوّ الذي بات بالنسبة إليه مكانًا منخفضًا بعد العلوّ الذي بات يراه من السماء لحظة تدمير هدفٍ، كما لو أنّه يدمّر بلكونًا صغيرًا.

العالم مليءٌ بكلّ شيء، ولكن ما من شيءٍ إلّا والعالم كلّه في داخله، هكذا بدا لوكاس، انتابه شعورٌ طافح بهدأة النفس التي تأتي عادةً بعد حزنٍ عارم، فلم يكن رحيل أمّه مجرّد رحيل، بل كان بمثابة جرس تنبيهٍ إلى أنّه فقد أباه قبل ذلك، وأنّه الآن مجرّد ولدٍ تائه قذفه القدر ليكون على أرضٍ ليست أرضه، وفي بلادٍ ليست بلاده، وما ينتابه من مشاعر وهو داخل طيّارته الحربيّة، غير تلك المشاعر التي تنتابه وهو على الأرض. كلّ الذين يعرفهم في القاعدة العسكريّة لا تربطه بهم سوى تلك العلاقة العسكريّة، والانتماء لبلاده وقراراتها التي تأتي من موسكو لتحطّ رحالها في هذه القاعدة التي يكسوها الحديد، كذلك الحديد الذي كانت تتمسّك به نتاليا على البلكون.

لا يمكن لأحد أن يتخيّل طيّارًا حربيًّا يحاول أن يعانق البحر وهو بهذا الحزن الطافح، وبهذه الوحدة التي جعلته يخرج في هذه الساعة المتأخرة من الليل. كان كمن لم يفهم من حياته أيّ شيءٍ سوى هذا التفوّق العظيم لسلاح الجوّ لدى بلاده، وكان كمن فقد شيئًا من طفولته ومراهقته التي أكثر ما أحبّ منها هو تلك الهدأة العظيمة حين كان يدخل نادي الشطرنج ممسكًا بيد أبيه، ثمّ يجلس ليلعب مع أقرانه، حتّى إنّه لا يستطيع أن يُنكر حجم العاطفة التي كانت تنتابه حين يقف ديمتري بجانب طاولته ليمنحه تلك الملاحظات التي استوعبها وأبدع فيها تلك الليلة التي كسرت له قلبه حين أراد أن يعبّر عن تلك الصرخة «وجدتها» لكنّه لم يجد أحدًا من حوله ليوثّق له تلك اللحظة المليئة بالحماسة والنشوة، هكذا مثل عازف كمانٍ في محطّة قطار لم يصغِ إليه أحد، وهو الذي أبدع بعزف مقطوعته بمنتهى الجمال. كان بمقدوره في هذه اللحظات أن يبكي كالصغار، حتى وإن كان بلغ الأربعين. لقد أحبّ أن يكون مثل ميخائيل تال، بطل الشطرنج المفضّل لدى أبيه، فقد كانت صورته معلّقة على جدار ذلك النادي مع مجموعة أبطالٍ

آخرين، إلّا أنّ تال كان له النصيب الأكبر من أحاديث أبيه، وظلّ لوكاس يشعر بأنّ ثمّة شبهًا إلى حدٍّ كبير بين وجه أبيه ووجه تال. وبطبيعة الحال فإنّ المرء يشعر بالعاطفة نحو شخصٍ ما، حين تأتي سيرته على لسان الذي نحبّه، ولكنّه لم يجد وجهًا يشبه وجه أمّه، حتّى البورتريه الذي لم يره بعد. وحدها وجوه الأمّهات لا يمكن رسمها، فكلّ تفصيلٍ ثابت بملامح الوجه يمتدّ إلى تفاصيل أخرى لا يمكن القبض عليها بريشة رسمٍ أو عدسة كاميرا.

لقد ظلّ لسنواتٍ سابقة غير آبهٍ بأيّ شيء، فمثلما يموت البشر، كذلك تموت الأشياء، لكنّه لم يكن على درايةٍ كاملة بأنّ الموتى يراودون الذاكرة، وبأنّ الأشياء تعود وتتحرّك كذيل سمكةٍ بعد قطعها، وكحركة حصانٍ مزدوجة على رقعة شطرنج.

بعد يومين، قرّر اللقاء بالملازم صفوان، وحدث هذا في أحد المطاعم المخصّصة للضبّاط الروس. شربا القهوة، وتحدّثا قليلًا، فالملازم صفوان لا يملك المستوى الذي يملكه لوكاس في اللغة الإنكليزيّة، وكثيرةٌ هي المواقف التي يكون فيها صفوان منصتًا ومستمعًا لحديث لوكاس البارع بالإنكليزيّة إلى حدٍّ كبير، ويعود هذا إلى أبيه الذي كان أستاذًا لهذه اللغة.

أخذ لوكاس البورتريه من صفوان، ولم ينزع الورقة التي عليه. قرّر تأجيل رؤيته لوقتٍ لاحق، وتابعا بعض الأحاديث القصيرة عن أحوال البلاد، وعن بعض الأصدقاء من الضبّاط السوريّين وكذلك الروس. لم يكن صفوان يرغب في أن يسأله عن علياء، أراد أن يحتفظ بمعرفتها لنفسه، لكنّ لوكاس طلب منه أن يلتقي بها كي يشكرها على حملها للأمانة وإيصالها له.

ركب سيّارة صفوان وذهبا معًا إلى بيت علياء. كان لوكاس يعتقد أنّ صفوان هو من سيقوم بالترجمة بينه وبينها أثناء لقائه بها، حتى وإن كان اللقاء قصيرًا ومختصرًا، ومن جهةٍ ثانية من الأفضل له كضابطٍ روسي أن يكون برفقة ضابطٍ سوري في موقفٍ كهذا. لم يكن يعلم أنّ علياء تجيد الإنكليزيّة أكثر منهما، وأنّها قرأت الكثير من الأدب بلغته الإنكليزيّة، وأنّ الجامعة لم يكن لها فضلٌ عليها بقدر الفضل المتعلّق بحبّها الكبير لهذه اللغة التي حفظت من خلالها الكثير من مشاهد الأفلام السينمائيّة التي تركت أثرًا كبيرًا في دا خلها. كانت تستطيع أن تلقي الكثير من المونولوجات التي جاءت على ألسنة شخصيّات شكسبير، وهذا بحدّ ذاته جعلها تتمنّى أن يجد بديع ضالّته في المسرح أو السينما.

كان الوقت مساءً، وكانت علياء قد مرّت وهي عائدة على الخضرجي لتشتري علبة متّة، وزيتًا وزعترًا لأجل الصباح، بينما كان أبوها جالسًا مع بديع ينتظرانها على العشاء الذي قام بديع بتحضيره. وكعادتهما لعبا لعبة «عجن الكلام»، فقد جلب بديع معه عبارةً من الخارج، سمعها عند مدخل دائرةٍ حكوميّة، شخص يقول للآخر وهما يعبران من جانبه:

– لقد حذّرتك منه.

وأسهب بديع بتخمينات العبارة من جهة، وكذلك فعل أبو رواد الذي كان يستخدم ملامح وجهه وطريقة جلوسه أثناء كلّ تخمينٍ يتبادر إلى ذهنه حول التحذير الذي جاء على لسان ذلك العابر. عبّر بديع عن إعجابه بهذه التخمينات من خلال هزّ رأسه وفتح عينيه على اتّساعهما، كما لو أنّه مخرجٌ مسرحي يُبدي رأيه في أداء وحوار ممثّلٍ أمامه.

قام بديع وفتح الباب، فوجد شخصين يقفان أمامه، قال صفوان:

– مرحبًا.

ردّ بديع مستغربًا:

– أهلًا.

قال صفوان:

– أنا الملازم صفوان، نريد رؤية علياء.

ارتبك بديع قليلًا، ثمّ جاء أبو رواد وقال:

– ماذا تريد منها؟

قال صفوان:

– ليس هناك ما يدعو إلى القلق، نريد رؤيتها لتقديم الشكر لها.

قال أبو رواد:

– هي ليست هنا الآن. إن كانت المسألة تتعلّق باستشهاد ابني، فنحن لا نريد شكرًا أو تكريمًا لأجل ذلك.

نظر صفوان للحظات في عينَي أبي رواد، ثمّ قال:

– الوطن يعتزّ بأبنائه الذين قدّموا أرواحهم لأجله، ولكنّ الشكر لا يتعلق بهذه المسألة، نحن هنا بصفةٍ شخصيّة تتعلّق بعلياء، متى تأتي؟

في هذه اللحظات وصلت علياء وهي تحمل بيدها الأغراض التي اشترتها، وشعرت بأنّ الفوضى التي في البلاد هي ذات الفوضى التي على باب البيت بمجرّد أن رأت الملازم صفوان وذلك الذي يقف معه. لقد عرفت أنّه لوكاس، ابن خالة كارمن، وارتبكت بعض الشيء، وقفت أمامهما ثمّ قالت:

– مرحبًا.

وقعت عينها على عين لوكاس، واستشفّت الحزن الذي يبدو عليه. أخبرها صفوان بأنّ لوكاس جاء لتقديم الشكر لها، وفي حقيقة الأمر لم يكن لوكاس مهتمًّا بتقديم الشكر بقدر ما كان يريد البحث عن حدثٍ يخرجه من مشاعر الأسى التي يمرّ بها، كرؤيته لصفوان، ومن ثمّ قدومه إلى بيت علياء ورؤيته لهذا الحيّ والوجوه التي تقف أمامه، والكلام الذي يدور بالعربيّة، ورائحة الطعام التي وصلت إليه من داخل البيت. لقد كان أعزل من كلّ شيء، كما لو أنّه لم يسبق له أن كان في سلاح الجوّ.

نظر لوكاس إلى علبة المتّة التي في يدها، وقال بنصف ابتسامة:

– ماتة.

هزّت له رأسها أي نعم.

ثمّ قال صفوان:

– هل نستطيع الدخول؟

قالت:

– أهلًا وسهلًا، من أصبح عند باب البيت فلا بدّ له من الدخول، تفضّلا.

تحدّث لوكاس مع صفوان بالإنكليزيّة، عن عدم رغبته في الدخول، لأنّه أدرك أنّ الوقت غير مناسب، فلقد تبيّن له أنّهم على موعدٍ لتناول الطعام، وأنّهم مجتمعون لأجل أمرٍ ما، وأنّ الارتباك قد ظهر على وجوههم، لكنّه لمس اللطف الذي كان على وجه علياء. ارتبك صفوان من كلمات لوكاس التي كانت صعبةً عليه، لكنّه فهم القصد الذي يرمي إليه، وردّت علياء عليه، فأدرك لوكاس أنّها تتحدّث الإنكليزيّة، ما جعله يتحدّث معها لدقيقة دون توقّف شارحًا لها شكره، وأنّه سعيدٌ برؤيتها، وتمنّى لهم سهرة جميلةً على العشاء، وأنّه سيراها في وقتٍ لاحق إن لم يكن لديها مانع. أجابته بذات اللطف، ولم تضغط عليه للدخول، وكان صفوان وبديع وأبو رواد يستمعون إليهما دون معرفة ما يدور بينهما باللغة الإنكليزية، لكنّهم لاحظوا أنّ اللطف واضحٌ على حديثهما من خلال ملامح وجهيهما وكلٌّ منهما ينظر إلى الآخر أثناء الكلام.

نظر صفوان إلى بديع وسأله:

– من أنت؟

وبشيءٍ من الارتباك قال:

– بديع، ممثّل، ولكن لم آخذ فرصتي بعد.

قال صفوان بعدما مال برأسه وبنظرةٍ يتقنها الضبّاط:

– لا أقصد هذا، هل أنت من أقرباء علياء؟ أخوها!

قالت علياء:

– تقريبًا. إنّه صديقنا، وبمثابة أحد أفراد العائلة.

نظر بديع إلى علياء وطلب منها أن تُخبر لوكاس بالإنكليزيّة بأنّه من محبّي فرقة «الشمس» الروسيّة، وبأنّه قرأ منهج ستانسلافسكي في المسرح. ورغم أنّ الموقف لم يكن مناسبًا لحديثٍ كهذا وهم على باب البيت، فعلت ذلك، فهي تعرف حجم السعادة التي تنتاب بديع حين يتحدّث عن المسرح وعن حبّه له، ابتسم لوكاس لبديع، ثمّ ألقى عليهم التحيّة وغادر برفقة الملازم صفوان.

وما إن دخلوا وأغلقوا الباب حتّى قال بديع:

– لماذا سأل عنّي؟

قالت علياء:

– لا تكترث، الضابط في هذه البلاد عندما لا يجد ما يقوله، فإنّه يطرح سؤالًا ليخبر الآخر من خلاله بأنّه صاحب سلطة.

جلسوا حول الطاولة لتناول الطعام، وبدأت علياء تخبرهما بقصّة كارمن والبورتريه الذي أرسلته معها للوكاس، وبأنّ الملازم صفوان تسلّمه منها، وكلّ ما في الأمر أنّ لوكاس يريد تقديم الشكر لها، وأنّ الأمور لا تستحقّ أيّ قلقٍ أو ارتباك، والمسألة انتهت بسلام.

في مساء أحد أيّام عطلة نهاية الأسبوع التي يرغب فيها الناس بتناول الطعام في المطاعم، قرّر بديع الذهاب إلى مطعم أبيه، فقد كان محتاجًا إلى بعض المال، لأجل نفقات سفره إلى العاصمة لمدّة يومين. قرّر الذهاب إلى المطعم في الوقت الذي يكون فيه مزدحمًا بالزبائن كي يسبّب لأبيه بعض الحرج إذا قرّر طرده أو عدم إعطائه المال الذي يحتاج إليه، إذ أكثر ما قد يهتمّ به والده هو سمعة المطعم، كما لو أنّه آخر ما بقي لديه من كرامةٍ يدافع عنها، كما لو أنّه قطع مع الزبائن عهدًا على الوفاء والصمود لأجل الثقة والنظافة والمعاملة الحسنة في ما بينهم. وما قام به بديع داخل المطعم مع تلك المرأة بمثابة عارٍ لا يمكن محوه من ذاكرته، ولقد أوصى الأب عامل الشاورما عدّة مرّاتٍ بأن تبقى الحادثة سرًّا دون البوح بها لأيّ أحد، وهدّد بطرده من العمل إذا سمع أنّ أحدًا عَلِم بما حدث، وفوق ذلك طلب منه طرد بديع إن كانت لديه الجرأة على القدوم إلى المطعم في غيابه. تعامل أبو بديع مع الحادثة كما لو أنّها فضيحة بيل كلينتون مع مونيكا لوينسكي، وبطبيعة الحال فإنّ المرء يرى المكان الذي يتيح له اتّخاذ القرارت مثل البيت الأبيض بالنسبة إلى صاحبه، حتى وإن كان هذا المكان صغيرًا كنقطة في المحيط. وإن كان هناك بوش الأب وبوش الابن، فهناك أبو بديع وأبوه، لقد ورث هذا المطعم عن أبيه، وكما كان يديره بسمعةٍ حسنة، كذلك حاول جاهدًا الحفاظ على ذات المسيرة وذات السمعة التي كان عليها المطعم منذ سنوات طويلة. وهو يفخر كثيرًا بالصور المعلّقة على الجدار لشخصيّاتٍ معروفة جاءت وتناولت الطعام في هذا المطعم، من بينها شخصيّات مصريّة ولبنانيّة، وثمّة إشاعة يتمسّك بها أبو بديع بأنّ الموسيقار بليغ حمدي تناول الإفطار في بدايات شبابه في هذا المطعم، ولكن من سوء حظّه وحظّ المطعم أنّ شريط الفيلم الخاصّ بصور الكاميرا قد احترق قبل تحميضه، وأنّه هو من عبث بالكاميرا حين كان صغيرًا في عمر التاسعة. لقد أخرج الفيلم من الكاميرا وعرّضه لضوء الشمس، وبقي الجدّ يردّد تلك الحادثة كّلما كان يغضب منه، وكان بديع يستفزّ أباه بأنّ لديه معلومات تقول إنّ بليغ حمدي لم يزر اللاذقيّة، وهذا القول كان يسبّب الغضب لأبيه، وينفي مزاعمه. لا أحد يعرف حقيقة هذه الحادثة التي يتمسّك بها أبو بديع، لكنّ ما يجعل البعض يصدّقها هو وجود صور معلقة على الجدار لشخصيّات مهمّة ومعروفة. كان أبو بديع يضيف إلى الحادثة أنّ بليغ كان واقعًا في قصّة حبّ، وأنّ قدومه إلى اللاذقيّة كان خاطفًا وسريعًا، إذ كانت زيارة شخصيّة، لا تتعلّق بحضور حفلة غناء أو لقاء بهدف الموسيقى. كان يسترسل بكلماته كما لو أنّه يقول

الشعر في وصف تلك المرأة التي كانت برفقة بليغ أثناء تناولهما طعام الإفطار على الطاولة التي في الزاوية البعيدة، ويقول إنّه لم يكن في ذلك الوقت مشهورًا إلى الحدّ الذي وصل إليه في ما بعد.

التاريخ يُعيد نفسه في هذا المطعم، الجدّ يتّهم ابنه بأنّه هو من عبث بفيلم الصور في ما مضى، والأب يعيد الاتّهام لابنه بديع بأنّه يعبث بسمعة المطعم مع من وصفها بأنّها فتاة ليل، وبأنّه لم يجد مكانًا لذلك سوى في هذا المطعم بموعدٍ بعد منتصف الليل. ثمّة اتهاماتٌ أخرى ما بين بديع وأبيه، يأتي دورها عندما كان التعب ينال منهما بعد جدالٍ طويل. كانا يتبادلان التهم كما لو أنّهما متّفقان على هذا السياق، يفعلان ذلك وهما يتناولان الطعام على الطاولة، وأثناء تنظيف المطعم والأطباق قبل إغلاقه، وكذلك في الطريق وهما عائدان إلى البيت بعد عناء يومٍ طويل. أمّا في الصباح فإنّهما يكتفيان بتبادل اتهاماتٍ صغيرة وقصيرة أثناء تناول الإفطار مع أفراد العائلة المؤلّفة من الأب والأم وبديع وأخيه نبراس الذي يدرس في كليّة الطبّ/ تخصّص الأطفال، وأخته نور التي تزوّجت من فترةٍ قصيرة بعد تخرّجها من كليّة الفنون الجميلة بعدما كان أبوها يريدها أن تدرس طبّ الأسنان ولا زال إلى الآن يُبدي استياءه منها كلّما ذهب إلى طبيب الأسنان وعاد من زيارته متسخّطًا متّهمًا إيّاه بأنّه نصّاب وليس لديه ضمير، وبأنّ شهادة الطبّ التي نالها من أوروبا الشرقيّة إنّما حصل عليها بطريقةٍ غير قانونية، ومع ذلك فإنّه يصرّ على الذهاب إليه كلّما شعر بألم ما بقي لديه من أسنانٍ وأضراس. وما كان يجعل هذا الطبيب يسكت عن كلّ تلك الاتّهامات هو حبّه وإعجابه بنور التي جاءت إلى العيادة أكثر من مرّة برفقة أبيها، والتي كان يأمل أن تبادله الحبّ، ولكن بعد سماعه بخطوبتها من زميلٍ لها في كليّة الفنون الجميلة لم يعد هذا الطبيب يحتمل قدوم أبيها إلى عيادته. لذلك أخذته نور إلى طبيبةٍ من صديقاتها، وصار دومًا يحدّث صديقتها عن نور التي خيّبت أمنياته بدخولها كليّة الفنون الجميلة بدلًا من كليّة طبّ الأسنان، وكانت الطبيبة تستمتع بهذه الأحاديث التي كانت بمثابة عزاءٍ لها ولهذه المهنة التي سبّبت لها الندم، دون أن تُخبره بذلك.

هكذا كانت الحال بين بديع وأبيه قبل طرده من المطعم، وقبل مغادرته البيت واستئجاره بيتًا صغيرًا في الحيّ الذي تعيش فيه علياء وأبوها، كما لو أنّ كلّ واحدٍ منهما يجد عزلةً لنفسه عمّا يدور حوله في هذا العالم، من خلال هذه المهاترات المكرّرة، التي تأخذ في كلّ مرّة سياقها الجديد. اعتادت الأسرة عليهما، ووصل الأمر بنور أنّها باتت معجبةً بهما وبهذه المشاحنات اليوميّة التي تحدث مثل حبرٍ على ورق؛ تصريحاتٌ وتنديد، استنكارٌ وشجب، واتّهاماتٌ بعطلٍ قد يصيب جهازًا كهربائيًّا في البيت. أمّا نبراس فقد كان يتمنّى لو أنّه يستطيع كسر الحاجز الذي بينه وبين أبيه مثلما كان يفعل بديع، لكنّ طبيعته كانت غير ذلك، فلقد كان مؤدّبًا إلى درجةٍ كبيرة، إذ ورث من أمّه ذلك الخجل وذلك الهدوء المبالغ فيه.

وصل بديع إلى الشارع حيث مطعم أبيه، تردّد قليلًا ثمّ قرّر الاقتراب شيئًا فشيئًا، وبالصدفة رآه الملازم صفوان وهو يعبر بسيّارته عند التقاطع، نظر إليه بعدما توقّف وأخرج رأسه من نافذة السيّارة، ثمّ

قال:

– أنت الممثّل؟ أنت الذي كنتَ في بيت علياء؟

قال له بديع:

– نعم هذا أنا، واسمي بديع.

ردّ عليه بوقاحةٍ واستفزاز:

– عندما تصبح مشهورًا ربّما أحفظ اسمك.

قال له ذلك وتابع طريقه بسيّارته، حيث كان بجانبه أحد عناصر الأمن، فقد كان في مهمّةٍ مستعجلة، ولو لم يكن في هذه المهمّة لطلب من بديع الصعود معه أو لنزل ووقف معه قليلًا ربّما، فقط ليمارس معه نشوة الأحاديث التي يحبّ الضبّاط ممارستها. تلك النشوة التي لا علاقة لها بأمن البلاد، كما قالت علياء، فهؤلاء يحبّون أن يسألوا المواطن عن لونه المفضّل، ومهما كانت الإجابة فسيأتي بعدها الكثير من الاستفسارات بنبرةٍ توحي أنّه متّهمٌ بشيء ما، ولن ينجو بنفسه حتى وإن قال إنّ كلّ الألوان تعجبني، فمفهوم السلطة يتجلّى بالدرجة الأولى عن طريق اللغة، مهما كان نوع هذه السلطة، سواء كانت بمنصبٍ أو بمالٍ أو بعلاقةٍ عاطفيّة، أو بالعمل ما بين المدير والموظف. وهنا لا يجد المرء عزاءً له سوى تلك العبارة التي اخترعوها له «إن كان الكلام من فضّة، فالسكوت من ذهب»، وهذه العبارة لا تصلح في الحقيقة لمواقف كهذا، وإنّما هي جاءت لأجل المواقف التي على النقيض من ذلك، كأن يلتزم المدير صمته أمام موظّفٍ أساء التصرّف، أو مواطنٌ أخطأ في التعبير بحقّ رجل أمنٍ رغم امتلاكه السلطة، وهنا تكون العبارة في مكانها الصواب، ويكون الصمت من ذهبٍ وحكمة.

وقف بديع أمام المطعم، وقد أصابه الاستياء بسبب استفزاز الملازم صفوان له، فبعض الكلمات تدمّر المرء عندما تتعلّق بأقرب شيءٍ إلى قلبه، والمسرح والتمثيل والسينما أقرب ما يكون لقلب بديع، هو الذي لم يزل يحقد على أعضاء تلك اللجنة كما لو أنّها ارتكبت مجزرةً غير مرئيّة بحقّ موهبته التي دفع لأجلها كلّ ما لديه.

لم يكن الزبائن كما كانوا من قبل، فقد باتت الحركة أقلّ ازدحامًا، وذلك بسبب الأحوال المادّية للناس. رأى عامل الشاورما يتحرّك كما لو أنّه يجذّف قاربًا وسط البحر، ولمح أباه واقفًا عند صندوق حساب الزبائن، في هذه اللحظات لمح ذلك الخضرجي وهو يجلس مع أحدهم، وشعر بأنّ اللاذقيّة أصغر ممّا هي عليه.

دخل المطعم وقد تحرّك الممثّل الذي في داخله، مرّ من أمام عامل الشاورما وهما يتبادلان النظرات، إلى أن وقعت عينه على عين أبيه، ولم يستطع أبوه أن يفعل أيّ شيء، فلا رغبة له في تبادل الاتّهامات معه أمام الزبائن، واكتفى بنظراته إلى بديع ريثما يعرف ما الذي سيفعله. توجّه بديع نحو طاولة جاره الخضرجي في الحيّ، ألقى التحيّة عليه وعلى من يجلس معه، رحّب به الخضرجي بكلّ طيبة، فقد أصبح

بديع أحد زبائنه، وقد عرف أنّه بات من المقرّبين من علياء وأبيها. جلس بديع كما لو أنّه كان مدعوًّا إلى طاولته، وبعد ذلك بلحظات قال لهما إنّه سيدخل الحمّام، وبيما هو ذاهب إلى الحمّام وقف أمام أبيه الذي بدا كما لو أنّ الطير على رأسه، لا يعرف ماذا عليه أن يفعل إزاء دخول بديع المطعم بعد كلّ هذه القطيعة، لقد كان الموقف مُحرجًا، هكذا مثل تصرّفات ولدٍ أمام الضيوف، ومثل دخول شخصٍ وهو يطلب لجوءًا سياسيًّا من دولةٍ ليست قادرةً على حماية نفسها قبل أن تقدّم الحماية للداخل إليها، قال لأبيه هامسًا:

– أنا على علاقة حبٍّ مع شابّةٍ تسكن في الحيّ الذي يسكن فيه هذان الرجلان اللذان أجلس معهما، فإيّاك أن تسيء معاملتي أمامهما، وأريد بعض النقود منك، فإيّاك أن تخذلني كي لا نضطرّ إلى تبادل الاتّهامات أمامهما وأمام الزبائن، تصرّف معي بطريقةٍ محترمة، كي تعلم أسرة التي أحبّها أنّنا من عائلةٍ محترمة، على الأقلّ أمام هذين الرجلين، بالتأكيد هما سيراقبان الموقف إن حدث ما يثير الريبة بيننا في هذه اللحظة.

كان المشهد بالنسبة إلى أبيه كمن تعرّض لحالة سطوٍ مسلّح والمسدّس في رأسه، ودون تفكيرٍ أخرج بعض النقود وأعطاها لبديع كما لو أنّه مُخدّر. لقد فعل ذلك بكلّ هدوء، وكان عامل الشاورما يرى ما يحدث، وكان الاستغراب باديًا على وجهه المتصبّب عرقًا من حرارة النار التي حول الشاورما.

أخذ بديع النقود وذهب إلى الحمّام وقد شعر بسعادة المشهد الذي قام به، أكثر من سعادته بالنقود التي حصل عليها. وبينما هو واقفٌ يبول انتابه شعورٌ عارم كما لو أنّه آل باتشينو في مشهد المطعم من فيلم «العرّاب»، وأنّه سيأخذ المسدّس ليقتل الخضرجي والذي يجلس معه، ابتسم لما دار في رأسه وهو يحرّك عضوه بيده ليُسقط آخر قطرة بولٍ عالقة على فتحته.

عاد وجلس في مكانه، وكأنّ شيئًا لم يحدث، ابتسم للرجل الذي كان مع جاره الخضرجي، وتعرّف إليه؛ في الستّين من عمره، يعمل على سيّارةٍ لشحن الخضار والفواكه، وقد جمعتهما صداقةٌ قديمة، وتُوفّيت زوجته قبل فترةٍ وجيزة. وقد وعده الخضرجي بأنّه سيجمعه بإحدى زبوناته، في التاسعة والأربعين من عمرها، ولديها محلٌّ للألبسة المستعملة القادمة من أوروبا، اسمها جوانا، ومعروفةٌ باسم جوجو بين صديقاتها وزبائنها، بقيت لفترةٍ طويلة رافضةً الزواج، ولكنّها باحت أخيرًا للخضرجي بأنّها قرّرت أن تضع رأسها على صدر رجلٍ تبادله الحبّ والوداد، وقد شجّعها على ذلك، وحدّثها عن صديقه هذا.

شعر بديع بأنّه أمام حادثةٍ تستدعي منه أن يبدي حماسته وتشجيعه لهذا الرجل، فربّت كتف الخضرجي، تعبيرًا عن إعجابه بما قام به مع صديقه. قام بديع بحركةٍ وقد جاءت عينه بعين أبيه، وشعر بأنّها نظرةٌ جاءت في مكانها، كما لو أنّه أراد أن يقول لأبيه إنّنا نتبادل الاحترام ولا نتبادل الاتّهامات كما تفعل.

بدأوا بتناول الطعام، وبقي الحديث يدور حول جوجو، وحول تكهّنات اللقاء الذي سيحدث بينهما مساء الغد، وأكثر ما بقي عالقًا في رأس بديع هو السبب الذي جعلها تقرّر الزواج بعدما كانت رافضةً لهذا الموضوع. لقد تساءل بينه وبين نفسه كما لو أنّه يفكّك نصًّا مسرحيًّا أو مشهدًا دراميًّا، ولم يكن يريد أن يطرح سؤاله على الخضرجي كي لا يسبّب البؤس لصديقه الذي كان كمن يتعلّق بقشّة هذه الأحاديث حول جوجو، وحول لقائه بها مساء الغد، وقد بدا وجهه كمن لم ينم في ليلة أمس.

عامل الشاورما لا يعرف ما الذي حدث بين بديع وأبيه، وأبو بديع لا يعرف ما الذي يدور بين ابنه وهذين الرجلين. والخضرجي لا يعرف كيف دخل بديع وجلس معهما، وصديق الخضرجي انتابه شعورٌ بأنّ بديع قد يكون على معرفة بجوجو بحكم أنّه يسكن في نفس الحيّ الذي تسكن فيه، لذلك تصرّف أمامه بمنتهى التهذيب واللباقة كي يترك أثرًا جيّدًا لديه إن سألت جوجو عنه، وبديع هو الآخر لم يكن يعرف ما الذي جعل جوجو تفكّر في الزواج فجأة. كان المشهد يبدو مثل مجسّمٍ لكرةٍ أرضيّة تدور فوق الطاولة التي يجلسون حولها، كما لو أنّ البشريّة جمعاء مصابةٌ بعقدة اللعب الذي يأخذ شكلًا جديدًا كلّما تقدّم المرء بالعمر ، وما من شخصٍ إلّا شعر بحاجةٍ إليه ، حتّى على صعيد كرسيٍّ يجلس عليه بجانب شخصٍ أو شخصين، أو نكتةٍ عالقة بذهنه إلى أن يجد من يخبره بها. كلّ ما حدث في المطعم هو عبارةٌ عن لعب، ولم يكن ينقص المشهد سوى وجود جوجو معهم، وربّما هذا ما جعلها تقرّر الزواج، وتقرّر وضع رأسها على صدر رجلٍ يُخبرها نكتةً، وتخبره بوحًا، تعاتبه في المساء، ويقبّلها في الليل، توقظه في الصباح، ويحضنها بعد الظهيرة.

3

حين ينهمر مطر أيلول ينتاب علياء شعورٌ عارم بالرشاقة، كما لو أنّها ترقص بيدين مفتوحتين، وتصبح الموسيقى بالنسبة إليها في إجازة، لتنوب عنها الجذور والطبيعة التي جاءت منها، كما لو أنّ الكون يعود إلى ذلك الهدوء الذي كان عليه قبل انفجاره. ذلك السكون الحيّ الميت، كأنّه وميضٌ ملوّن يتسرّب من تحت جفنَي عينين مغمضتين، ليصبح قلبها ممتدًّا على امتداد المسافة التي تقطعها قطرة المطر ما بين غيمة وبين لحظة ارتطامها العاطفي بوجه أوراق شجرة. يصير العالم عبارةً عن نافذةٍ تُطلّ على الأمنيات السعيدة، وتصير هي صورةً بجمالٍ لا حدود له في هواجس العالم الذي يُطلّ عليها من خارج نافذتها.

في هذه اللحظات التي كانت علياء جالسةً فيها بالقرب من نافذتها وهي مفتونةٌ بمطر أيلول، كان لوكاس ومن معه من ضبّاطٍ وجنود في حالة ضغطٍ بالعمل، فقد بدأت مرحلةٌ جديدة بتوسيع قاعدة حميميم للمرّة الثانية، بعد الاتّفاقات التي عُقدت بين الحكومة السوريّة والحكومة الروسيّة. كان المطر ينهمر فوق القاعدة العسكريّة، ويرتطم بالمعادن وصفيح حواضن الطائرات وقضبان الكانتونات، ولم يكن يشبه ذلك المطر الذي كانت تراه علياء، فمن غير الممكن لهذا المطر أن يتعاطى مع قاعدةٍ عسكريّة مثلما يتعاطى مع نافذةٍ صغيرة تجلس بجانبها امرأةٌ بعينين حالمتين.

حضر لوكاس مع قادته ثلاثة اجتماعات خلال هذين الشهرين، وكانت القاعدة مثل خليّة نحلٍ في الشهر الماضي، فلقد كانت في حالة عرضٍ عسكري أمام القادة، واستمعوا إلى خطاب الرئيس الروسي من خلال أحد كبار الضبّاط الذي جاء من موسكو لنقله وجهًا لوجه من خلال اجتماعه معهم. أخبرهم عن أهمّية الدور الذي تقوم به روسيا في الشرق الأوسط، وأنّ روسيا كانت وما زالت القطب الأهمّ الذي يقف بوجه أميركا ومن وراءها، وأنّ الوجود الروسي على حوض البحر الأبيض المتوسّط في قاعدة حميميم بذات أهمّية الوجود على أطراف الحدود الروسيّة، وأنّ الحرب الباردة لم تنتهِ بعد.

في منتصف الليل توقّف المطر، وكان لوكاس جالسًا في غرفته ينظر في وجه أمّه وهو يمسك بالبورتريه، بعد ذلك خرج ووقف عند الأشجار التي تحيط بالقاعدة، فقد قرّر أن يدخّن سيجارةً مع كوب القهوة الذي أخرجه معه. كانت السماء صافيةً دون خدش، ولطالما كان يلاحظ أنّ النظر إلى السماء أجمل

بكثيرٍ من رؤيتها وهو يحلّق بطائرته. وبعد كلّ هذه السنوات من الدراسة والتحليق والحياة العسكريّة والأخبار التي تتعلق ببلاده، انتابه شعورٌ عارم بأنّه بحاجة لأن يخفض رأسه أمام السماء كما لو أنّه مُنكبٌّ فوق رقعة شطرنج بسلامٍ وطمأنينة، لكنّ ما أفسد عليه هذه الرغبة التي تجتاحه في بعض الأحيان هو ديمتري والخديعة التي قام بها، لذلك ينتابه شعورٌ بأنّ المرء يجب أن يكون يقظًا برأسٍ مرفوع مثل الرادار الذي يراه أمامه، ومع ذلك فإنّ الرادار الذي في قلبه توجّه بحنينٍ إلى قبر أمّه في موسكو، شعر بأنّه مشتاقٌ إليها بعد تأمّلاتٍ كثيرة في البورتريه الذي في غرفته، وأنّ حنينه هذا لا يخلو من حنينه إلى النادي والشوارع التي كان يسير فيها برفقة أبيه. لا يمكن لأيٍّ من القادة الروس أن يتوقّع أنّ هذا الطيّار الذي اسمه لوكاس يعيش هشاشةً وضياعًا في عالمه الداخلي، وأنّ أختراقه لجدار الصوت وهو في طائرته ما هو إلّا جدارٌ يختبئ وراءه، وأنّ العلوّ الذي يحلّق إليه ما هو إلّا فسحةٌ لبعض الوقت يهرب بها ممّا يعتريه، فهو لا يستطيع أن يتخلّص من المقارنة الوحيدة التي تحتلّ حياته، ما بين كرسيّ الطائرة الحربيّة، وبين الكرسيّ الذي كان يجلس عليه في نادي الشطرنج في مطلع مراهقته.

أنهى سيجارته والقهوة التي كانت بيده، ولم تنتهِ السماء التي يحملق فيها. ظلّ واقفًا مثل يتيمٍ يقف بين قبري أمّه وأبيه، مثل وحيدٍ وسط كلّ هذه المعادن التي توقّفت على أطرافها حبّات المطر، وتمنّى في هذه اللحظات لو كان بمقدوره النزول إلى الكورنيش الجنوبي الذي بات يحبّه كما لو أنّه أحد الطرقات التي توصله إلى نادي الشطرنج، لكنّ أحد القادة حذّر الضبّاط من النزول إلى المدينة دون إذنٍ منه ودون سببٍ مقنع، فالحكومتان السوريّة والروسيّة تعملان على بناء مشفًى صغيرٍ بالقرب من القاعدة، وثمّة أمورٌ كثيرة سيجري العمل عليها لأجل القوّات الروسيّة، لكنّ ما لا يعلمه هؤلاء القادة أنّ ثمّة حنينًا يتوق إليه المرء خارج كلّ هذا المشهد العسكري، وأنّ لوكاس تورّط ثلاث مرّاتٍ في حياته؛ حبّه لنادي الشطرنج، ودخوله سلاح الطيران، وتعلّقه الجديد بالكورنيش الجنوبي في اللاذقيّة. القهوة التي شربها مرّتين من كشك «أبو ريحانة»، ذلك الرجل الطاعن في السنّ، أطيب بكثيرٍ من القهوة التي شربها للتوّ من ماكينة القهوة الكهربائيّة، ثمّة فارقٌ كبير ما بين كبسة زرٍّ كهربائي، وبين رجلٍ يحرّك رغوة غليان القهوة بملعقةٍ صغيرة بوجهٍ مبتسم ومحبّ للحياة وللغرباء، كأنّه يؤكّد أنّ الحياة لم تزل بخير، وأنّ كلّ العابرين إخوةٌ بتصادف الوجوه بعضها ببعض.

ومن الأشياء التي لفتت انتباه لوكاس في هذا الرجل، حركة يده على أوراق نبتة الريحان التي يضعها على حافة إطار نافذة الكشك. يفعل ذلك كي تفوح رائحة الريحان بوجه الزبون الذي يقف بالقرب منها أثناء انتظاره لأخذ قهوته، هكذا كما لو أنّه يحتفي بالزبون وجهًا لوجه بهذه الحركة التي ترافقها ابتسامةٌ تخرج من عينيه الصغيرتين، وتجاعيد وجهه الذي مرّ عليه الكثير من الأسى. مع هذا كلّه، يحاول أن يمنح القادمين ما يجعل قهوتهم تليق بما يودّون الشرود به على الكورنيش الذي بات هذا الكشك جزءًا منه ومن صباحاته.

لقد اعتاد وضع نبتة ريحان تيمّنًا بابنته ريحانة التي وجدوها مقتولةً برصاصتين، واحدة في جبينها، والثانية في عنقها. كانت مرميّةً على أطراف المقبرة، كأنّ القاتل أرادها أن ترى رفاقها الموتى قبل أن تكون في رحابهم، حتّى إنّه لم يمنحها أبسط حقٍّ في التوسّل حين أدركت أنّ المسدّس صار بين عينيها. والتوسّل في موقفٍ كهذا لا يكون توسّلًا إلى الذي سيطلق رصاصاته، بل هو حالة توسّل تدور ما بين المرء وذاته، كما لو أنّه يبرّر لروحه أنّه كان على الدوام يحاول بأقصى ما لديه ليبقى حيًّا، وأنّه كافح طوال الوقت، وصبر على كلّ ما كان يُفتّت له هذه الروح. والكلمات التي ينطقها المرء في توسّلٍ كهذا تكون خارج إدراك وإحساس القاتل، لتصبح هذه الكلمات كأنّها حالة إيقافٍ لهذا العار البشري بالقتل. تخرج هذه الكلمات من فم الضحيّة مثل جهاز تسجيلٍ دون عناءٍ ودون تفكير، وتصلح لأن تكون أصدق خطابٍ يمكنه أن يجعل البشرية تحزن على نفسها من هذا العار، وبعض القتلة لا يمنحون الضحيّة حقّ التوسّل كي لا تبقى تلك الكلمات عالقةً في أذهانهم، فأثر الوجوه في لحظات ما قبل الموت غير أثر الوجوه في أيّ وقت آخر. مع أنّ ريحانة لم تحظَ بفرصة هذا التوسّل، إلّا أنّ يدها التي حاولت رفعها واتّساع عينيها وارتفاع صدرها بتلك الشهقة، كانت على هيئةٍ تتجاوز تينك الرصاصتين، وكان بإمكانها أن تستقبل الكثير من الرصاص، ليكون عار البشريّة بحجم دهشتها التي لم تستمرّ سوى لحظةٍ أو لحظتين، كما لو أنّها أكلت كلّ تراب المقبرة قبل أنْ يُدفع بها من باب السيّارة.

رأت علياء شيئًا من ذاك المشهد، عندما كانت جالسةً في الصباح الباكر عند قبر رواد. توقّفت سيّارةٌ في الجهة المقابلة لها، وسمعت صوت رصاصتين، ثمّ دفع القاتل ريحانة من باب السيّارة التي غادرت بعجلاتها الباردة كبرودة دم سائقها. بقيت علياء جامدةً في مكانها، فمن السهل أن يغرق المرء في تأمّلات الموت والمقبرة التي يجلس فيها كزائر، ولكن من الصعب أن يرى ذلك الموت يحدث على مسافةٍ قريبة منه، صوت الرصاصة الأولى هزّ أذنها، والرصاصة الثانية هزّت قلبها، ومغادرة السيّارة أربكت عينيها. من حسن حظّها أنّ ثمّة رجلًا ستّينيًّا كان على مسافةٍ قريبة منها، كان جالسًا يزور قبر ابنه الذي وضع عليه الورد ورشّ الماء على أطرافه، بقيت علياء جامدةً في مكانها لدقائق، ثمّ تحرّكت نحو الرجل ووقفت بجانبه. تجمهر الناس وكانت سيّارة الشرطة قد وصلت، لم تملك علياء جرأة الذهاب لتسمع همسات الناس التي تدور عادةً في مثل هذا الموقف، ولكنّ الرجل الذي وقفت بجانبه هو من ذهب إلى هناك، وبعد دقائق عاد وهو يتحدّث عن مؤشّرات اقتراب يوم القيامة. قال إنّه سمعهم يقولون إنّها شابّةٌ بعمر الزهور، دون أن يعلم أنّ اسمها ريحانة، وأنّ لسنوات عمرها القليلة من اسمها نصيبًا، وأخبرها أيضًا أنّ الجيران تعرّفوا إليها، فهي تقطن في الحيّ القريب من هذه المقبرة، وأنّها ابنة صاحب كشك القهوة على الكورنيش الجنوبي.

في غرفة التحقيق قدّمت علياء شهادتها، وكذلك الرجل الذي كان معها في المقبرة، شعرت بأنّ ذكرها لعدد الرصاصات التي سمعتها لم يكن مُهمًّا، ولا لون السيّارة الذي ذكرته للمحقّق. أخبرته أنّها كانت

جالسةً عند قبر أخيها رواد، وأنّها حزينةٌ على ما حدث، وأخبرها المحقّق بأنّ هذا التحقيق روتيني ولا داعي للقلق الذي بدا على وجهها، وأنّ بعض المجرمين يستغلّون الظروف التي تمرّ بها البلاد لإحداث الفوضى . كاد ت تخبره بأنّها ليست قلقةً بهذ ا الشأ ن الذ ي يقصده ، وإنّما القلق كا ن يجتاحها من عار الرصاص الذي استقرّ في رأس ريحانة، وفي رأس أخيها رواد.

بعد فترةٍ لاحظت علياء أنّ الكشك بقي مغلقًا، وبعد مرور شهرين على الحادثة مرّت من هناك ورأت الكشك مفتوحًا، اقتربت منه وهي تمشي كما لو أنّها تمشي بين ممرّات تلك المقبرة. سبق لها أكثر من مرّة أن طلبت القهوة من الكشك، وكانت تعرف أنّه يُدعى «أبو ريحانة»، والآن باتت تعرف كيف انتهت حياة ريحانته، بينما هو لم يكن يعرف أنّ علياء كانت هناك، وكلّ الذي يعرفه هو أنّ التحقيق لم يزل قائمًا، ولكنّه يعلم في قرارة نفسه أنّه لم يعد هناك أيّ جدوى، فقد ماتت ريحانة.

ألقت علياء التحيّة عليه، طلبت القهوة وهي تقف أمام نافذة الكشك، حرّك أوراق نبتة الريحان بأطراف أصابعه، ومنحها قهوتها مع أطراف ابتسامةٍ خرجت منه كما لو أنّه يقول:

– هذا أقصى ما لديّ في هذا الوقت.

ابتسمت له، وقدّمت له العزاء. لم يستغرب ذلك، فمعظم زبائنه علموا بخبر مقتل ابنته بعد إغلاقه للكشك، والكلّ كان يحاول أن يردّ له دين ابتساماته لهم، حتّى إنّ البعض بات يبالغ في ترك بقيّة النقود أثناء دفع الحساب من باب الإكرام والتعبير عن تعاطفهم، كما لو أنّ زبائن هذا الرجل ينتمون لأسرةٍ واحدة. بعض الأمكنة البسيطة تصنع هذا التعاطف أكثر من منظّماتٍ إنسانيّة عاجزة عن ذلك، وأكثر ما يحتاج إليه الناس في ظلّ هذه الظروف التي تمرّ بها البلاد هو هذا الشعور بالانتماء لأصغر شيءٍ يمكنهم الانتماء له.

عادةً يأخذ الزبون قهوته ويمضي، لوجود طاولتين صغيرتين فقط أمام الكشك. كانت إحداهما مشغولةً، والثانية شاغرة، وهذا لا يحدث دائمًا، فانتهزت علياء فرصة الجلوس، لأنّها أرادت أن تمارس رؤيتها لرجلٍ فقد ابنته ولم يزل يقف على قدميه، كما لو أنّها تريد أن تنهل منه جرعةً من علوم الصبر والسكينة. ومثلما يتعامل الزبائن مع هذا الكشك بالانتماء، كذلك هي باتت تشعر بأنّها تنتمي إلى هذا الرجل من جهة المقبرة التي يرقد تحت ترابها رواد وأمّها، وباتت ريحانة ترقد معهما تحت تراب المقبرة ذاتها.

ما يحدث في هذه المدينة غير مرئيّ، تبدو أنّها واقفةٌ على قدميها مثل أيّ وقتٍ مضى. وما لم يكن المرء يملك حساسيّة علياء ووجع أبي ريحانة ووحشة أبي رواد ومتاهة بديع والتغيير الذي حدث لدى جوجو فلن يفقه ما يحدث حوله من وقتٍ ذائب يسيل على خدّيه كما لو أنّ عقارب الساعة من دمعٍ مالح.

مرّ أحد الجنود من أمام لوكاس، داعبه بعبارةٍ ومضى بعدما ابتسم له لوكاس من باب المجاملة. ورغم أنّها ابتسامة مجاملة، تركتْ أثرًا في نفسه قبل الأثر الذي تركته في وجه ذلك الجندي، وشعر بأنّه في

أمسّ الحاجة إلى ابتسامةٍ حقيقيّة في وجهٍ يجالسه بعيدًا عن كلّ هذه المعادن التي من حوله. لا يعرف لماذا تبادر إليه وجه علياء التي التقى بها مرّةً واحدة على باب بيتها، فكّر أنّه لا بدّ من تقديم الشكر لها بطريقةٍ غير تلك التي حدثت بشكلٍ غير لائق، وشعر بأنّ دعابة الجندي له كانت رسالةً من السماء لتجعله يبتسم ومن ثمّ ينتابه الذي انتابه نحو وجه علياء. واستغرب كيف يمكن للمرء أن يُعيد تشكيل صورة وجه امرأةٍ بينه وبين نفسه في لحظات، كما لو أنّه يحرّك فيلًا ليُفسح للحصان مجالًا للتقدّم، ثمّ يضع قلعةً خلف هذا الحصان، فجأةً شعر بدفقة دماءٍ سرت في عروقه. لو أنّ الظروف في القاعدة العسكريّة تسمح له بالخروج في هذه الأيّام لطلب من صفوان اللقاء بعلياء في مكانٍ بعيد كلّ البعد عن اللاذقيّة وقاعدتها العسكريّة وباب بيتها الذي كانت تفوح منه رائحة ذلك الطعام الشهيّ كوجه علياء وهي تتحدّث الإنكليزيّة معه.

الأحاسيس لا تأتي فجأة، بل تبقى واقفةً على باب القلب على استحياء، ومهما طال وقوفها لسنوات فإنّها تأبى الدخول ما لم يكن دخولها كما يليق بانتظارها. وكما أنّ المرء يأبى تناول طعامٍ دون دعوة فكذلك هذه الأحاسيس، لها بروتوكولاتٌ أكثر استحقاقًا من أيّ بروتوكول يحدث في السياسة أو في العائلات الأرستقراطيّة، وهي آخر ما يمكن للمرء أن يُفرّط به في زمن الفوضى وانعدام الجدوى، ولو أنّ الطبّ يستطيع أن يصل إلى تحديد أسباب الموت في بعض الأحيان لعرف أنّ أحد أسباب الموت هي تلك الأسباب التي تتعلّق بخراب الأحاسيس والعبث بها.

عاد بديع من دمشق، بعدما بقي فيها عدّة أيّام، لقد زار أحد أصدقائه من طلّاب المعهد العالي للفنون المسرحيّة، وحضر عرضًا مسرحيًّا، والتقى بأحد مخرجي المسلسلات الدراميّة، وتناول العشاء مع ممثّلةٍ مسرحيّة، كانت قد أخذت دورًا ثانويًّا في فيلمٍ قصير لمخرجٍ ثرثار. سار كثيرًا في شوارع دمشق كما لو أنّه يبحث عن شيءٍ لا يعرفه، وقد شعر بشيءٍ من الإحباط، كان يريد أن يجد فرصةً من خلال كلّ هذه اللقاءات، لكن دون جدوى، انتابه شعورٌ بأن يقف عند أحد تقاطعات الطرق المزدحمة ويصرخ:

– أنا ممثّل، تعالوا وشاهدوني، وبعد ذلك ارموني بالبيض إن لم أعجبكم.

وفي تلك اللحظة التي راوده فيها هذا الشعور، تذكّر أنّ ظروف البلاد والغلاء الذي باتت عليه لن تسمح لأحدٍ بأن يُفرّط ببيضةٍ واحدة لرمي ممثّلٍ حتّى إن كان فاشلًا.

وبينما كان يسير في الطرقات، راح يفكّر في كلّ شيء، إلى أن تذكّر قصّة سائق الشاحنة وجوجو التي تسكن في الحيّ، وأصابه فضولٌ مفاجئ لمعرفة الحالة التي وصلا إليها في قصّة الخطوبة وترتيبات الزواج. قرّر زيارة بوتيك جوجو حين عودته إلى اللاذقيّة، وانتابته طاقةٌ جيّدة أثناء تفكيره في هذا، وبعدما شعر بالتعب قرّر المرور على أحد المقاهي التي يرتادها مثقّفو دمشق، له ذكرياتٌ حزينة في هذا المقهى، فالمرء قد ينسى جميع الأماكن التي يجلس فيها، إلّا أنّه دومًا ما يتذكّر الطاولة التي جلس عليها برفقة

شعوره بالوحدة، وقد يفكّر في العودة إليها كي يتفقّد وحدته معها، وهذا يمنحه نعمة الاعتياد، أفضل من أن يذهب إلى مكانٍ آخر بهذه المشاعر، حينها تصبح كلّ الأماكن ملطّخةً بمشاعر الوحدة.

أكثر ما كسر بديع من داخله هو ذلك التجمّع على باب المسرح بعد انتهاء العرض المسرحي الذي شاهده أثناء هذه الزيارة، فكما هي العادة بعد انتهاء العرض يتجمّع البعض حول أنفسهم عند باب المسرح الخارجي، لتبدأ الأحاديث والتحيّات وتدخين السجائر، ثمّ ينضمّ إليهم الممثّلون والممثّلات ومن شارك في العرض المسرحي، وكذلك المخرج والكاتب. يوحي المشهد بأنّ العرض الحقيقي للمسرحيّة بدأ، فالخطوات ترتسم في ما بينهم بعناية، وحركات الأيدي، والابتسامات، وكلّ دائرةٍ تتشكّل من عدّة أشخاصٍ تكون دائرةً مدروسة بما تقتضيه البرهجة ونفاق الفيزياء.

لحظتها بقي بديع وحيدًا وسط كلّ هذا الزحام من تحيّاتٍ وسلامات وابتسامات. كان صديقه الذي زاره في المعهد واقفًا مع مجموعة، وكذلك الممثّلة كانت واقفةً مع المخرج الثرثار الذي راح يتحدّث عن فيلمه القادم، وعن تضحياته لأجل الفنّ. ففي بدايته، بقي لمدّة شهرٍ يعيش على الخبز والماء لعدم توفّر المال لديه، وكان يكتفي بتدخين سيجارتين في الصباح ومثلهما في المساء، وترك قصّة حبٍّ لأجل انشغاله برسالة الفنّ التي يسعى وراءها. وعلى أثر كلامه هذا شعرت الممثّلة بالحماسة وراحت هي الأخرى تتحدّث عن محاولات مخرجٍ معروف للتقرّب منها لأجل إقامة علاقةٍ معها مقابل منحها أحد الأدوار المهمّة في أحد أعماله التلفزيونيّة، لكنّها رفضت ذلك.

كان بديع في أمسّ الحاجة لأن يفسح أحدهم المجال له لينضمّ إليهم، مع أنّه كان يعلم أنّ كلّ هذه الأحاديث مجرّد هراء، فلقد استاء من زيف التضحيات التي تشدّق بها هؤلاء، وشعر بأنّهم مثل عصابة، وزاد ارتباكه حين وقعت عيناه على عضو لجنة الحكم الذي كان واقفًا مع امرأةٍ وشخصٍ آخر. كان يُحرّك يديه أثناء حديثه ويطلق ضحكاتٍ مبالغًا فيها، شعر بديع بأنّه كان ينبغي عليه مغادرة المكان منذ البداية، فأجمل الأشخاص من يغادر وحيدًا لحظة انتهاء المناسبة التي جاء لأجلها، تاركًا وراءه التجمّعات الزائفة التي يأتي لأجلها الآخرون.

في اليوم التالي صعد الباص إلى اللاذقيّة، جلس على أحد الكراسي الأخيرة، وكان طوال الطريق واقعًا ما بين مشاعر الأسى التي تتساقط وراءه من عجلات الباص الخلفيّة، وما بين مشاعر الشوق والحنين التي تتساقط من بين عجلات الباص الأماميّة باتجاه اللاذقيّة وبحرها الذي يصلح لوضوء روحه المتعبة.

بعد وصوله بيومٍ واحد، مرّ على الخضرجي ليأخذ بعض الخضار ويذهب إلى بيت أبي رواد لإعداد الطعام. كان الخضرجي مشغولًا كعادته بترتيب الخضار والأشياء التي على الرفوف، هو يفعل هذا حين لا يكون لديه أيّ زبون، تبادلا التحيّة، وعبّر كلٌّ منهما عن الشوق للآخر، فلقد عرف الخضرجي من علياء أنّه كان مسافرًا إلى العاصمة، وبعد ذلك دار الحديث حول جوجو؛ لقد وافقت على الخطوبة، وزواجها بصديقه سيكون قريبًا. أخبره أنّ صديقه بات يجلس معظم الوقت في محلّ جوجو للثياب، المحلّ الذي تصرّ جوجو

على تسميته «بوتيك» إلى أن وضعت أمس لافتةً معدنيّة مكتوبًا عليها «بوتيك الزمن الجميل»، لأنّ معظم الثياب المستعملة التي تحرص على وجودها تعود إلى موضة الزمن السابق. وكما العادة، كلّما تقدّمت البشريّة يصرّ البعض على التعبير بأنّ الزمن السابق كان زمنًا جميلًا، إلى أن بات دلالةً على الحنين الذي يكون قد وصل إلى مكانه في سياق الكلام.

العالم هشٌّ وممِلّ عندما يملك المرء نظرةً ثاقبة، وجميلٌ ومتين ومتناغم عندما يكتفي المرء بنظرة خاطفة في لحظة سعادة. هذا المزيج بحدّ ذاته هو ما يجعل الحياة لغزًا أزليًّا، ويجعل ظروفها كما لو أنّها دوائر صغيرةٌ متداخلة الأطراف بدوائر أخرى، وهذان التداخل والتماسّ في ما بينها هما ما يُشكّل بذرة العبث من جهة، وبذرة المنطق من جهةٍ ثانية. فالمرء يستطيع أن يرفع يديه ليشكر السماء حبًّا للحياة، ويستطيع في ذات اللحظة أن يحقد على كلّ ما يجده في هذه الحياة، والأكثر عبثيّةً هو أنْ يصل به الأمر إلى ألّا يفعل أيًّا منهما، كما لو أنّه يبتسم في لحظةٍ ما قبل الموت، أو كمن يبكي في لحظةٍ في رحاب ما منحته الحياة من سعادة. ومع هذا كلّه، فإنّ البطولة مرهونةٌ بشيءٍ غيبي يتعلق بمن يعيش لأطول فترةٍ ممكنة، ليرى كلّ الأشياء التي راودته حول نفسه وحول الآخرين.

في المساء وقبل أن تغلق جوجو البوتيك، كانت جالسةً مع حبيبها جبران سائق الشاحنة، كانا يتحدّثان عن لذّة الحبّ الذي يأتي في سنوات النضج، ورغم هذا النضج أخبرها أنّها لم تزل مثل وردةٍ على الشرفة، وأعجبها كلامه هذا، فأخبرته بأنّ حرف الجيم الذي في بداية اسميهما إشارةٌ من السماء على الحبّ الذي وقعا فيه. وبينما كانا يتبادلان النظرات وهذه الكلمات، دخل عليهما الخضرجي وبديع وعلياء، ابتسم جبران لقدومهم، وعبّرت جوجو عن سعادتها، ورحّبا بهم ترحيبًا حارًّا. قامت جوجو لإعداد القهوة بينما راح جبران يحدّثهم بسعادةٍ عن الخطوبة، وعن اكتشافه أنّ حياته التي قضاها على الشاحنة كانت كمن يقطع كلّ تلك الأميال ليجد جوجو ويقع في حبّها، حتّى إنّه نظر إلى بديع وعلياء وقال لهما كما لو أنّه حكيم:

– حين يقع الحبّ تتوقّف الشاحنة، وينطلق القلب بدلًا منها.

لم يجد بديع عبارةً تتناغم مع ما قاله، واكتفى بهزّ رأسه، بينما علياء ابتسمت له، وقالت:

– هذا صحيح، وخاصّةً في مثل هذا الزمن.

لقد قالت عبارتها هذه كما لو أنّها واجبٌ حتمي لا بدّ منه، ودومًا الأشياء التي يقولها المرء في ما يتعلق بالزمن يكون أثرها أفضل من غيرها على الأذن.

وأكثر ما لفت انتباه بديع هو الثياب التي كان يرتديها جبران، إذ إنّها تعود إلى موضة قديمة، جوجو هي التي اختارت له هذه الثياب، كما لو أنّها باتت ترسّخ قناعاتها عليه. ومع أنّه كان يشعر بأنّ ثمّة شيئًا يعوق راحته، وبأنّ الجميع ينظرون إليه بغرابة، عبّر عن إعجابه بذوق جوجو، وبما اختارته له من ثياب هذا البوتيك، وطلب من بديع أن يختار قطعة ثيابٍ على حسابه، هديّةً منه عن ذلك اللقاء الذي كان داعمًا له

ولإقباله على الخطوبة، ولكنّ بديع اعتذر عن ذلك، وقال إنّه قد يحتاج إلى ذلك في وقت آخر، ربّما عندما يقدّم شخصيّةً مسرحيّةً أو سينمائيّةً تحتاج إلى ثيابٍ كهذه.

لكنّ علياء تحرّكت من مكانها وفنجان قهوتها بيدها وراحت تنظر في الثياب المعلّقة على قضبانٍ معدنيّة، وقعتْ عينها على بساطٍ يحاكي الثقافة الإسبانيّة في مصارعة الثيران، بعرض مترٍ وبطول مترين تقريبًا، وعلى طرفيه من جهة العرض شناشيل من الخيطان المعقودة، يصلح لتعليقه على الحائط كلوحةٍ، ويصلح أيضًا لمدّه والجلوس عليه كسجّادة رقيقةٍ وخفيفة الوزن. له وبرٌ ناعم كمناشف الحمّام، وعليه رسومٌ لرجلٍ في حلبة مصارعة، يمسك قماشة حمراء في وجه ثورٍ هائج بقرن يلامس أطراف هذه القماشة، شعرتْ بشيءٍ من الإثارة التي لم تشعر بها منذ زمنٍ طويل، واستغربت من شعورها هذا، ويبدو أنّ الخيال قد يحرّك المرء كما لو أنّه يمارس غريزته بمعزلٍ عمّا يحيط به. ارتبكت بعض الشيء، وشعرت بأنّها في المراهقة، لكنّ هذا الارتباك أعجبها، وجعلها تحاول إخفاءه والمغامرة به حين نادت على جوجو، وقالت لها:

– أريد شراء هذه البساط.

قالت جوجو:

– إنّه أجنبيّ.

قالت ذلك ثمّ أمسكته من زاويته لتريها الملصق الذي يؤكّد أنّه أجنبي الصنع ، من با ب الاعتزاز ببضاعتها التي تأتيها من أوروبا عن طريق بيروت.

قالت علياء:

– أعجبتني رسومه، وكذلك ألوانه.

قالت جوجو:

– فليكن هديّةً منّي لك.

رفضت علياء، وأصرّت على دفع ثمنه، وافقت جوجو على ذلك بعد إصرار علياء التي أرادت أن تكون هذه الإثارة ملكًا لها وحدها. وضعته في الكيس، بينما كان جبران يتحدّث عن سنّة الحياة في ما يتعلّق بالزواج والقسمة والنصيب، ثمّ عادت جوجو وعلياء إلى مكانهما، وظلّ جبران يتحدّث وهو ينظر في وجه جوجو كما لو أنّه يقود شاحنةً على إيقاع أغنيةٍ تدور حول الحبّ.

وصلت علياء إلى البيت، غسلت البساط ونشرته من الجهة الخلفيّة، فشعرت بأنّ رجلًا إسبانيًّا معلّقٌ على حبل الغسيل، وبقيت تنتظر جفافه كما لو أنّها على موعدٍ معه. كان أبوها قد خرج لشرب المتّة عند الخضرجي، وبقيت وحدها في البيت، كوت بساط حلبة المصارعة، ثمّ فردته على أرضيّة غرفتها، شعرتْ بأنّ مسامّها اتّسعت، وأنّ الإثارة تكاد تبلغ ذروتها، فلقد اشتعلت عيناها، وتكوّر نهداها كما لو أنّهما ارتفعا عن صدرها، وتدفّق ريقها لحظة تحريك لسانها وشدّ فكّي أسنانها. سرت رعشةٌ في أطرافها، فخلعت ما بقي

من ثيابها، وتمدّدت على الوبر الناعم، تارةً على ظهرها، وتارةً على بطنها، ثنت رجلها من عند ركبتها، وشدّت أصابع قدميها. كان جسدها دافئًا ما بين رغبة ثورٍ هائج مرّرت يدها على قرنه، وبين هذيان رجلٍ يُمسك بشعرها كما كان يمسك بقطعة القماش الحمراء.

وبعدما أنهت كلّ هذا الصخب الجارف لجسدها، مدّت يديها كجناحين وهي مستلقيةٌ على ظهرها. شعرت بأنّ العالم استرخى من حولها، وأنّه أغمض عينيه كما لو أنّه بحاجةٍ إلى قيلولةٍ ليتخلّص من كلّ هذا الخراب الذي لا ذنب له فيه، بات الهدوء في غرفتها كساعات الفجر الأولى، والأثاث بأجمل صورة، وسقف غرفتها كأنّه إحدى لوحات الكنائس في فلورنسا؛ زخارف وألوان وسكينة.

عاد أبوها إلى البيت، وكانت في المطبخ، جلسا معًا، وقد لاحظت حجم الوحشة التي على وجهه، لقد علِم بأنّ جبران وجوجو قرّرا الزواج، هذا الأمر أشعره بحالة اغترابٍ وبأنّه وحيد، يكاد يقول إنّي بحاجةٍ إلى ظلّ امرأة. فعندما يصل الرجل إلى مثل هذا العمر، يختلّ توازنه باقتراب الشيخوخة ونهايات العمر، والضجر من سنوات الحكمة التي داهمته في عمر الأربعين، وهواجس دقات القلب، وارتعاشات الأصابع في الفراغ دون أصابع تتشابك بها، والنصف الفارغ من السرير، والصمت البارد ما قبل النوم.

كانت سوسن ترتّب طاولات مقهى «زهرة عبّاد الشمس» عندما دخلت علياء، كانت على موعدٍ مع بديع، لكنّها جاءت قبل الموعد بساعةٍ واحدة كي تملأ ملفًّا باللغة الإنكليزيّة لأحد الأشخاص مقابل بعض المال. طلبت إسبريسو وجلست على طاولةٍ بالقرب من النافذة، وانتابها شعورٌ بأنّ جسمها لم يزل مصابًا بالاسترخاء من لذّة أمس التي بلغتها فوق حلبة المصارعة بعدما أثارتها إلى حدٍّ كبير، كما لو أنّها كانت في موعدها الأوّل مع ذلك الإسباني وذلك الثور الذي كان لا بدّ من وجوده معهما.

كانت سوسن لطيفةً كعادتها، وسألتها إن كانت ترغب في سماع أغنيةٍ محدّدة، فلم يكن أحدٌ في المقهى سواهما، شكرتها علياء على لطفها، وطلبت منها الاكتفاء بسماع الموسيقى دون غناء. لم تكن علياء تعلم بأنّ والد سوسن أستاذٌ للموسيقى، وبأنّها سمعت الكثير من المقطوعات الموسيقيّة منذ طفولتها بفضل أبيها الذي يملك الكثير من الأسطوانات الكلاسيكيّة. علمت هذا بعد نقاشٍ قصير دار بينهما حول شوبان وباخ وشوبرت، وتركت علياء حرّية الاختيار لسوسن التي وضعت إحدى مقطوعات شوبرت الذي يعجبها ويعجب والدها الذي فارق الحياة قبل سنتين.

كان المشهد غريبًا؛ موسيقى شوبرت في مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، والعاصمة على صفيحٍ ساخن في ما يتعلّق بشؤون البلاد السياسية، الخراب والدمار في شمال البلاد، وقاعدة عسكريّة للروس على مسافةٍ قريبة من اللاذقيّة، وشابّةٌ في عمر الورد قتلها أحدهم ورماها على أطراف المقبرة التي استقبلت رواد بذات البشاعة التي مات بها هو الآخر، والناس ينامون ويستيقظون كما لو أنّهم غرقى بكحولٍ منتهي الصلاحية.

حين تأتي الموسيقى، تجلب معها حريّةً مفتوحة للمرء للرحيل إلى حيث يريد. ولو أنّ ثمّة ما يمكنه أن يكون ابنةً للروح لكانت الموسيقى، يتساوى العناق معها كما الفراق، ويتساوى وجودها في الصحو كما في لحظات ما قبل النوم وأثناء النوم. وحدها الموسيقى لا تطالب الذين يدّعون حبّها بالأدلّة والبراهين وبثقافتهم بها، تترفّع عن كلّ المزاعم والأحاديث التي تدور بين الناس كتلك الأحاديث التي دارت على باب صالة المسرح بعد انتهاء العرض المسرحي، فالكَذَبة والصادقون بالنسبة إليها سواءٌ بسواء، إنّها لا تجيد الاصغاء إلّا لنفسها، مشغولةٌ بنفسها، وكثيفة ومترامية الوجود بنفسها.

مضى الوقت سريعًا، وبدأ بعض الزبائن يدخلون المقهى، رفعت علياء رأسها عن الأوراق وأخذت نفسًا عميقًا، رمت بالقلم فوق أوراق الملفّ، وأعادت ظهرها إلى الوراء وشدّت ذراعيها على اتّساعهما. فعلت ذلك لأسبابٍ تتعلّق بضرورة تحريكهما بهذه الطريقة بعد وقتٍ من الجلوس، ولكنّ بديع حين دخل وشاهدها على هذه الحركة وقف أمامها وقال:

– هاتان الذراعان المفتوحتان لعناقي، أليس كذلك؟

ابتسمت علياء عندما رأته يقف أمامها وهي تفعل ذلك بعينين مغمضتين للحظات، وقفت وتحرّكت خطوتين واحتضنته قائلةً له:

– مواعيدك دقيقة على توقيت فتح ذراعيّ.

في كلّ مرّة يزداد شعور بديع بأنّ معرفته بعلياء أكبر ممّا كان يودّه منها في بدايات إعجابه بها، لقد أخذت مكانةً كبيرة في قلبه يومًا بعد يوم، وصارت بالنسبة إليه آخر ما بقي في اللاذقيّة من وجوه تحثّه على البقاء وعلى الأمل.

كما لو أنّ أحدًا ما أخبر الملازم صفوان بأنّ علياء في المقهى، جاء ودخل المقهى، نظر إلى بديع وعلياء للحظات، ألقى عليهما تحيّةً بحركة رأسه، ثمّ وقف عند رفوف المكتبة وراح يعبث بعناوين الكتب. جاءت سوسن ووقفت بجانبه لتسأله إن كان يريد شيئًا يشربه، أو إن كان بحاجةٍ إلى مساعدةٍ تتعلّق بالمكتبة، لكنّه دون أن ينظر إليها قال لها:

– عودي إلى مكانك.

وبعد دقيقةٍ واحدة نادى سوسن وطلب أن تأتي إليه، جاءت ووقفت أمامه وهي مرتبكةٌ بعض الشيء، فسألها:

– هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟

لم تفهم سوسن فحوى سؤاله، ولكنّها أخبرته بأنّ كلّ شيءٍ على ما يُرام. لقد سألها وهو يرمق بديع وعلياء بنظراتٍ لا تخلو من الاستفزاز، ولم تكن علياء تعرف ما الذي يريده منها، لكنّها كانت تعرف أنّه يودّ أن يمارس شيئًا من عنجهيّته أمامها وأمام بديع، وأغلب ظنّها أنّه يفعل هذا لأنّه كان يودّ منها أن تنسجم مع نظراته وما ترمي إليه حين جلست معه أول مرّةٍ في هذا المقهى لأجل تسليمه البورتريه.

خرج فجأةً كما لو أنّه أتى ليعكّر روح شوبرت وهو في قبره.

في هذا الوقت كان أبو رواد جالسًا في الصالون، وثمّة برنامجٌ إذاعي جديد بات يستمع إليه منذ أسبوعين دون معرفة علياء بهذا، وراودته فكرة الاتّصال والمشاركة، لكنّه لم يكن يرغب في فعل هذا بوجود علياء. وكما استغلّت علياء عدم وجود أبيها أثناء ممارستها تلك الرغبة، كذلك استغلّ أبوها غيابها في هذا الوقت.

كان البرنامج يتحدّث عن قضايا تتعلّق بالحبّ والعلاقات وقصص الخيانة، وأغلب المستمعين والمشاركين في الاتّصالات هم من أبناء جيل ابنته علياء. كلّ متّصلٍ يسرد تجربةً في هذا الشأن، وبعض المتّصلين يشاركون آراءهم في بعض المسائل المطروحة مع فواصل موسيقيّة، هي أغانٍ عن الحبّ ونهاياته.

أمسك الهاتف وقرّر الاتّصال، كان قد تدرّب على نسج قصّة حبٍّ من خياله؛ سوف يخبر المذيعة أنّ صوته يبدو أكبر من عمره، وأنّ الحزن الذي مرّ به بسبب تجربة الحبّ التي وقع فيها، هو ما جعل صوته يبدو هكذا، من أثر الكحول والتدخين.

جاءه صوت المذيعة مرحّبًا به، ارتبك فجأة، ثمّ أنهى الاتّصال.

وقف عند النافذة واستنشق الكثير من الهواء، ثمّ أغلق المذياع ودخل غرفته وتمدّد على سريره متمنّيًا لو كانت أمّ رواد بجواره.

توقّف الملازم صفوان بسيّارته أمام كشك أبي ريحانة، ودون أن ينزل منها نظر إلى الكشك فرآه أبو ريحانة. وكما العادة، فإنّ صفوان لا يأبه برائحة نبتة الريحان التي يحرّكها الرجل، ولا يكترث لمثل هذه التفاصيل، أكثر ما يهتمّ به هو أن تأتيه القهوة دون النزول من سيّارته، وهذا ما قام به أبو ريحانة.

قال صفوان:

– هل كلّ شيءٍ على ما يُرام؟

أجابه أبو ريحانة:

– نعم، كلّ شيءٍ على ما يُرام.

قال صفوان بعدما ارتشف من القهوة وهو مسترخٍ خلف مقود سيّارته:

– نحن حريصون على كلّ تفاصيل الأمن في الدولة.

شكره أبو ريحانة بقلبٍ مكسور، وبوجهٍ ثابت الملامح، فليس لديه سوى المجاملة في مثل هذا الموقف مع رجلٍ يمتلك السلطة وجبروتها بوجهٍ تتجمّع فيه كلّ مكامن الشرّ والأذى.

قال صفوان:

– سمعتُ أنّك تعلّق صورة ابنتك ريحانة في داخل الكشك.

ردّ قائلًا:

– هذا صحيح.

صمت صفوان للحظات عن قصدٍ وهو ينظر في وجه أبي ريحانة، ثمّ تحدّث كما لو أنّه يقترح عليه دون سلطة، أن يزيل الصورة، وذلك كي يخفّف عن نفسه، ويُبقي الكشك بعيدًا عن الأحزان والذكريات التعيسة فابنته أصبحت بجوار الملائكة، ويجب عليه أمام الأجانب والسيّاح أن ينشر فكرة الأمان بدلًا من نشر قصّة موت ابنته بجريمة قتل، ولا سيّما أنّ الروس من السيّاح باتوا يقصدون اللاذقيّة في أيّام الصيف، وأنّ هذا الكشك بات معروفًا على الكورنيش الجنوبي، ولقهوته سمعة حسنة.

وافق أبو ريحانة على ما طلبه منه، ثمّ غادر صفوان بسيّارته دون أن يدفع ثمن القهوة. وعدم دفعه لثمن القهوة أفضل من أن يدفعها، فمن ليس بمقدوره أن يكون ممتنًّا لمن يقوم بتحضير القهوة لا قيمة لنقوده سواء دفع أو لم يدفع.

عاد إلى الكشك كما لو أنّه عاد من المقبرة بعد زيارة قبر ريحانة. مشكلة الموت أنّه لا يحدث دفعةً واحدة، يبقى رهين الحياة كما لو أنّ صاحبه مات للتوّ، والدمع الذي يذرفه المرء هو ذات الدمع الذي ذرفه أوّل مرّة.

أمسك بصورتها المعلقة بكلتا يديه، رفعها قليلًا عن المسمار كما كان يرفعها حين كانت صغيرة، ضمّها إلى صدره كما لو أنّه يضمّ اللاذقيّة التي أحبّها، وضمّها مرّةً أخرى كأنّه أراد لقاتلها أن يرى هذا العنفوان الذي بينه وبينها، ولم تكن لديه طاقةٌ لقول أيّ شيءٍ سوى أن يهمس في أذن قاتلها:

– ثمّة سيناريوهات كثيرة لهذه الريحانة، كان يكفيك أن تنادي باسمها وتردّ عليك، هذا بحدّ ذاته شرفٌ كبير، وحظٌّ عظيم.

لم يشعر في أيّ لحظةٍ بشغف الانتقام لها، وهو غير معنيّ بالتحقيق الذي يدور حول قضيّتها، فقضيّة ريحانة ليست جنائيّةً بقدر ما هي قضيّة حضارة في كتب تاريخ الشعوب، كما لو أنّها عارٌ على المستمع قبل المتكلّم، ففي الوقت الذي تتحدّث فيه الشعوب عن أثر الكلمة وما تفعله في النفس، نجد هذا الذي حدث لريحانة، مفارقةً كبيرة تدحض كلّ ما تزعمه البشريّة في العصر الحديث.

والفارق ما بين الموت الطبيعي والقتل يبقى مرهونًا بالخيال الذي لم يتوقّف في مخيّلة أبيها، فهمجيّة القتل تأخذ عشرات الخطوات المؤلمة، فيما الموت الطبيعي لا يبتغي من الضحيّة سوى الإمساك بيدها وأخذها بسلام.

ما لم يعلمه صفوان أنّ الخائف عادةً ما يجيد الأفكار أكثر ممّن يمارس سلطته، ومن حسن حظّ أبو ريحانة أنّ صفوان اكتفى بإزالة الصورة من مكانها، ولم يطلب منه أن يزيل تلك النبتة التي كانت بالنسبة إليه أكثر حياةً من صورة ريحانة.

عادت علياء إلى البيت كما لو أنّ ثمّة من ينتظرها فيه، أبوها وذلك الرجل الإسباني الذي في غرفتها. دخلت وكان الهدوء يملأ البيت، أدركت أنّ أباها كان نائمًا، ولكن بعد لحظات شاهدته يخرج من غرفته،

سألها عمّا فعلته هذا اليوم، وأخبرته أنّها كانت تعمل في المقهى، وأنّها كانت على موعدٍ مع بديع الذي أرسل له تحيّاته، وكان بودّه القدوم لولا مزاجه السيّئ بسبب صفوان.

فجأةً اقترب منها وضمّها إلى صدره وبكى قليلًا، وأخبرها قائلًا:

– أشعر بحزن لا حدود... لا حدود له.

قالت له:

– أعطني إيّاه لأحمله عنك.

قال:

– ما من رجلٍ حقيقي يضع حزنه على امرأة إلّا يزداد حزنه.

قالت:

– هذا يعني أنّها ليست أهلًا لذلك.

قال:

– بل لأنّها أهلٌ لذلك وأكثر، والدليل على ذلك هذا الشعور الذي انتابني الآن، كما لو أنّني لم أعد حزينًا.

تبادلا ابتسامة، وقرّرا شرب المتّة، ولعب لعبة «عجن الكلام».

انتصف الليل في اللاذقيّة، وكانت مستعدّةً ليومٍ جديد، فما من مدينةٍ تمتلك بحرًا إلّا لديها امتيازاتٌ عن غيرها من المدن، هكذا مثل أسطورةٍ يونانيّة نام سكّانها وبقيت أرواحهم مستيقظةً داخل كلّ موجة، ليقوم الموج عبر مرور السنوات بنحت وجوههم على الصخور المترامية على أطراف الشاطئ.

4

على مدار التاريخ مرّت الحياة بثلاث مراحل في ما يتعلق بالتفكير وما ينتج عنه من سلوك. في المرحلة الأولى كانت الفطرة البشريّة تأخذ شكلها بعفويّةٍ تامّة، ثمّ جاءت المفاهيم والدراسات لتجعل من تلك المرحلة مكشوفة الأسباب والدوافع، وبدا المرء فيها عاريًا أمام الآخرين، وما عليه إلّا أن يجد ضالّته تحت سقف المرحلة الثانية التي بات يسلك فيها طريقًا منافيًا للمرحلة الأولى، هذا الدرب كان غريبًا لكنّه صار أسلوب حياة. في ما مضى كان المرء يشير نحو الشجرة بعفويّةٍ تامّة، وجاءت المرحلة الثانية لتقول إنّ هذه الإشارة دلالةٌ على رغبةٍ في قضم التفّاحة، لذلك صار عليه أن يُشير إلى الأفق كاملًا، بما فيه تلك الشجرة. والذين عملوا على تأسيس المرحلة الثانية سخروا مليًّا من المرحلة الأولى، وكانوا عدوانيّين إلى حدٍّ كبير تجاههم تحت دافع الثورة الفكريّة من جهة، والثورة النقديّة من جهة ثانية، لكنّهم غفلوا عن أنّ البعض منهم قد عاد إلى المرحلة الأولى بدافع التمرّد والثورة على مفاهيم المرحلة الثانية، ونتج عن هذا التمرّد ظهور المرحلة الثالثة التي هي المرحلة الأولى نفسها لكن بنظرةٍ جديدة، فالعودة إليها غير البقاء فيها. وبهذا الشكل نجد أنّ هذه الرؤية بمراحلها الثلاث مثل مثلّثٍ متساوي الأضلاع برؤوسٍ تلامس محيط دائرة تحيط به، وما من شيء إلّا يعود إلى رأس المثلّث بشكلٍ دائري: بداية، انتقال، عودة، وهذه العودة تأخذ حالةً غير الحالة التي تمّ الانتقال منها في تلك البداية، هذه هي السيرة الذاتيّة لجميع المفاهيم عبر التاريخ.

مرّ الشتاء كما تمرّ أحزان منتصف الليل في الصباح، وجاء الربيع ليمنح الوحيدين بعضًا من الورد ونسمات الهواء وهواجس الأمل في الخطوات التي تزداد على الطرقات البعيدة، وليكون الامتداد هبةً للعيون ونبضًا للقلوب، وليغسل المرء ما يمكن غسله من رقاد الشتاء، وليبدأ نظرةً جديدة للحياة. نال لوكاس ثناءً من الحكومة الروسيّة على أثر مشاركته في إنقاذ طيّارٍ وقع على أراضي الشمال السوري التابعة لقوّات المعارضة. لقد أُسقطت طائرة هذا الطيّار بصاروخٍ من القوّات التركيّة، واستطاع الخروج منها عن طريق سحبه مقبض الطوارئ الذي حرَّر مقعده من مكانه، وقذفه خارج الطائرة بلمح البصر، ليصبح في

الهواء بمظلة أنزلته على الأرض بين أشجارٍ كثيفة ساعدته على الاختفاء بينها إلى أن تمّ إنقاذه بتغطية سلاح الجوّ وتدفّق قوّاتٍ بريّة استطاعت الوصول إليه بعد اشتباكاتٍ عنيفةٍ حدثت بين الطرفين.

وبعد حادثة إنقاذ هذا الطيّار، بقي لوكاس يُفكّر في مقعد الطرد الخاصّ بالطائرات، وأنّ الحياة برمّتها كأنّها قائمةٌ على مثل هذا المقعد الذي يبدو بمثابة ضربة حظّ. وانتابه شعورٌ بتلك المسافة التي تفصل الطيّار ما بين لحظة خروجه من الطائرة ووصوله إلى الأرض وهو معلّقٌ بمظلّته نحو حتفه. ومن الأشياء التي باتت تستحوذ على تفكيره، فكرة الحرب وأسبابها، وقد بات يصل إلى قناعةٍ بأنّ الحرب التي لا تؤمن بها شعوب البلاد قبل القادة والجنود هي ليست حربًا، وإنّما مجرّد فوضى يتّخذها القادة لصناعة أمجادٍ لهم في التاريخ، وأنّ الطائرة التي على حق هي الطائرة التي تكتفي بالتحليق فوق حدود البلاد للدفاع عنها، فشرف الطيّار أن يموت في سماء بلاده، وأجمل القطع في الشطرنج تلك التي تضحّي بنفسها وسط الرقعة لأجل الدفاع عمّا وراءها.

لا يُمكن لأحدٍ من رفاقه أن يُدرك أنّ لوكاس قد تراوده مثل هذه الأفكار التي تتعلّق بتفاصيل مصير الإنسان ووجوده في هذه الحياة، فطوال الوقت يبدو كأيّ طيّارٍ موجود على هذه القاعدة العسكريّة تحت العلم الروسي. وأقصى ما يمكن لرفاقه وقادته أن يتبادر لأذهانهم في ما يتعلّق بلوكاس، أنّ اللحظات التي يختلي فيها بنفسه ما هي إلّا لحظات تفكير في أمّه التي رحلت، ولا شيء سوى ذلك، ولو أنّ أحدًا كان يعرف أيّ شيءٍ عن مراهقته، والطرقات التي بقيت في قلبه، وصورة بطل الشطرنج ميخائيل تال، والمشهد الذي حدث بين أمّه وبين ديمتري، لعرف أنّ هذا الطيّار ليس سوى بالونٍ وحيدٍ يحلّق في الهواء، وأنّ أصغر شوكةٍ قادرةٌ على تفجيره وجعله مجرّد حطام.

من الأشياء التي بقيت في ذهن لوكاس رؤية علياء، فلم تكن الظروف السابقة تسمح له برؤيتها مرّةً ثانية. وما شجّعه على ذلك هو تكليفه بمهمّةٍ تتعلّق بنزوله إلى اللاذقيّة لرؤية أحد الضبّاط السوريّين في مقرّ فرع أمن الدولة، مع أنّ القرارات تُتَّخذ على صعيد الحكومتين، إلّا أنّ ثمّة تفاصيل لوجستيّةً يجري التعامل معها داخل اللاذقيّة في ما يتعلّق بقاعدة حميميم الروسيّة. وبعد الثناء الذي حصل عليه لوكاس صار بوسعه أن يأخذ فترة استرخاءٍ في بعض الأمكنة الآمنة داخل مدينة اللاذقيّة، وفي ما سبق أخبره صفوان بأنّ ثمّة فيلّا في مدينة صلنفة التي لا تبعد كثيرًا عن اللاذقيّة، تعود ملكيّتها لأحد الضبّاط السوريّين في دمشق، ومفتاحها بحوزة صفوان. حينها لم يكن لدى لوكاس الرغبة في الذهاب إلى هناك، فلم تكن ظروف القاعدة العسكريّة تسمح له بذلك، وكانت المهمّة الروسيّة في ذروتها.

كانت علياء برفقة أبي ريحانة يقطفان الورد على أطراف اللاذقيّة، وكانت السماء تنثر صفاءها فوقهما، والطقس يحثّ على الحياة بطريقةٍ ما، كما لو أنّه أراد أن يُخرج الموتى من قبورهم ليروا هذا الألق العظيم. كانت نسمات الهواء تعبث بأطراف تنّورة علياء، والورود البرّية تنشد أغانيها، والأفق يفتح ذراعيه ليحتضن ما بقي من أرواحٍ على قيد الحياة.

عادا سيرًا على الأقدام نحو المقبرة ليضعا الورد فوق قبر أمّها وأخيها وريحانة، شعرت علياء بالطمأنينة برفقة رجلٍ يشاركها ذات المشاعر والأحاسيس التي تراود المرء وهو يجلس قرب قبر من فارقه، فلا أحد منهما بحاجةٍ إلى مواساة الآخر، ولا أحد منهما غريبٌ عمّا يشعر به الآخر.

بعد ذلك، دعت علياء أبو ريحانة لتناول الطعام في البيت، ولتعرّفه إلى أبيها، وهذا من أكثر ما تحبّه علياء؛ أن تجد شخصًا يجالس أباها ويتحدّث معه، ليكسر له شيئًا من تلك الوحدة التي يشعر بها في معظم الأحيان.

قرّرت جوجو وجبران الاستقرار في العاصمة، وذلك لأسباب تتعلّق بعملها الجديد، فقد اشترت أحد محالّ الملابس بسعرٍ زهيد من صاحبه الذي قرّر الرحيل إلى أوروبا. كانت فرصةً جيّدة لا يمكن تركها، وقد ساعدها جبران ببعض المال، فبيع الملابس هو المهنة التي تحبّها والتي تهواها، وفي الوقت ذاته أحبّت أن تخوض حياتها الجديدة مع جبران في مكان آخر غير اللاذقيّة التي عاشت فيها طوال السنوات الفائتة من عمرها. بوتيك «الزمن الجميل» أخذ منها الكثير من الجهد، كانت سعيدةً بتجربتها معه، وترك في داخلها الكثير من الذكريات والوجوه التي قابلتها، لكنّها شعرت بأنّه بات عليها البدء بذاكرة جديدة في العاصمة برفقة جبران الذي وقع في حبّها، ووقعت في حبّه، حتّى إنّها خشيت العين والحسد من بعض الجارات، فكلّما مرّت في الحيّ ويدها متشابكة بيد جبران كانت العيون لا ترحمهما من تلك النظرات، فمعظم سكّان الحيّ كان يظنّ أنّها قويّةٌ وجبّارة ولا يرقّ قلبها لرجل.

في بداية الأمر عرضت جوجو على علياء أن تتسلّم بوتيك «الزمن الجميل»، لكنّ علياء اعتذرت بسبب توقيعها عقدًا مع أحد المعاهد الخاصّة لتدريس اللغة الإنكليزيّة، بالإضافة إلى انشغالها في بعض الأحيان بملفّات الترجمة، ودروس الطلاب المنزليّة بين الحين والآخر. واقترحت علياء عليها أن يتسلّم بديع البوتيك، بما أنّه عاطل من العمل، وهو شخصٌ جيّد وأمين، راق الاقتراح جبران قبل جوجو، فجبران ما زال ممتنًّا لبديع منذ اللقاء الأول، وقد شعر بأنّ وجوده أثناء الحديث عن جوجو مصدر خير وتفاؤل. سارت الأمور على ما يُرام، وراقت الفكرة بديع الذي عمل ثلاثة أيّام تحت إشراف جوجو، لتعطيه بعض الملاحظات والنصائح والتعاليم المتعلقة بهذه المهنة وبضرورة الحفاظ على سمعة واسم البوتيك الذي كلّفها الكثير من الشقاء لتصل به إلى هذه المكانة، وأخبرته بأنّ معظم فتيات جامعة تشرين لبسنَ من هذا البوتيك.

بعد ذلك راحت تخبره عن بعض الزبونات ممّن سوف يأتينَ إليه، ذكرت له بعض الأسماء وصفة كلّ واحدةٍ منهنّ، وأنّ فلانة زبونةٌ جيّدة، والأخرى ليست كذلك، وعليه أن يتمسّك بأسعارٍ ثابتة مع بعض من ذكرتهنّ له. وحدّثته عن امرأةٍ متعجرفة اسمها تهاني، التعامل معها صعبٌ للغاية، ولا يعجبها أيّ شيءٍ إلّا ما ندر، تتكبّر على الثياب المستعملة، وتدّعي أنّ الثياب التي تشتريها تقدّمها إلى جارتها الفقيرة، مع أنّ جوجو رأتها أكثر من مرّةٍ وهي ترتدي الثياب التي تشتريها من البوتيك، فهي تقول شيئًا وتفعل شيئًا آخر،

بينما ابنتها لارا شابّةٌ جميلة ورقيقة وصاحبة ذوق، وهي زبونةٌ دائمة للبوتيك، وعليه أن يتعامل معها بذات الرقّة التي سيلاحظها عليها، وعادةً لا تفضّل المجيء برفقة أمّها التي تسبّب لها الحرج من خلال تصرّفاتها ومزاعمها وعنجهيّتها الواضحة أمام بقيّة الزبائن. كانت جوجو تتأفّف كلّما ذكرت اسم تهاني أثناء حديثها الذي أخذت تلك الزبونة النصيب الأكبر منه، إلى أن صمتت قليلًا ونظرت في وجه بديع وقالت له:

– هل تعلم لماذا لم أطردها من البوتيك؟

قال بديع وقد ارتبك بعض الشيء من السؤال المفاجئ، وشعر بأنّه أمام اختبار. حرّك ملامح وجهه مستفيدًا من موهبة التمثيل، كما لو أنّه أراد أن يشعرها بأنّها وحدها من يحقّ لها الاسترسال والحديث عن تهاني، شعرت بتلك الإيماءة التي قام بها بديع وأجابت قائلةً:

– لأجل ابنتها لارا، لا أريد أن أجعلها تبدو صغيرةً أمامها، شعورٌ سيّئ أن يحدث ذلك.

تغيّرت ملامح وجهها فجأةً، وباتت نبرتها عاطفيّة، ونظرت إلى جبران قائلة:

– تمنّيتُ لو كانت لديّ ابنة مثل لارا.

بعد ذلك عادت ملامح الحزم والتعاليم على ما كانت عليه، وأوصته أن يكون حذرًا من أن تسرق إحداهن أيّ شيء، فذات مرّةٍ استطاعت أن تمسك إحداهنّ وقد حاولت سرقة حمّالة صدر بعدما وضعتها داخل الجيب الداخلي لمعطفٍ شتوي أرادت شراءه، وادّعت أنّها لم تفعل ذلك، وأنّ المعطف أعجبها ولم تتفقّد جيوبه الداخليّة. ثمّ عادت وطرحت سؤالًا آخر على بديع:

– هل يُعقل أن تقرّر شراء معطف دون أن تتفقّد جيوبه؟

قال بديع:

– بالتأكيد لا، وبالتأكيد هي من وضعت حمّالة الصدر في جيوب المعطف الداخليّة، إنّ الجيوب الداخليّة هي أكثر ما يستحقّ أن يتفقّدها المرء.

عندما قال بديع كلمة «المرء»، انتابه شعور بأنّه بالغ بعض الشيء باستخدام هذه الكلمة على ضوء حديثٍ أبسط من أن يستخدم فيه كلمة كهذه، وربّما جوجو لا تحبّذ استخدام مثل هذه الكلمات، فقد كان في موقفٍ يجب عليه فيه أن يختار مفرداته بعناية أمام هيبة جوجو وتعاليمها.

شعر بديع بشيءٍ من السعادة، فقد كان محتاجًا إلى العمل أكثر من حاجته إلى المال، هذا العمل هو بمثابة توطيدٍ لمكانته في هذا الحيّ الذي أحبّه وأحبّ سكّانه. شعر بأنّ الحركات والملاحظات والتعاليم التي كانت تُطلقها جوجو، جعلتها تبدو كمخرجةٍ مسرحيّة تقوم بإعداده لتجسيد شخصيّةٍ مونودراميّة وسط هذه الثياب المعلّقة على القضبان، بينما جبران كان ملتزمًا الصمت، لكنّه كان يهزّ رأسه له مع ابتسامةٍ صغيرة كلّما أخبرته جوجو بملاحظةٍ أو توصية تتعلّق بأسرار المهنة وطريقة التعامل، كأنّ جبران

كان يقول بصمته هذا إنّ جوجو لا تقول إلّا الحقيقة المبنيّة على خبرة، وعلى بديع أن يصغي جيّدًا لكلّ حرفٍ تقوله.

في الليلة التي سبقت رحيل جوجو إلى العاصمة، شعرت بشيءٍ من التوتر والحزن على فراقها اللاذقيّة، كأنّها هي التي ستغادر إلى أوروبا بدلًا من ذلك الرجل الذي اشترت منه المحلّ. وكان جبران بجانبها يمسح على كتفها ويحدّثها عن الأيّام الجميلة التي تنتظرهما في العاصمة.

بينما كان بديع ممدّدًا على سريره يستعدّ للنوم ليستيقظ باكرًا، وعلى الطاولة الصغيرة التي بجانبه مفتاح بوتيك «الزمن الجميل»، انتابه شعورٌ جميل سيرافقه في الصباح وهو ذاهبٌ لفتح المحلّ. لقد تعلّم بعض الأشياء على يد جوجو، وكلّ ما كان يرغب فيه هو أن يتحدّث مع الزبائن، هذه فرصةٌ لا تخلو من الفنّ بالنسبة إليه، فهي بمثابة الحوار، وهو يعلم أنّه يتمتّع بسرعة بديهةٍ تتعلّق بفتح الأحاديث الممتعة. لقد قرّر أن يلبس بنطالًا وقميصًا حصل عليهما من البوتيك، حيث ثمّة قسمٌ صغير لثياب الرجال، شعر بأنّه سيبدو كما أفلام سينما ستينيّات القرن الماضي، وقرّر أن يقوم بتسريحة شعرٍ تناسب حقبة ذلك الزمن.

في ظروف هذه البلاد لم يعد هناك فارقٌ كبير بين شخصٍ يجد نفسه موهوبًا ويعمل في بوتيك للثياب المستعملة، وبين شخص أخذ فرصته كما ينبغي، كلاهما سواء بسواء، فالمتاهة واحدة، والأيّام تكاد تكون متشابهة، والعبقري من يستطيع إضافة لمسةٍ خفيفة على يومه، حتّى لو كانت هذه اللمسة عبارةً عن شيءٍ يشبه لعبة عجن الكلام، صاحب الحظّ من يقوى على الثبات، فالخلاص بات فرديًّا أكثر من أيّ وقت مضى. هذا ما فكّر فيه بديع وهو يغمض عينيه مستسلمًا للنوم، كما لو أنّه يعزّي نفسه إن مات وهو نائم. المبدعون ينتابهم شعور الموت أكثر من غيرهم، وبأنّهم سيفارقون الحياة في عمرٍ قصير، ليكتشف البعض منهم في ما بعد أنّ الإبداع لم يكن من شأنهم، وإنّما غريزة حبّ الحياة هي التي كانت تدفعهم لذلك الاعتقاد، وقد يصل المرء إلى حالة قلقٍ تتعلق بخشية موته في هذه الليلة قبل أن يقوم ببعض التفاصيل البسيطة التي يجب عليه فعلها في صباح اليوم الآخر، وهذه هي إحدى معضلات الموت المفاجئ. لذلك نجد أنّ الذين تقدّموا في العمر أكثر استعدادًا للموت، فلم يعد الواحد منهم مشغولًا بترتيب تفاصيل الغد، فقد تمّ التخلّص من الغد بحدّ ذاته من خلال كثرة أحاديثهم عن السنوات السابقة والذكريات الغابرة.

شعرت علياء بشيءٍ من التعب بعدما نظّفت أرضيّة البيت، وغسلت الثياب، ورتّبت المطبخ، دخلت غرفتها وتمدّدتْ على سريرها، وكان بساط حلبة المصارعة مطويًّا عدّة طبقاتٍ تحت وسادتها، حيث أصبح هذا مكانه المعتاد. كان أبوها قد خرج إلى صديقه الخضرجي ليجلس معه بعض الوقت، في هذه اللحظات سمعت جرس باب البيت، وقامت لتفتحه ظنًّا منها أنّه أبوها. كانت ترتدي بيجامتها، وكان شعرها مبعثرًا، ومع ذلك تسرّ عين الناظر إليها، فقد كان وجهها يخفي وراءه الكثير من لذّة الكلام، وحُسن النظرات، كما أنّ النعاس والإرهاق أضافا إليها شيئًا من السكينة، كأنّها ثملة. فتحت الباب فكان لوكاس، بدا وسيمًا

ومبتسمًا، يقف كما لو أنّه جاء لتأدية قسَمٍ غير القسم العسكري الذي سبق أن قام به في موسكو. ألقى التحيّة عليها وأخبرها أنّه جاء لتقديم شكره لها على إيصالها البورتريه، وأنّه يجب عليه تقديم الشكر لأجله وأجل أمّه، وأنّ الموقف الذي حدث في المرّة السابقة لم يكن لائقًا، وكان عليه أن يأتي مرّةً ثانية ليراها ويدعوها إلى القهوة أو العشاء كما يليق بهما.

ثمّة حالةٌ غريبة؛ الحكومة السوريّة هي التي قدّمت شكرها للحكومة الروسيّة على مساندتها العسكريّة، بينما هذا الضابط هو من جاء ليقدّم شكره لها. انتابها شعورٌ بفوضى الأحاسيس، وتحرّكت غريزتها دون قصد. دهَمها شعورٌ حيواني مفاجئ، فالذين يتّصفون بسمعةٍ حسنة، ولباقةٍ في الأحاديث والعلاقات، وتوازنٍ مع أنفسهم، هم أكثر الأشخاص غرابةً في اللحظات التي تتحرّك فيها المياه الراكدة داخلهم. يبدون كلعنةٍ غير معلنة، وطوفانٍ حان موعده في ظلّ هذا الخراب الذي يحيط بكلّ مكان، هذ ما شعرت به علياء.

رحّبت به وشكرته، ثمّ دام الصمت لحظات. ارتبك لوكاس بعض الشيء، فلم يكن يتوقّع أن يدهمه هذا الوجه بنظراتٍ كهذه. كلّ ما كان يرغب فيه هو الخروج من صرير المعادن المُتراكم في قاعدة حميميم العسكريّة، ورؤية وجه امرأةٍ سبق أن رآها على عجل، انتابه شعورٌ بضرورة رؤيتها مرّةً ثانية. وجد نفسه على مسافةٍ أقرب ممّا كان يرغب فيه، كما لو أنّ رادار طائرته تعطّل وهو على مسافةٍ قريبة من الأرض، إلى أن قالت له:

– وماذا أيضًا؟

بدا كما لو أنّه تاه أمامها، ولم يجد ما يقوله، إلى أن قالت له:

– حسنًا، شكرًا لك.

قالت ذلك كأنّها أرادت منه أن يغادر وهو على ارتباكه، شعرت بلذّة الموقف، بينما شعر هو بأنّ ما يحدث عند أحد بيوت اللاذقيّة غير ما يحدث في تلك القاعدة العسكريّة. راقه هذا الشعور، وتدفّقت الدماء في عروقه، لقد حدث بينهما ما يُشبه ألعاب الخفّة. وضع يده على حافة الباب دون قصد، وبقي واقفًا أمامها بوداعةٍ بانت في عينيه اللتين رأتْ علياء من خلالهما حجم حاجته إلى امرأةٍ تُرمّم له روحه التي تُخفي وراءها الكثير من الأشياء.

رفع يده عن حافة الباب وشكرها، ثمّ قال لها:

– يقولون إنّ صلنفة مدينةٌ جميلة، هل هذا صحيح؟

قالت:

– هي كذلك.

لم يعرف ماذا عليه أن يقول، فقد بدت مسترخية لدرجةٍ كبيرة، ثمّ قالت:

– لماذا أتيت بدون موعد مسبق، هذا غير لائقٍ بك كرجلٍ أوروبي.

نظر مليًّا في عينيها ثمّ قال:

– الأشياء التي تتعلّق بالطيران تحتاج إلى دقّةٍ عالية لإصابة الهدف، بينما عندما نرغب في أمرٍ ما فإنّنا نتقصّد الفوضى، ليستمرّ تفكيرنا فيه، فلو لم أجدك هذه المرّة، لأتيتُ مرّةً ثانية، أريد أن أجد شيئًا أفكّر فيه أثناء وجودي في القاعدة العسكريّة.

سألته:

– ومن أين تعلّمت الفوضى ما دمتَ طيّارًا يتحدّث عن دقّة الهدف؟

قال:

– من الشطرنج.

قالت:

– اشرح لي.

قال:

– ونحن نقف هكذا عند الباب؟! هذا أيضًا غير لائقٍ بكم كعرب.

قالت له:

– لا بأس، هذا فقط لكي تكتمل الفوضى التي تتحدّث عنها.

كان لوكاس متعطّشًا لحديثٍ كهذا، فقد مزّق روحه سلاح الجوّ، وتراكمت غشاوةٌ على عينيه من رؤية الخرائط، ومؤشّرات الرادار، وأصابه الضجر من الحروب وأمجاد البلدان. ومشهد ذلك الرفيق الذي تمّ إنقاذه لم يزل في باله، ومقبض الطوارئ الذي يُطلِق مقعد النجاة بات يذكّره بوجه ديمتري وهو يضع له تلك المسائل المعقّدة الحلّ ليختلي بأمّه على الشُرفة. والأكثر من هذا كلّه، أنّه شعر بأمسّ الحاجة إلى شيءٍ من الحياة المدنيّة في اللاذقيّة بعيدًا عن الحياة العسكريّة في قاعدة حميميم، كيتيمٍ يحتاج إلى قرع جرس باب بيتٍ تفوح منه رائحة الطعام، وهذا الوجه الماثل أمامه بكلّ ما فيه من سكينةٍ وجمالٍ لامس فؤاده.

قال لها:

– حين يلعب لاعب شطرنج متمرّسٌ مع أحدٍ يحبّه، فإنّه لا يُنهي الدور على عجل، بل يتقصّد نشر الفوضى من خلال نشر القطع هنا وهناك ليتوه مع الطرف الآخر، كما لو أنّه يضع نفسه في مأزقٍ يجرّ معه رؤيةً إثر رؤية، وحدثًا إثر حدث.

قال ذلك وقد انتابه شعورٌ عارم يراوح ما بين الطفولة والمراهقة، دام صمتٌ للحظات، ثمّ غادر.

بينما كان المطر ينهمر في أحد صباحات اللاذقيّة، كان بديع يرتّب الثياب على القضبان بعدما خرجت إحدى الزبونا ت من البو تيك. بعثرت الكثير من الثياب، وجرّبت عدّة أشياء، وفي نهاية الأمر اكتفت بشراء بنطال جينز فضفاض عليه ملصقٌ للعلم الأميركي عند الجيب الخلفي، لكنّها دفعت النقود

دون أيّ محاولةٍ منها لخفض ثمنه، إذ أدركت حجم الفوضى التي أحدثتها، فلم تعد لديها الجرأة للمطالبة بذلك.

بعد مرور الأسبوع الأوّل، بات معظم الزبائن يعرفون أنّ بديع هو من تسلّم البوتيك، وأنّ جوجو غادرت إلى العاصمة. الجميع أبدى الكلمات الرقيقة على أثر مغادرتها، وكان المشهد في بعض الأحيان يبدو مبالغًا فيه، كما لو أنّها كلمات رثاء. أمّا تهاني التي حدّثته جوجو عن محاولتها سرقة حمّالة الصدر، فجاءت أمس، وقد سمعت بخبر مغادرة جوجو إلى العاصمة، دخلت البوتيك، وألقت على بديع التحيّة، كانت أنيقة، لكنّ مبالغتها في الماكياج أفسدت عليها شيئًا من هذه الأناقة. كانت تضع في معصمها الكثير من الأساور التي كانت تصدر صوتًا كلّما حرّكت يديها أثناء حديثها عن نفسها وعن مدى العلاقة المتينة التي تربطها بهذا البوتيك، وعن أنّها جلبت الكثير من الزبائن إلى هذا البوتيك من خلال المديح الذي كان تنشره بين الجارات، وبين صديقات ابنتها لارا.

بعد ذلك وقفت عند السلّة الكبيرة التي تحتوي على المايوهات وحمّالات الصدر، وانتقت حمّالة صدر ذات شكل غريب، أطالت النظر فيها، وتفحّصتها بدقّة. كان صوت أساورها يرنّ في رأس بديع الذي وقف عند الطاولة في مدخل البوتيك، يراقبها كما لو أنّه قنّاصٌ على إحدى الجبهات بعدما حذّرته جوجو منها. شعر بأنّه تحت اختبارٍ في دقّة مراقبته لها، إلى أن جاءت ووقفت أمامه قائلةً:

– في المرّات المقبلة سأشتري أشياء أخرى، ولكنّي الآن أكتفي بشراء هذه.

ابتسم لها بديع، ثمّ دفعت له ثمنها، وغادرت بعدما لوّحت له بيدها برفقة صوت الأساور.

جلس بديع يتابع قراءة مسرحيّة «مطعم القردة الحيّة» للكاتب التركي غنكور ديلمان، التي يعمل على إعدادها منذ عودته من العاصمة. قرّر فعل ذلك من تلقاء نفسه، فقد يجد في ما بعد جهةً تتبنّى تقديمها على إحدى خشبات المسرح، ودفعه إلى ذلك احتياجه للبقاء في أجواء المسرح، فكلّما ازداد إحباطه ازداد ذلك الاحتياج، كما لو أنّه يداوي نفسه بالتي كانت هي الداء.

كان يُمسك المسرحيّة بيده، وأمامه دفترٌ صغير لتدوين ملاحظاته. كان منسجمًا مع تفاصيلها إلى حدٍّ كبير، وشعر بأنّه يستطيع محاكاة هذه المسرحيّة التي تتحدّث عن مطعمٍ صيني في هونغ كونغ، يقدّم وجبة مخّ لقردٍ حيّ، يوضَع تحت طاولةٍ بفتحةٍ دائرية، فيخرج رأس القرد من هذه الفتحة كما لو أنّه طبقٌ فوق الطاولة. تبدأ المسرحيّة بدخول زوجٍ وزوجة إلى المطعم، قادمَين من أميركا إلى هونغ كونغ لأجل السياحة وقضاء شهر العسل. كان الزوج قد وعد زوجته بتناول هذه الوجبة الغريبة تعبيرًا عن حبّه لها، ولأجل قضاء وقتٍ ممتعٍ في هذه التجربة التي يحبّها الأغنياء. يُرحّب النادل بهما، يجلسان استعدادًا لذلك، ويدور حوارٌ حول هذه التجربة ريثما يحلق عامل المطبخ رأس القرد الحيّ في المطبخ، ثمّ يربطه ويُثبّته تحت الطاولة، ويفتح جمجمته ليكون مخّه أمامهما. ثمّة شاعرٌ هزيلٌ وحزين يجلس في زاوية المطعم، يبدو البؤس عليه، ويدور حديثٌ سريع بين الزوج والنادل حوله ريثما تأتي الوجبة، فيخبره

النادل عن بؤس الشاعر وعن ظروفه التعيسة. في هذه الأثناء، يعلم النادل أنّ القرد هرب من نافذة المطبخ من بين يدَي الحلّاق الذي كان يحلق رأسه، يشعر بالحرج منهما لحدوث ذلك، يمتعض الزوج وتستاء الزوجة، فالزوج قد وعدها بهذه الوجبة، وجاء بها إلى هونغ كونغ لأجل هذا، وهروب القرد جاء بمثابة صدمةٍ للزوجة التي كانت مُتلهِّفةً لهذه التجربة التي تزيدها شعورًا بترفها. وعلى أثر هروب القرد يبدأ التفاوض ما بين الزوجين وبين الشاعر الفقير وونك لتقديم مخّه كوجبة لهما بدلًا من مخّ القرد الهارب، مقابل منحه الكثير من المال لإرساله إلى أسرته الفقيرة.

هكذا هي أحداث مسرحيّة «مطعم القردة الحيّة» التي أراد بديع محاكاتها بنصٍّ آخر يستخلصه منها، فهو يشعر بأنّ ثمّة شبهًا بينه وبين الشاعر وونك، كلاهما موهوب، ومرّ بذات الحال.

المحاكاة التي أراد بديع العمل عليها في إعداد هذا النصّ تدور حول رجلٍ ثريّ وصاحب نفوذ، له ابنةٌ مدلّلة تدعو زميلًا لها في الجامعة إلى حفلة عيد ميلادها، وزميلها هذا ممثّلٌ موهوب لكنّه مغمورٌ مثل الشاعر وونك، وبعد انتهاء سهرة حفلة عيد ميلادها، يقرّر جميع أصدقاء وصديقات الابنة الذهاب، فيطلب الأب من هذا الممثّل أن يبقى معهما، وهنا تبدأ الخديعة. يطلبان منه تأدية بعض المشاهد وتقليد بعض الأصوات لجعل ابنته تضحك كهديّةٍ منه في عيد ميلادها، مقابل دعمه لأخذ فرصته في مشوار المسرح، لكنّ النهاية تكون صادمةً وغير متوقّعة لما أراده الأب في هذه الحفلة.

هذا ما كان يدور في رأس بديع وهو جالس في بوتيك «الزمن الجميل». كان مستعدًّا لفعل أيّ شيءٍ لأجل أن يرمّم ذاكرته من ذلك العضو الذي رفض دخوله «المعهد العالي للفنون المسرحيّة». حقده هذا بات رفيقًا له، وصار معتادًا عليه، كدافعٍ له لأجل القيام بإعداد ومحاكاة هذه المسرحيّة التي لا تخلو من العنف.

في الحروب تنتقل القسوة إلى المدنيّين بالعدوى، فيستشرس الناس في ما بينهم، ويتفاقم شعور الساديّة لدى بعضهم، وتصبح المواقف كما لو أنّها مدفوعة بالمازوخيّة على أثر ضياع أحلامهم الشخصيّة، وتبلغ الواقعيّة ذروتها حين يتمنّى المرء أنْ يُصبح الجميع فخّارًا يُكسّر بعضه بعضًا، وهذا يحدث في قرارة نفس البعض منهم، حتى وإن كانت هذه الأمنية بمثابة خيانةٍ للجهة التي يقف معها ضدّ الجهة الأخرى، فالنفس البشريّة ذات نزوة وتطرّف وغرابة، والعادة السرّية من أصغر أسرارها. قد تعيش امرأةٌ حياةً كاملة مع رجلٍ لا تحبّه دون أن يعلم ذلك، لقد بلغت الأخلاق شكلًا متّفقًا عليه، والحقيقة تكمن في ما عدا ذلك، كما لو أنّ المرء محكومٌ عليه بأسرارٍ تكون رفيقةً له لحظة دفنه تحت التراب، فالإنسان وُلد غريبًا، وسيموت غريبًا، والحياة التي يحياها ما هي إلّا ركامٌ هائل من اللغة التي نطق بها واللغة التي استمع إليها، وتلك الوحشة التي ما توقّفت بدافع رغبته في اللعب حتى على صعيد قبلةٍ تؤنس له عينيه المغمضتين لحظة حدوثها.

حين تتمدّد علياء على سريرها تتجمّع اللاذقيّة مثل حزمة نورٍ وتتدفّق إلى نافذة غرفة نومها، وتصير أغصان شجرة الزنزلخت أكثر ليونة، يبدو باب غرفتها المُغلق كما لو أنّه حارسٌ بريطاني مهيب دون حراك. وحين تتلامس ساقاها يبدو الأمر كما لو أنّ ثمّة شرارةً خرجت من بينهما، أمّا صدرها فكان وديعًا وهادئًا يغفو تحت قميصها المفتوح الصدر، كما يغفو بساط حلبة المصارعة تحت وسادتها. أخرجت البساط وفتحته، نظرتْ إليه مليًّا، ثمّ تغطّت به، وراحت تفكّر في لوكاس الذي حضر أمامها بكلّ تجرّد. رأت فيه حجم المتاهة الواقع فيها لحظة وقوفه عند باب البيت، وغاب عن ذهنها أن تخبره أنّ أهمّ الأحاديث لدى العرب هي تلك الأحاديث التي تحدث عند باب البيت لحظة الدخول أو لحظة الخروج. كان عليها أن تخبره بذلك حين أخبرها عن إحدى عادات العرب المتعلّقة بعدم ترك الضيف واقفًا عند باب البيت، كانت ستفعل ذلك، لكنّها تردّدت بعض الشيء لأنّها شعرت بأنّ وقوفه عند الباب سيمنحها فرصةً لتكثيف كلامه والبوح بما لديه، وهو شعر كذلك بأنّ عدم دخوله سيمنحه رغبةً مضاعفة للقائها من جديد، على مبدأ الشطرنج الذي أخبرها عنه.

ربّما هو ليس حبًّا، ولكنْ ثمّة رغبةٌ في دقّات القلب، وخوض فنون التمويه والاختباء من تشابه الأيّام المفترسة التي أرخت ظلالها على أنحاء البلاد. وما تشعر به علياء هو ذات الشعور الذي انتاب لوكاس، ففي بعض الأحيان تتساوى وحشة السجين مع السجّان، وتتساوى متاهة امرأةٍ وُلدت في اللاذقيّة مع متاهة ضابطٍ وُلدَ في موسكو الشامخة بالكرملين. والمشاعر التي تأتي بدافع وحدة الحال تبدأ بهدأة احتضانٍ إنساني، وبخطوات رفاق الدرب، وتأخذ وقفةً للحبّ، وبعد ذلك كلّ شيءٍ يستقرّ في الذاكرة، وقد تأتي غريزة الرغبات بأوّل نظرة، وقد تبقى عالقةً لأطول وقتٍ ممكن كما لو أنّهما يلعبان معًا، وكلّ واحدٍ منهما مطمئنّ للمشاعر التي تنتاب الآخر، إلى أن تأتي لحظة اقتراب العيون بعضها من بعض، فيغرق كلّ واحدٍ منهما في جسد الآخر، وتتشابك اللغة الروسيّة باللغة العربيّة وتسقط منهما اللغة الإنكليزيّة. ففي لحظة ممارسة الحبّ تصبح اللغة الأمّ حاضرةً لدى كلٍّ منهما، كما لو أنّها لهاثُ كلماتٍ وعبارات تطحن شغفهما المتراكم، وبعد ذلك يجلسان ليعلّمها شيئًا من الشطرنج، ولتعلّمه شيئًا من عجن الكلام.

في هذا الوقت، كان أبو رواد جالسًا في غرفته دون حراك، وكانت الحيرة جالسةً معه، فقد أخبرته ابنته أنّها حجزت له تذكرةً إلى دبي، وأنّ أحفاده يودّون رؤيته، وأنّها مشتاقةٌ إليه. علمت من علياء حجم الكآبة التي يمرّ بها، وحدثت مشاجرةٌ كلاميّة بينهما عبر الهاتف، إذ اتّهمتْ علياء بأنّها غير مكترثةٍ لوضع أبيها، وبأنّ عليها الاهتمام به. لم ترغب علياء في الدفاع عن نفسها أمام اتّهامات أختها، وفي ذات الوقت لا تعرف ما إن كان أبوها اشتكى من شيءٍ لها. وأكثر ما جرح علياء تلك العبارة التي قالتها أختها في ما يتعلق بالمال الذي سبق أن أرسلته لهما، كما لو أنّها أرادت التلميح إلى أنّها تقوم بواجبها على أكمل وجه، بينما علياء لا تقوم بذلك على صعيد الاهتمام بوالدها كما ينبغي.

أبو رواد لا يعرف ماذا عليه أن يفعل أمام الأمر الواقع الذي وضعته ابنته أمامه، فقد قامت بترتيبات السفر وحجز التذكرة، ولم يبقَ أمامه سوى عدّة أيّامٍ للرحيل. يومًا بعد يوم يزداد توتّره، لا البقاء يشفيه، ولا الرحيل يغريه، لكنّه بات يشعر بأنّه سيغادر إلى دبي، وعلياء ليس لديها رأيٌ واضح في هذه المسألة، فهي مع ما قرّرته أختها، ومع ما يراه أبوها.

المكالمة الهاتفيّة التي دارت بين علياء وأختها جعلتها تشعر بأنّ الذين غادروا البلاد أصبحوا أكثر عدوانيّةً وأقلّ رقّة. أخذتهم عجلة الحياة اليوميّة في البلدان التي استقرّوا فيها، فلا هم استطاعوا نسيان الماضي، ولا هم استطاعوا بناء ذاكرةٍ جديدة لأنفسهم، وحين يتحدّثون في ما بينهم فإنّهم يتحدثون عن حنين البلاد، وحين يتحدّثون مع من هم في البلاد فإنّهم يتحدّثون عن أمجاد تلك البلدان التي استقرّوا فيها، ويضربون الأمثلة والمقارنات ما بينهما. هذا التخبّط الذي يمرّون به سيبقى رفيقًا لهم أينما رحلوا، فمن ذاق طعم الفصول الأربعة الواضحة المعالم، ومن حظي بتدوين اسمه في دفاتر ديون الدكاكين، ومن طرق باب جاره ليستعير منه مفكًّا للبراغي أو ليأخذ ملعقةً من الملح، ليس بمقدوره النسيان مهما بلغت البلاد من قبحٍ ومن بشاعة، فالقبح في بعض الأحيان سمةٌ من سمات الذاكرة والحنين، ما لم تُمَسّ كرامة الإنسان بسوء.

طرقت علياء باب غرفة أبيها، فتح لها الباب وبقي واقفًا أمامها، تبادلا النظرات وكان كلّ واحدٍ منهما عاجزًا عن الكلام، فهي لا تعرف الجانب المخفيّ منه وما يحتاج إليه، وهو لا يعرف ما تمرّ به أخيرًا، لكنّهما يعرفان جيّدًا أنّ هذا البيت لم يعد كما كان. ظلّ والدها وقتًا طويلًا يستمع إلى ذلك البرنامج الإذاعي الذي يتحدّث عن قصص الحبّ، وإلى أصوات الشباب والفتيات الذين يتحدّثون عن تجاربهم. فعل ذلك ليملأ المكان بتلك الأصوات عبر الأثير، وليشحذ سنوات عمره بشيءٍ من بصيص الأمل، فهو لم يزل يرفض مرور سنوات عمره بهذه السرعة، ما جعله يشعر بأنّه بات وحيدًا إلى هذا الحدّ. وفي الوقت نفسه، كذلك فعلت علياء حين جاءت بذلك البساط الإسباني الذي تمدّدت عليه، وتغطّت به، ولم تزل تضعه تحت وسادتها لتملأ المكان بشخصٍ يشاركها الغرفة.

قال لها:

– سأسافر.

قالت له:

– حبًّا بدبي أم هربًا من اللاذقيّة؟

قال:

– لا فرق، فالتعساء يحملون تعاستهم في حقائب سفرهم.

لم تستطع أن تضيف أيّ شيء، فالحالة التي هو عليها أعادتها إلى الحالة التي كان عليها رواد في أيّامه الأخيرة. كانت كلماته كهذه الكلمات، وكان وجهه كهذا الوجه، وفي الوقت نفسه، ذكّرها وقوفها

عند باب غرفة أبيها بالطريقة التي وقف بها لوكاس عند باب البيت، وهذا عائدٌ إلى قلّة الأحداث وضيق الدائرة التي باتت تجعل الأشياء يرتبط بعضها ببعض بيسرٍ شديد. ويومًا بعد يوم راحت الدائرة تزداد ضيقًا؛ سبق لفادي أن رحل، وكذلك أختها، وجوجو غادرت إلى العاصمة، وأبوها يستعدّ هو الآخر للرحيل، وبديع بات مشغولًا طوال الوقت بالبوتيك وبإعداد النصّ المسرحي الذي أخبرها عنه، ولم يعد أمامها سوى لوكاس الذي بدأ يأخذ حيّزًا من تفكيرها.

توقّفت سيّارة الملازم صفوان أمام كشك أبي ريحانة الذي كان مشغولًا بتحضير القهوة لشابّةٍ وشابّ في الخامسة والعشرين من عمريهما، ويبدو عليهما أنّهما في حالة حبّ. كان الشابّ يحرّك أوراق نبتة الريحان بيده ويقرّبها من وجه حبيبته لتشمّ الرائحة، فعلت ذلك ثمّ قبّلت باطن يده، وبدا أبو ريحانة سعيدًا بهما، ولم تكن زاوية النظر تتيح له رؤية سيّارة صفوان الذي كان ينظر إليه. لحظتها سمع صوت بوق السيّارة الذي أفسد على الحبيبين تلك النظرة التي تسبق لحظة تبادل قبلة، فشخصٌ مثل صفوان يُصاب بالأرق حين يرى حالة حبٍّ تحدث على مقربةٍ منه، ينتابه شعور بأنّه رقيبٌ على مشاعر الآخرين وأحاسيسهم، كما لو أنّه يفعل ذلك بدافع قانون الطوارئ الذي يتيح له فعل ما يشاء بحكم الظروف الحسّاسة التي تمرّ بها البلاد. لا يشعر بأيّ شعورٍ حين يكتفي بأداء واجبه المعتاد، لذلك يقوم بأشياء أخرى كي يحظى بشعور البهجة في قرارة نفسه، وكان يملك من الوقت ما يكفيه لفعل أيّ شيءٍ يمنحه الترف ليسدّ به شعوره البائس الذي يراه في وجهه كلّما وقف أمام المرآة. وما لا تعرفه علياء وكذلك لوكاس، أنّ كارمن حين كانت في الشاليه صفعته على وجهه حين تمادى معها بعض الشيء، وأخبرته أنّها ستخبر ابن خالتها لوكاس، إلى أن اعتذر منها، ووصل به الأمر إلى حدّ التوسّل، ولم يسبق له أن أقام علاقةً مع امرأةٍ بدافع حبٍّ منها، ومعظم علاقاته مبنيّةٌ على الشرّ الذي يستخدمه، إلى أن بات على درايةٍ تامّة بأنّه دميمٌ وكريهٌ إلى حدّ النفور.

ترك أبو ريحانة كلّ شيء، خرج إليه ووقف عند نافذة سيّارته من دون أن يلقي التحيّة التي لا أهمّية لها عند صفوان الذي يغريه صمت الآخر ووقوفه أمامه بهذه الهيئة أكثر من التحيّة، وكعادته سأله:

– هل الأمور على ما يُرام؟

أجاب أبو ريحانة:

– نعم.

ثمّ سأله:

– من هذه ومن هذا الذي معها؟

أجاب:

– من زبائن الكشك.

ثمّ أضاف:

– هما لطيفان.

قال صفوان:

– نحن من يقرّر لطفهما، واللطف ليس من شأننا، لا علاقة لنا به.

في هذه اللحظات تبادل صفوان والشابّ النظرات عن بعد، بينما تابع صفوان حديثه وهو لا يزال ينظر نحوهما:

– ماذا كانت تشمّ من يده؟

قال وقد ابتسم ابتسامة المودّة التي قد تتيح له التعبير عمّا قد تعجز عنه اللغة:

– أريج نبتة الريحان التي أضعها عند حافة النافذة.

هزّ صفوان رأسه مع إرخاء شفته السفلى، كما لو أنّه بكامل استرخائه في التعاطي مع اللغة التي تصبح كالدوائر في يد من يملك السلطة، ثمّ قال بنبرةٍ تشبه الكوابيس:

– هل تضع عليها مخدّرات؟

شعر أبو ريحانة بشيءٍ من الخوف الذي يسبق اللغة، ليجد أنّ الصمت للحظات أفضل من سرعة الردّ لنفي ما قاله، لكنّ صفوان لم يفسح له مجالًا للصمت، نظر إليه بعينين مفتوحتين وقال:

– أجب. لماذا تقف كالأبله.

قال أبو ريحانة كما لو أنّه يتلو تقريرًا شفهيًّا:

– إنّها نبتة ريحانٍ عاديّة، لا أضع عليها شيئًا، أصبحت جزءًا من الكشك، الزبائن يحبّونها، وأنا كذلك. إنّها آخر ما بقي من وجود ابنتي ريحانة، وجودها يؤنسني، وتستطيع أن تسألهما إن شئت.

العبارة الأخيرة راقت صفوان، كدائرةٍ جديدة جاءت على قدميها، طلب منه أن يأتيا إليه، وأن يخبرهما أنّه ضابطٌ في أمن الدولة. عرف الشابّ أنّ الحديث بدأ يدور حوله وحول التي معه، فالمرء عادةً تزداد حساسيّته حين تكون حبيبته معه، وينتابه شيءٌ من القلق حين تأتيهما نظراتٌ غريبة.

عاد أبو ريحانة إلى الكشك بعدما أخبرهما بأن يذهبا إلى سيّارة الملازم صفوان، ذهبا وتوقّفا عند نافذة سيّارته. الفطرة البشريّة تتشابه لدى الجميع في مواقف التوتّر، كذلك لم يلقيا التحيّة عليه مثلما فعل أبو ريحانة، سألهما عن اسميهما، وعمّا يفعلانه، ولم يسألهما عن نبتة الريحان التي امتطى اللغة من خلالها مع أبي ريحانة. نظر إلى الشابّ وسأله هل التحق بالجيش أم لا، وعن أوراقه الثبوتية، أجابه الشابّ بأنّه وحيدٌ ومعفًى من الخدمة، ولم يزل يكمل دراسته للحصول على الماجستير.

بعد ذلك نظر إلى الشابّة وسألها:

– هل كلّ شيء على ما يُرام؟

أجابته:

– نعم.

ثمّ راح صفوان يتحدّث عن البلاد، وعن أمن البلاد، وأنّ فرع أمن الدولة يعمل دومًا لتكون الأمور على ما يُرام.

بعد ذلك، أراد أن يُشعرهما بأنّ الضبّاط يملكون أفئدةً ومشاعر، برغم القسوة التي تبدو على ملامح وجوههم، وحدّثهما عن قوّة الحبّ، عن تلك المشاعر الدافئة التي تسعده رؤيتها بين العشّاق على الطرقات والمقاهي وشاطئ البحر.

لم يبتسم الشابّ لحديثه هذا، فيما حبيبته ابتسمت لكلامه. النساء أكثر براءةً حين يسمعنَ حديثًا حماسيًّا عن الحبّ، ففي اللحظات التي تحدّث فيها صفوان عن العشّاق أمسكت بيد حبيبها واقتربت منه، ومالت برأسها على كتفه، ابتسم صفوان لهما بوجهه، لكنّ عالمه الداخلي تلقّى صفعة دون أن يعلما بذلك، إذ لا شيء يمكنه أن يصفع الرتب العسكريّة مثلما يفعل الحبّ في وجه من يضعون تلك الرتب على أكتافهم.

5

في نهاية هذا الأسبوع جاء بديع والخضرجي وأبو ريحانة إلى منزل أبي رواد لتوديعه، وكانت علياء قد أعدّت طعام العشاء الأخير. كانت السهرة مزيجًا من مشاعر الوداع ومن الدعابات للتخفّف من وطأة ما يشعر به أبو رواد وابنته علياء. تحدّث الخضرجي عن فوائد السفر، وتحدّث بديع عن تجربته بالرحيل من بيت أبيه إلى هذا الحيّ، بينما كان لحديث أبي ريحانة طعمٌ آخر، كما لو أنّه كان يُلمّح إلى رحيل ابنته ريحانة، ذلك الرحيل الذي حدث دون وداعٍ ودون دراية.

وبعد ذلك راح بديع يتحدّث عن إحدى الأغنيات التي تدور كلماتها حول السفر والرحيل، ووجد أنّ الحديث عن الأغاني جاء في مكانه المناسب كي ينتهز الفرصة ليسألهم:

– هل سبق لبليغ حمدي أن زار اللاذقيّة في ما مضى؟

قال أبو ريحانة:

– لا أعرف.

ردّ الخضرجي بشيء من الحماسة:

– ما من فنّانٍ مشهور إلّا زار اللاذقيّة.

سأله بديع:

– متى حدث هذا؟

أجاب:

– لا أعرف على وجه الدقّة، لكن لا بدّ له أنّه زار اللاذقيّة.

قال عبارته هذه ثمّ نظر إلى أبي رواد مبتسمًا، كما لو أنّه يدعوه إلى الحديث عن اللاذقيّة.

استغلّت علياء وجودها في المطبخ لتذرف بعض دموع الوداع دون أن يراها أحد. كانت تحرّك الطعام على النار بملعقة الخشب كما لو أنّها تحرّك ذكرياتها مع أبيها، وسقطت إحدى دمعاتها في الوعاء البلاستيكي الذي كان يحتوي على الفتوش وهي تضع زيت الزيتون عليه. كان صوتها حاضرًا بين الحين والآخر ما بين المطبخ والصالون الذي كانوا يجلسون فيه، ولم ترغب في مساعدة بديع لها في المطبخ،

أرادت أن يبقى في الصالون دون أن يتوقّف عن الحديث، وأن يكون المطبخ من نصيبها لتجد فرصةً لذرف دموعها بعيدًا عن أعينهم، وتمنّت لو أنّ لوكاس كان حاضرًا معها دون أن يتفوّه بأيّ كلمة، فالغرباء يكفيهم الصمت في ما بينهم.

تاريخ البلدان يبدأ من السيرة الذاتيّة لكلّ أسرة، فما من أسرة إلّا نجد في مصائر أفرادها علاقة وطيدة بتاريخ البلد الذي ينتمي إليه هؤلاء الأفراد.

بعد مرور الأسبوع الأول على رحيل أبيها، بدت علياء كما لو أنّها مقطوعة من شجرة، تخرج إلى عملها في بعض الأحيان، وتمرّ من أمام محلّ الخضرجي دون رغبة في الوقوف، وحين تكون مضطرّةً إلى شراء بعض الأشياء فإنها تفعل ذلك على عجل. اعتذرت مرّتين من بديع عن عدم رغبتها في لقائه، فلم تكن لديها القدرة على الخوض في أيّ حديث، تجلس في البيت وتكتفي بالنظر إلى شجرة الزنزلخت من النافذة، ثمّ تدخل غرفتها التي علّقت فيها البساط الإسباني على الجدار الذي بجانب سريرها.

عندما يكون المرء في مطلع مراهقته فإنّه يتوق للبقاء وحده في البيت، وينتابه الكثير من السعادة حين تخرج العائلة لزيارة بيتٍ آخر ليومٍ أو يومين، وتصبح كافّة زوايا البيت ملكًا له، ويمارس تلك الطقوس التي لم يكن بمقدوره فعلها أثناء وجود أفراد أسرته، كأن يخرج من الحمّام عاريًا، أو يرفع صوت التلفاز كما يحلو له، ويتمدّد على الأريكة بطريقة ملتوية تاركًا مزاجه يتمدّد أكثر من جسده، وتنتابه رغبة عارمة في وجود شخصٍ ما معه. تلك الرغبة النابعة عن لذّة رؤية الآخر له وهو يتّخذ قرارًا كهذا، ويمنحه دلالةً على اصطفاء شخصٍ له دون غيره، ذلك الاصطفاء البريء سواء كان لصديق أو صديقة. وعندما يتقدّم به العمر، يجدُ نفسه وحيدًا بين جدرانٍ لم يعد لها ذات البريق في تلك السنوات الغابرة من مراهقته، وقد يملك فيلا، لكنّه لن يجد من يصطفيه.

تمدّدت على سريرها، وكانت تنظر في وجه الرجل ووجه الثور، وتساءلت في نفسها هل يستحقّ هذا اللعب ما بينهما الدماء التي قد تنزف من أحدهما. شعرت بأنّ سؤالها مجرّد لغوٍ لا معنى له، فالمرء غير معنيٍّ بألم الآخرين حين يبلغ ذروته، والتعاطف الذي يبدو عليه ويقوم به ما هو إلّا حالة تجسيدٍ لرفض الألم في حال وقوعه عليه في يومٍ من الأيّام. هذا ليس عارًا بشريًّا بقدر ما هو ألمٌ آخر يتعلّق بمصير البشرية مع الألم الذي لا يتوقّف في كلّ مكان. وراودها شعورٌ طفولي يتعلّق بالسيف الذي يحمله الرجل، إذ وجدت أنّه لا ضير لو كان من الخشب، فالفرسان نستطيع معرفتهم بمزحةٍ صغيرة، أو نظرةٍ خاطفة.

ثمّ انتابها يقينٌ بأنّ الثور الهائج بقرنه اللامع لم يكن يريد تمزيق قطعة القماش الأحمر، بقدر ما كانت الدماء التي في رأسه تدفعه إلى تمزيق صيحات الجمهور التي تريد رؤية دمائه وهي تسيل من خاصرته، وثمّة قسمٌ كبير من جمهور هذه الحلبة جاء لرؤية هذا المشهد كي يؤكّد لنفسه أنّ عدم التعاطف مع الألم حين يبلغ ذروته ليس عارًا بشريًّا.

أطالت علياء تأمّلاتها، وشعرت بأنّ الوحدة هي ما دفعها إلى ذلك، وانتبهت إلى أنّه سبق لها ممارسة رغبتها على هذا البساط. لقد فعلت ذلك معهما بسكينةٍ وسلام، ومن استطاعت الشعور برجلٍ إسباني على بساطٍ من قماش، تسطيع الشعور برجلٍ روسي جاءها مرّتين، مرةً ليشكرها، ومرّةً ليقف عند بابها كما لو أنّه جاء لتقديم الولاء بين يديها.

وقفت أمام البساط المعلق، كان رأسها بمستوى مركزه، منحت الثور قبلةً عند قرنه، وقبلة ثانية للرجل عند يده التي تمسك بقطعة القماش الحمراء. فعلت ذلك وهي تبتسم، كما لو أنّهما من أفراد غرفتها، دون انحياز لأحدهما على الآخر، ثمّ مرّرت يدها على وبر البساط الناعم، كما لو أنّها تداعب فراء دبٍّ معلّقًا على الجدار، وبعد ذلك خرجت إلى الصالون لتشرب المتّة، انقطع التيّار الكهربائي، ثمّ أشعلت شمعة، وشعرت بأنّ ثمّة لحظاتٍ تعتري المرء دون أن يعرف من أين جاءته، تلك اللحظات التي تجعله جزءًا من المكان دون فارقٍ بينه وبين أيّ شيءٍ يحيط به من أثاثٍ وسقف وجدران، مكتفيًا بسماع دقّات قلبه، والنبض الذي عند عنقه، شعورٌ طافح بشيءٍ من العدم السعيد، يختفي التفكير، وتنجلي المشاعر، ويسود هدوءٌ قادر على إشعال شمعةٍ أخرى.

كان لوكاس يتناول الطعام مع أحد رفاقه، وقد دار نقاش بينهما حول الرادارات، والأخطاء التي قد تحدث برغم التطوّرات التي وصلت إليها، جاء هذا النقاش على أثر حديثهما عن السلاح الجوّي للأتراك، وعن رأي كلٍّ منهما في حلف الناتو.

بعد ذلك عاد لوكاس إلى غرفته تاركًا كلّ دول حلف الناتو خلف ظهره، واضعًا اللاذقيّة بين يديه بعدما جلس إلى طاولته، وقال في نفسه إنّ الأخطاء التي ترتكبها الرادارات من الصعب أن يرتكبها القلب. طوال الوقت يخبره قلبه أنّ علياء تفكّر فيه، ثمّة ذبذباتٌ عبر الأثير ما بين اللاذقيّة وقاعدة حميميم، ولم يزل وجهها العالي المقام حاضرًا بين عينيه اللتين يزداد بريقهما كلّما مرّ اسم علياء في نفسه، ويصبح دمه أكثر نقاءً داخل أوردته.

حصل على إجازة صحّية لمدّة شهرٍ بعدما أصيب بالتهابٍ حادّ في الأذن الوسطى. لم يكن بمقدوره الخروج إلى اللاذقيّة في الفترة الأخيرة، وكان يكتفي بالتفكير فيها، يروقه هذا، ورغم أنّه لا يجيد كتابة الشعر حاول ذلك، فقد كتب قصيدتين باللغة الروسية، واحدة عنها، والثانية عن اللاذقيّة.

لم يشعر بهذا الوهج منذ كان يذهب إلى نادي الشطرنج، كان آنذاك توّاقًا لتلك الاحتمالات التي أمامه على رقعة الشطرنج، وتلك الحالات التي تفرض نفسها في مجريات اللعبة، وأكثر ما كان يغريه الحركات التي تجعل الطرف الآخر يعيد التفكير في ما يقوم به، كما لو أنّه هو من يحدّد إيقاع الرقعة. وتبقى النهايات ذات شأنٍ آخر، هو الذي لا يجيد النهايات كما أخبره ديمتري في ما مضى.

من غير الممكن أن تترك امرأةٌ هذا الأثر من خلال لقاءين قصيرين ما لم يكن لها شأنٌ كبير في حال حدوث لقاءين طويلين، واحد للأحاديث، والآخر للرغبات، وما بعدهما للاستسلام لها عن قناعة، وعن

إيمانٍ لا يزول. حين يقع المرء في حبّ امرأة، يشعر بأنّها هي التي يستطيع من خلالها اختصار وتكثيف سيرته الذاتيّة، والتخلّص من تلك الأعباء والأحداث التي تبدو زائدةً ولا مكان لها، ويبدو كما لو أنّه عقد صفقة تصالحٍ مع القدر؛ الصفح والسماح عن كلّ تلك الأحداث الزائدة دون معنى، مقابل هذه المرأة دون سواها.

أمسك القلم وراح يمرّره على الورقة البيضاء التي أمامه، لم يكن يكتب، كان يحدّث نفسه بخطوطٍ ودوائر ونجوم ومربّعات وتعرّجات. بعد ذلك ملأ الدوائر والمربّعات بتقاطعاتٍ صغيرة، ولا يمكن لأيّ كاهنٍ أو عالم أن يفكّ شيفرة ما كان يفكّر فيه من خلال ما كان يقوم به على الورقة. سرح في محطّات حياته خلال دقائق قليلة، لينتهي به المطاف عند علياء (زاوج أبيه وأمّه، ولادته، نادي الشطرنج، موت أبيه، ديمتري، سلاح الطيران، قدومه إلى قاعدة حميميم، موت أمّه، ابنة خالته كارمن، البورتريه، صفوان، ومن ثمّ علياء)، وهمس في نفسه:

– ودومًا علياء.

قال ذلك ثمّ رمى القلم على الورقة التي بدت كما لو أنّها سيرته الذاتيّة.

كانت الساعة التاسعة صباحًا عندما فتح بديع باب البوتيك. أعدّ قهوته ثمّ جلس وراء الطاولة عند باب البوتيك، أشعل سيجارة، ونظر إلى الشارع من خلال زجاج الواجهة، في هذه اللحظات، فجأةً دخل أبوه عليه، لم يكن يتوقّع حدوث هذا، فهو لا يعرف عنه أيّ شيء، والعلاقة بينهما ليست على ما يُرام، وقد خرج من بيت العائلة وانتهى كلّ شيء.

وقف بديع احترامًا له، ولكنّه لم يمنحه ذلك الاحترام الذي يحدث في نظرة العينين. بقي واقفًا منتظرًا أن يتفوّه أبوه بكلمةٍ أو عبارة ليعرف كيف سيكون إيقاع وفحوى الحديث الذي جاء لأجله، في المقابل بقي أبوه صامتًا مكتفيًا ببعض النظرات في تفاصيل وزوايا البوتيك، هزّ رأسه ثمّ قال:

– أخبروني أنّك بدأت تعمل هنا.

بقي بديع صامتًا، مع أنّ كلمة «أخبروني» تثير الفضول داخل من يسمعها، لمعرفة من هم هؤلاء الذين أخبروه، ولكنّها تبقى كلمةً عابرة يستخدمها البعض في بداية الأحاديث التي ستكون ذات شجونٍ ومشاحنات. لطالما كانت العلاقة قائمةً بينهما على هذا النحو، وليس غريبًا أن يكون أبوه اشتاق إلى مثل ذلك الجدل الدائم، وتلك المهاترات المستمرّة بينهما.

جلس الأب على الكرسيّ وراح يتحدّث عن أمنياته له بالتوفيق، وعن سعادته بأنّه وجد فرصة عمل، كان بديع يهزّ رأسه بطريقةٍ أتوماتيكيّة، إلى أن عدّل الأب من وضعيّة جلوسه وصمت قليلًا ثمّ راح ينصحه بنبرةٍ جادّة حول قداسة أمكنة العمل، وبأنّ عليه أن يكون حذرًا من مواعدة امرأةٍ ما داخل هذا المكان، فالأمكنة التي تكون فيها الرذيلة أمكنة غير مباركة، وما هي إلّا لحظات قليلة حتّى تحوّلت تلك النبرة من نبرة نصحٍ وموعظة إلى نبرة تقريعٍ وتذكيرٍ بما قام به مع تلك المرأة التي واعدها في المطعم.

لم يحتمل بديع نبرة أبيه عند الصباح الذي كان يودّ فيه أن يشرب قهوته بسلام، فردّ عليه بالمقابل بذات النبرة، وأخبره أنّه كان الأجدر به أن يختار توقيتًا غير توقيت الصباح، وأنّه طوال حياته لم يكن يفرّق بين أحاديث الصباح وأحاديث المساء، ثمّ ذكّره ببعض الأمثلة التي لم تزل في ذاكرته، فضرب له مثالًا من أيّام طفولته عن واقعة تحدّث فيها على طعام الإفطار، ومثالًا من أيّام المراهقة عن واقعة تحدّث فيها على طعام العشاء، ولم تكن لدى بديع مشكلةٌ في حديث أبيه عن تلك الوقائع، ولكنّه كان يشكو من عدم معرفة أبيه باختيار الأوقات المناسبة لكلّ حديث.

وبينما كان بديع يتحدّث بهذه النبرة، كان أبوه يهزّ رأسه بطريقةٍ أوتوماتيكيّة، لا أحد منهما يستطيع معرفة من الذي تأثّر بالآخر في ما يتعلّق بهزّ الرأس بهذه الطريقة عبر السنوات السابقة في ما بينهما.

اشتاقا إلى حالة الجدل هذه، فكلٌّ منهما بات مدمنًا عليها مع الآخر، دون اعترافٍ معلن، ودون علم الآخر بها. ثمّة أشياء يمكن للنفس معرفتها، والشعور بها، لكنّ صاحبها قد يغفل عنها وعن معطياتها، فالعدوانية في بعض الأحيان تكون أحد أشكال الحبّ، واللطف أحيانًا يكون أحد أشكال الأسر والامتلاك.

دام الصمت قليلًا، ثمّ وقف وراح يمشي بخطواتٍ بطيئة بين القضبان التي عُلّقَت عليها الثياب، وقعت عيناه على جاكيت بمربّعاتٍ ملوّنة، ثمّ سأل بديع بنبرةٍ عاديّة، كأنّ شيئًا لم يكن منذ لحظات:

– سوف أشتري هذه الجاكيت لأختك، تبدو جيّدة.

قال بديع وكأنّ شيئًا لم يكن:

– نعم، وأظنّ أنّها على مقاسها.

اتّفقا على ذلك، ثمّ طواها بديع ووضعها له في كيسٍ من الورق، أخذه أبوه وتبادلا نظراتٍ تتعلّق بدفع ثمنه، مال الأب برأسه ثمّ قال:

– في المرّة الماضية أتيت إلى المطعم وأحرجتني وأخذت منّي نقودًا، هذه بتلك.

قال بديع:

– حسنًا.

وبينما كان يستعدّ للخروج قال له:

– ضع نصائحي حلقًا في أذنك.

ردّ بديع:

– نصائحك تحتاج إلى سلاسل من الحديد لتحمّلها.

غادر البوتيك قائلًا له:

– يا لك من ولدٍ عاقّ.

وما إن خرج أبوه، حتّى دخلت السيّدة تهاني مع ابنتها لارا، كانت هذه المرّة الأولى التي تأتي فيها لارا إلى البوتيك منذ أن بدأ يعمل فيه بديع، وبدت أنيقةً وذات وجهٍ حسن. شعر بأنّ الصباحات عادلة، تهدم

من جهة، وترمّم من جهةٍ أخرى.

عند حدوث الكوارث الطبيعية أو الحروب، يكتشف الناس أنّ ثمّة نسخةً ثانية من كلّ واحد منهم، وثمّة جوانب أخرى للحياة، يتشابه البشر أكثر من أيّ وقت مضى، فهم عادةً لديهم رغبةٌ شبه غامضة في الانتماءات الجماعيّة إلى مصيرٍ حتمي يجمع في ما بينهم، حتى الفناء الجماعي يبدو لهم أخفَّ وطأةً من أن يفنى المرء دون غيره. هذا يحدثُ حتّى على صعيد انقطاع التيّار الكهربائي عن المدينة كاملةً بدون استثناء لأيّ حيٍّ من الأحياء، وكذلك في ما يتعلق بظروف العيش التعيسة في البلاد. فحين ينعدم الرخاء والسلام، ويصبح وجودهما مستحيلًا، يتوق المرء إلى ذلك الخراب الذي يُحقّق شيئًا من العدالة التي يتساوى بها الجميع، ويتوق إلى هذا الانتماء الجماعي المكبوت كما لو أنّه واحدٌ من جمهور حلبة مصارعة الثيران، يُصفّق ويهتف للثور تارةً، ويصفّق ويهتف لذلك الرجل الذي قد يغرز السيف في خاصرة الثورة تارةً أخرى، الأمر نفسه، ما دام التصفيق والهتاف يؤنسان وحدته وسط الجمهور الذي يصبح بمثابة الرفيق. ثمّة جانبٌ حيواني في الغريزة لدى البشر، ليس بوسعهم التنصّل منه، ويبدو جليًّا حين تكون البلاد في حالٍ كهذه، ولا يوجد تمرّد يعلو على تمرّد الفرد على الأخلاق ودهسها بقدميه حين تصبح الأخلاق في الدرك الأسفل ممّا يحيط به. هذا بحدّ ذاته يمنحه شعورًا حماسيًّا مريحًا ويقينًا تامًّا بأنّ موقفه هذا حالة انتقام لشعوره الدفين بتلك الوحدة التي فتكت به طوال الوقت السابق.

وأخيرًا أدرك الملازم صفوان أنّ لوكاس واقعٌ في حبّ علياء، كان ذلك ثقيلًا على نفسه، ولو لم يكن لوكاس أحدّ ضبّاط دولةٍ عظمى مثل روسيا لكان له موقفٌ آخر. انتابه شعور بأنّ ضبّاط الدول مقامات، وسرت في نفسه شحنةٌ عارمة من الكراهية للوكاس، ومن الحقد البغيض لعلياء.

عرف ذلك حين التقى به وطلب منه أن يرسل أحدًا لتنظيف وترتيب الفيلا التي في مدينة صلنفة، فلقد قرّر أن يتلقي بعلياء فيها.

كانت علياء جالسةً في مقهى «زهرة عبّاد الشمس». من النادر أن تأتي لتكتفي بشرب قهوتها مثل هذه المرّة، فهذا المكان بالنسبة إليها مكانٌ للعمل أو المواعيد. طلبت قهوتها من سوسن التي رحّبت بها، وسألتها عن بديع، فأخبرتها عن تسلّمه بوتيكًا للثياب، راقت الفكرة سوسن وقرّرت أن تذهب إليه لرؤية الثياب وشراء ما يناسبها إن أعجبها شيءٌ منها.

شعرت علياء بأنّ الحياة تدور، وأنّه لا يمكنها أن تتوقّف، وأنّ ما يحدث في أيّام الرخاء، يحدث أيضًا في أيّام التعاسة، وأنّ الإنسان خُلق ليكون شاهدًا على الحياة، لا أن تكون الحياة شاهدةً عليه. لقد هرمت الحياة ولم يعد بمقدورها رؤية أحدٍ لتشهد عليه، فيما الإنسان وإن بدا ميتًا فكلّه عيون. انتابها هذا الشعور حين لاحظت حبّ سوسن للموسيقى في المرّة الماضية، وحين رأت رغبتها للتوّ في الذهاب لرؤية الثياب في البوتيك، وربّما لرؤية بديع بحدّ ذاته.

استمتعت بوقتها، فقد كانت القهوة لذيذة، وكان هواء المقهى نقيًّا لعدم قدوم صفوان المفاجئ كما يفعل في بعض الأحيان، ولكنّ ما أفسد عليها الحالة، كان سماعها أحدهم يقول لصديقته:

– أنتِ تعلمين بأنّني مزاجيٌّ في هذه المسألة.

تذكّرت أباها، وتمنّتْ لو كان موجودًا لتلعب معه لعبة عجن الكلام، وليتحدّثا عن الأمور التي جعلت هذا الصديق مزاجيًا مع صديقته، والتخمينات التي تدور حول ما قصده بعبارته هذه، ومن جهةٍ ثانية لم تكن لدى علياء الرغبة في أن تلعبها مع نفسها في غياب أبيها.

قبل وصولها إلى البيت بقليل، عند زاوية الشارع، كانت هناك سيّارة مركونة، وما إن وصلت بمحاذاتها حتّى أخرج أحدهم يده من النافذة ليصافح يدها بحركةٍ لا تخلو من اللعب. لقد كان ينتظرها، ويراقب مرآة السيّارة حتّى تأتي، انحنت قليلًا، ونظرت فكان لوكاس.

صافحته، ثمّ وضعت يديها على حافة النافذة وأسندت ذقنها فوقهما. تبادلا النظرات بصمتٍ سعيد، فبدا وجهها ضمن إطار النافذة كأنّه لوحةٌ أو صورة لغلاف مجلّة، بينما بدا وجهه وهو خلف المقود كما لو أنّه الفائز بالفورمولا وان، وقد توقّف لأخذ هذه النظرات حيث كانت تنتظره عند خطّ النهاية، ولم تكن تعرف ماذا عليها أن تفعل في هذه اللحظة، كلّ ما تعرفه أنّ هذا الرجل لم يرفّ له جفنٌ وهو يتفحّص خطوط يديها ومحيط وجهها بعينين غارقتين بها. بدت اللحظات كما لو أنّها حبيبا تٌ فيزيائيّة تدور بينهما، فتلامس البلعوم وأطراف الشفاه، وتكوّمت اللاذقيّة وموسكو داخل هذه السيّارة، وتاريخ كلٍّ منهما تكثّف ليمتزجا معًا من دون شوائب.

انتظرت ليطلب منها الصعود إلى السيّارة ويأخذها حيث يريد، وانتظر لتطلب منه النزول وتمسك بيده لتأخذه إلى بيتها متجاوزًا ذلك الباب الذي أحبّه وأحبّ الوقوف عنده كما لو أنّه وقف بمحرابٍ للموسيقى والأناشيد. وفي الوقت ذاته كان لدى كلّ منهما رغبةٌ في البقاء وهما يتبادلان النظر، فالنظرات لا تدوم إلى هذا الحدّ ما لم تسبقها خيالاتٌ وفضاءات على قدرٍ كبير.

ما يحدث بين علياء ولوكاس بمثابة أجوبة لأسئلة لم يطرحها أحدٌ على الآخر. كلٌّ منهما ازداد يقينًا بأنّه كان على موعدٍ مع الآخر. ومثلما يوجد فقدانٌ للذاكرة، ثمّة ما يشبه بداية الذاكرة، حتّى زاوية الشارع صار بوسعها أن تصبح حديقةً صغيرة للحيّ.

جلس لوكاس في الصالون، بينما دخلت علياء المطبخ لتحضير القهوة التركية، ثمّ خرجت وبيدها صينيّةٌ صغيرة عليها ركوة القهوة وفنجانان أبيضان وكأس من الماء. وضعت الصينيّة على الطاولة التي بينهما، ثم سكبت له القهوة في فنجانه، أخذ منها الركوة وسكب لها القهوة في فنجانها بهدوء ونظر إليها ونظرت إليه، شعرت بشيءٍ تغلغل في مسامّها، فرغم أنّ سكبه للقهوة لم يأخذ سوى لحظاتٍ قليلة، فإنّ اللحظات تصبح كأجراس كنيسة داخل رجلٍ وامرأةٍ يجلسان متجاورين والصمت ثالثهما. كانت ظلال القبلة الأولى تحوم في زوايا المكان، وتنشر عبيرها من حولهما، وأكثر ما يربك المرء في القبلة الأولى تلك

الهواجس التي تسبقها، يصبح الزمن على طبقٍ من قلق، ويختلّ توازن اللغة في حضرة ما ترمي إليه العيون، وتصبح حركات كلٍّ منهما كما لو أنّها بروتوكول لامتصاص الوقت. وما قد يفسد شيئًا في القبلة الأولى هو تلك المفارقة ما بين رغبة أحدهما في أن تكون هادئة، ورغبة الآخر في أن تكون صاخبةً وماجنة. هذا ما لا يمكن الاتّفاق عليه في قرارة نفس كلٍّ منهما، وأكثر ما قد يجرح هذه القبلة هو الخطأ الذي يتعلّق بزمنها المرهون بتلك الشفاه. فالقبلة الأولى أكثر حساسيّةً ورهافة من كلّ ما قد يليها من رغبات الجسد، وهي الشيء الوحيد الذي يبقى في الذكرة دون أن ينتاب المرء شعورٌ بالندم عليها مهما ساءت العلاقة في ما بعد، كما لو أنّها البراءة الوحيدة لشيءٍ بقي في مكانته العالية دون المساس به. كلّ التفاصيل التي تحدث بين رجلٍ وامرأة يمكن تأويلها وعجنها كيفما تريده اللغة لإدانة الطرف الآخر، إلّا القبلة، تبقى بمنأى عن وصول اللغة إليها، والعبث بتاريخها المجيد، فالقبلة قبلة، شفاهٌ تلاقت ببصمة دامغةٍ كبصمة إصبع الإبهام على الأوراق الثبوتيّة.

انتهت قهوتهما برفقة عباراتٍ قصيرة عن سيرته الذاتيّة البسيطة كما لو أنّه قدّم لها تلك الورقة التي كان يلهو بها برأس القلم، وكان بودّه أن يختم حديثه مثلما قال لحظتها «ودومًا علياء» لكنّه شعر بأنّ هذه العبارة كانت بينه وبين نفسه في حينها. كذلك حدّثته علياء عن نفسها كما لو أنّها كانت تقرأ في قعر الفنجان الذي بيدها، وكان بودّها أن تختم حديثها بشيءٍ ممّا انتابها نحوه حين أسندت رأسها إلى البساط المعلّق وراحت تفكّر فيه.

سألته:

– أتأكل؟

قال:

– لستُ جائعًا.

ثمّ سألها:

– أترغبين في الذهاب إلى صلنفة؟

قالت:

– متى؟

قال:

– الآن.

قالت:

– لا، ربّما في وقت آخر.

امرأةٌ لم يبقَ من أفراد أسرتها في هذا البيت سواها، ورجلٌ بات يتيمًا، يجلس أحدهما بجوار الآخر، وقد خيّم المساء، وكلّ واحدٍ منهما طافحٌ بالآخر. لحظةً بعد لحظة بدأ يقلّ الكلام، وتتكاثر النظرات، إلى

أن وقفت علياء أمام لوكاس، لامست ركبتاها ركبتيه، ومالت بجذعها إلى أن صارت بحضنه ويده تحيط بكتفيها، وتشابكت يده الثانية بيدها، وتلاصق وجهاهما جانبًا، وكانت العيون شبه مغمضة، فلن تلتقي الشفاه ما لم تنطلق لحظة البدء من أنفاسهما ومن اعتصار أصابع يديهما. بقي الهدوء رفيقًا لهذا التناغم، وهذا التداخل، إلى أن انفكّت أصابع يديهما المتشابكة، واستدار الوجهان وتلاصقت الشفاه، وراحت يده تعجن نهديها اللذين صعدا بنفسيهما إلى منزلةٍ عالية، وكذلك راحت يدها تلامس قرن ثوره الهائج وتدلّك مرتفعاته. كان كلّ واحدٍ منهما يمنح الأوكسجين للآخر بتلك القبلة الطويلة التي تلتها عدّة قبلاتٍ متلاحقة وعلى إيقاع واحد، وبعد ذلك أفسحت له تلك الزواية لينهل من رقبتها، بينما راحت تشمّ شعر رأسه وتفركه بأصابعها. قالت كلمات بالعربية، وقال كلمات بالروسية وأمطر كلٌّ منهما الآخر بتنهّداته، إلى أن أخذته من يده إلى غرفتها على عجل. خلع ثيابه بسرعة، بينما أنزلت البساط من الجدار وفرشته على الأرض ثمّ خلعت ما بقي من ثيابها، تمدّدت عليه وتمدّد بجانبها، وكانت تعتصر وبر البساط بيدها، وبيدها الثانية تعتصر ما تجده من جسد لوكاس الغارق فيها. طالبته بالمزيد وهي تتحدّث العربية، وحدّثها بكلماتٍ نابية باللغة الروسيّة من وحي هذيانه بها وبهذا البساط الذي راقه ما دام يروقها، وقد شاركها نظراتها الخاطفة إلى تفاصيله. تبادلا النظرات وكلٌّ منهما يعجن الآخر، وقبيل وصولهما إلى الذروة انقلبا وقد ازداد الغبار في حلبة المصارعة التي على البساط، وعلت صيحات الجمهور، وكانت علياء كما لو أنّها تنطح القماشة الحمراء برأسها، ليغرس لوكاس سيفه في خاصرتها، وفي كلّ ما يحلو لهما، ولتميل عليه بعينين مخمورتين، وترتمي بين أنفاسه المتعبة.

انتهت العاصفة، وساد الصمت، وازداد الرخاء في سقف غرفتها، وغفت كلّ التفاصيل التي على البساط تحتهما. كان شعور كلٍّ منهما كما لو أنّه عاد إلى البيت بعدما قضى وقتًا ممتعًا باللعب مع أولاد الحيّ، فبانت ابتسامتاهما كسفيرةٍ للقلب الذي اغتسل بتلك القبلات واللمسات والكلمات التي دارت بينهما، وانتابه شعورٌ بأنّ لغرفتها سطوةً تطيح كلّ ما في قاعدة حميميم من طائرات، فصدرها هو شرفٌ وامتياز يفوق كلّ الأوسمة التي يمكن لطيّارٍ أن يحظى بها.

تبادلا النظرات، وتشابكت أصابع يده بيدها من جديد، وهمس لها:

– نعم أنا جائع.

همست له:

– قلت لي إنّك لستَ جائعًا حين سألتك.

قال:

– حينها لم أكن جائعًا.

قالت:

– والآن!

قال:

– أصابني الجوع منك.

قال عبارته هذه وأمسك باطن يدها ووضعها بين أسنانه، مرّر رأس لسانه على حوافها، ورفع عينيه نحوها، وبيده الثانية شدّ خصرها إليه، لتعرف أنّه يقصدها، وأنّه لم يزل جائعًا إليها. أدركت هذا وشدّته إليها من جديد، وعاودا ممارسة الحبّ كما لو أنّها المرّة الأولى، مع فارق تبادل النظرات، ففي المرّة الأولى طغى الهذيان عليهما، وتداخلا كأنّهما وسط عاصفةٍ هوجاء.

عادا إلى الجلوس في الصالون، وبينما كان لوكاس يتحدّث عن وضعه الصحّي، وعن الالتهاب الذي يعاني منه في أذنه الوسطى، انقطع التيّار الكهربائي. أشعلت علياء شمعة، ثمّ قبّلت أذنه وجلست بجانبه. راحت تحدّثه عن أخيها رواد، ولأنّها ذكرت المتّة في سياق حديثها، طلب لوكاس أن يشربا المتّة معًا، أسعدها هذا، وقاما إلى المطبخ، هو يحمل الشمعة بيدٍ ويمسك يدها باليد الأخرى. انتابه شعورٌ للمقارنة ما بين المؤشّرات الكثيرة التي في قمرة الطائرة وبين المؤشّر الوحيد الذي في يدها وهو يسير بخطواته معها ما بين الشمعة والعتمة. راوده شعورٌ بالحرمان، فلم يحدث أن لاذ بمكانٍ يمنحه هذا الدفء المنزلي، وهذا الأثر النابع من رائحة عائلةٍ عاشت لسنوات في زوايا هذا البيت، فالأوروبيّون قد يتركون أثرهم وذكرياتهم في البارات وفي أماكن عملهم أكثر من تركها في بيوتهم التي تكون بالنسبة إليهم بمثابة فنادق للنوم.

لقد وقع في حبّ علياء أربع مرّات؛ في المرّة الأولى حين شكرها، وفي المرّة الثانية حين لاطفها، وفي المرّة الثالثة حين قبّلته وقبّلها، وفي المرّة الرابعة حين منحته حمل الشمعة ليسير معها إلى المطبخ. وعاد من جديدٍ ليهمس في سرّه «دومًا علياء» بقلبٍ منشرح، ووجهٍ سعيد، وبكلماتٍ على رأس أصابع يده التي أمسكت بيد علياء.

عادا إلى الصالون وبدآ بشرب المتّة من كأس واحدة، ومصّاصة واحدة، هذا يحدث في الجلسات الحميمة. أخبرته بهذه المعلومة حين سألها عن هذا، وكذلك تذكّرت شيئًا سابقًا وأخبرته عن عادة الوقوف عند الأبواب في لحظات الدخول والخروج عند العرب، وأنّ الأحاديث قد تطول بشكلٍ مبالغ به، وأنّ رُبّ عباراتٍ تُقال عند الأبواب أكثر أهمّيةً وسرّية من الأحاديث التي تدور في الصالونات وغرف الضيوف.

كان يُصغي إليها وانتابه شعورٌ بالفارق الشاسع بين رؤية هذه البلاد من سمائها، وبين رؤيتها من داخل بيوتها، والفارق ما بين قراءتها من جانبها السياسي، وقراءتها عبر أفراد سكّانها. شعر بشيءٍ من المرارة على كلّ ما يحدث لها، فمدّ يده وداعب خصلات شعر علياء كما لو أنّه يقدّم العزاء لكلّ شعوب بلدان العالم الثالث، وقبّلت يده كما لو أنّها تقدّم العزاء لكلّ شعوب الدول العظمى التي أدمنت الهوس بأمجاد قادتها والسعي وراء الحروب.

لم يرغب لوكاس في أن يخوض معها في أحاديث تتعلّق بموقفها ممّا يحدث في بلادها، ولم ترغب في أن تسأله عن عدد الطلعات الجوّية التي قام بها في شمال البلاد، فهذا يؤلمها، سواء كان هذا في بلادها أو في أيّ مكانٍ آخر، كما كان يؤلم أخاها رواد الذي رفض الوقوف مع جهةٍ ضدّ أخرى. وكثيرون هم الذين انتحروا في هذا العالم رفضًا للحروب التي كانت تدور هنا أو هناك، حتى وإن كانوا بعيدين عنها، فيكفي المرء أن يسمع أو أن يرى ما يحدث لأبناء فصيلته من بشرٍ كي يشعر بالألم والعار، وما يزيد البشرية عارًا، هو عدد الذين انتحروا لأجل ذلك.

عدا ذلك فإنّ الأحاديث في هذا الشأن تُشعرها بالخوف والارتباك من شبح الملازم صفوان.

ما إن شعر لوكاس بما تشعر به علياء، حتّى راح يحدّثها عن حبّه للشطرنج، وعن حبّ أبيه الذي كان يحلم بأن يصبح ابنه بطلًا في هذه اللعبة. حدّثها عن نادي الشطرنج وعن ذكرياته مع أبيه، وعن صورة ميخائيل تال، وبدت على لوكاس ملامح البهجة وهو يستعيد تلك المشاهد والمشاعر، وسرت قشعريرةٌ داخل علياء وهي ترى الجانب الآخر له. هزّت رأسها بشيءٍ من المرارة، كما لو أنّها تحمل رأس أبيه الذي تحت التراب، فشتّان ما بين أمنيات أبيه، وبين ما هو عليه الآن، ولطالما كانت تغريها وتثير إعجابها رؤية رجلٍ يجلس إلى طاولة وأمامه رقعة شطرنج، يضع يده على خدّه وهو يبحر ما بين المعلوم والمجهول، ما بين صمتٍ مطبق وصخبٍ غير مسموع. لقد سبق لها أن رأت هذا المشهد لأحدهم في مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، كان يلعب مع أخيها رواد الذي لم يكن محترفًا بما يكفي، لكنّه كان يلعب الشطرنج حين يصادفه ذلك، بينما ذلك الرجل الذي لعب معه كان على درجةٍ عالية من الاحتراف، هكذا أخبرها رواد حين مرّت على المقهى وشاهدتهما يلعبان معًا، حينها قال لها:

– غادري هذه الطاولة واذهبي إلى صديقتك في تلك الزاوية، فمن المحرج أن تشاهدي خسارة أخيك أمام السيّد مهران، إنّه بروفسور في الشطرنج.

أخبرت علياء لوكاس بهذه الحادثة التي وقعت في مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، فمثلما حدّثها عن أبيه الذي ترك جرحًا في قلبه، كذلك أخبرته عن رواد الذي لم يزل جرح رحيله في قلبها. أضاء وجه لوكاس وهو يصغي إليها، فلا شيء يبهج قلبه، ويسرّ خاطره، ويعيده طفلًا مثل سماعه حديثًا عن الشطرنج، كأنّه يريد أن يقاوم شبح ديمتري وتلك الخديعة التي قام بها في تلك الليلة، لقد لوّث له شيئًا يحبّه، وانتهز الفرصة ليستغلّ صغر عمره، وحبّه للشطرنج. ولو أنّ ديمتري ضاجع أمّه دون أن يقوم بتلك الخديعة لما حقد لوكاس عليه، ولما ابتعد عن الشطرنج، ولكان ربّما الآن أحد أساتذة الشطرنج بدلًا من أن يكون طيّارًا في سلاح الجوّ الروسي.

قال لها:

– أريد أن ألتقي بمهران.

فتحت عينيها على اتّساعهما باستغراب، وقالت:

– كان ذلك قبل سنوات، لم أعد أراه، ولكن سأسأل النادلة عنه.

قال:

– سألتقي به هنا إن عثرتِ عليه، ما رأيك؟

قالت:

– هذا يُسعدني.

شعرت علياء بأنّ شيئًا ما قد أضاء داخل هذا البيت من جديد، لطالما كانت تودّ أن يبقى هذا البيت يضخّ الحياة في كلّ زاويةٍ من زواياه؛ الصالون، المطبخ، غرفة نومها الشاهدة على الكرنفال الذي حدث بينها وبين لوكاس الذي ملأ البيت بالحياة منذ لحظة دخوله، وذلك البساط الذي بات ثوره ومصارعه من أفراد غرفتها، واللقاء الذي سيحدث بين لوكاس والسيّد مهران في هذا الصالون. تمنّت لو أنّ أباها كان هنا، ليعرف أنّ البيوت ستبقى حيّة ما دام بحر اللاذقيّة لا يتزحزح عن حوضه.

بعدما عاد التيّار الكهربائي، دخلا المطبخ لتحضير سندويشتين خفيفتين لهما، وضعت زيت الزيتون على رغيف الخبز، ثمّ أضافت الزعتر والقليل من الجبنة، وبعد ذلك ثنت الرغيف ووضعته في السخّانة. كان لوكاس ينظر إليها، فقرّر أن يعدّ السندويشة الثانية كما فعلت، تركته يفعل ذلك، وأعدّت الشاي، وكانا يتصرّفان كما لو أنّهما عاشا دهرًا معًا. بدت الكلمات التي تحدّثا بها عن تفاصيل ما يقومان به كما لو أنّهما رفيقان يعملان في مطبخ أحد المطاعم، وأنّهما قادران على البقاء في هذا المطبخ لوقتٍ طويل وهما يتحدّثان عن أنواع الجبنة ومزارع الشاي حول العالم.

حين يكون الوعي حاضرًا بين شخصين، يصبح الصمت بمثابة الترف، والكلام بمثابة الرخاء، كأنّهما متعانقان طوال الوقت، كلٌّ منهما مكتفٍ بوجود الآخر معه. يصبح المكان غنيًّا بهما، ويشعران بأنّ مترين مربّعين يجمعانهما، يكفيانهما لرؤية الحياة كما لو أنّهما على سفح جبلٍ ربيعي. كلٌّ منهما على درايةٍ تامّة بأنّ وجود الآخر معه ينمّ عن ممارسةٍ لأقصى حالات الحرية، ولو أدار ظهره وغادر فهذا أيضًا جزء لا يتجزّأ من تلك الدراية وذلك اليقين، وأنّ الحياة قد تكتفي بفصلٍ واحد على درجةٍ عالية من الألفة والجمال، ولا تكترث بالديمومة التي قد تسودها الهشاشة، فالحياة تمرّ بعددٍ هائل من البشر، وهي غير معنيّةٍ بالسيرة الذاتيّة، بقدر ما تعنيها لمسةٌ استثنائيّة تأتي على يد أحدٍ ما، لتكون تلك اللمسة راسخةً في ذاكرة أصحابها، ولتكون البهجة الخالدة ما بينهم وبين الحياة، فالمرء مصيره الزوال، وليس من شأنه الدفاع عن ديمومة الحال.

6

بعدما توقّفت أمطار الظهيرة، بدأت حركة الناس تظهر في الشوارع. لقد أشرقت الشمس ونشرت ضياءها على المدينة، وكان لمعان الإسفلت والأرصفة يأسر عيون السائرين نحو غاياتهم، وبدت البهجة على أحاديث الناس في الأماكن المزدحمة، فالشعوب التي لا تجد ما يبهج قلبها، قد تجده في لمسة ضياءٍ وما قد تمنحه الطبيعة من سحرٍ يحتضن وجوه العابرين على الطرقات. تصبح حركة مرور السيّارات أكثر رشاقة، كما لو أنّها خرجت من معامل تصنيعها للتو، يقودها أشخاصٌ بوجوهٍ أدمنت حبّ الحياة.

وقف بديع أمام البوتيك، أشعل سيجارةً وجال بنظره على العابرين، شعر بحرقةٍ كبيرة، وتمنّى لو أنّ الآخرين هم من ينظرون إليه، حتى وإن كانت هذه النظرات من خلف زجاج واجهة البوتيك، فرغبته في أن يكون مرئيًّا لا تهدأ، وشعوره بحبّ التمثيل بمثابة إدمان يجري في دمه، ولولا المشاهد التي يقوم بها في الأمكنة التي تصادفه لفقد عقله. تلك المشاهد التي لا يمكن لأحد أن يُدرك أنّها من وحي التمثيل، كما فعل في مطعم أبيه، وكما وقف أمام السيّدة جوجو وهي تعطيه تعاليمها، وكذلك حين يدخل مع أبيه في مهاترات وجدل حول صورة بليغ حمدي. وأكثر ما يعذّبه هو أنّه المتفرّج الوحيد على ما يقوم به، فلا يمكن للآخرين أن يدركوا أنّه يتقمّص حالاتٍ يستوحيها من الموقف الذي يكون فيه، والأكثر من ذلك أنّ علياء حتّى اللحظة لا تعلم أنّه كان يلاطفها بتلك التركيبة عندما راح يحدّثها عن الهيكل العظمي أمام الخضرجي.

ليس بمقدوره أن يحتمل الواقع، ولولا عبثه هذا الذي يسري في عالمه العميق دون دراية من أحد لأقدم على الانتحار ربّما، وإن فعل ذلك، فسيكون انتحاره جزءًا من الحالة التي تمكّنت منه. لقد استغنى عن ذاته، وكلّ ما في داخله مجموعة أصوات وحركات تدور في رأسه. لا شيء يخلّصه من هذه اللوثة سوى حبّه للفنّ والتمثيل، واندماجه الكامل بكلّ موقفٍ يكون فيه، فمن يمعن فيه بدقّة، يُلاحظ اللمسة التي يضعها على أحاديثه، والأنفاق الكلامية التي يفتحها، كما لو أنّه الحالم والهائم باللغة وبتلك الثقوب التي يمكن أن يضع فيها أصابعه ليتسلّق المشهد الدائر بينه وبين أيّ أحدٍ يصادفه.

وثمّة أشياء تجعله يبذل جهدًا وحرصًا كي يتجنّب فعلها، فيما تكون لديه رغبةٌ عارمة للقيام بها في الوقت نفسه. حين يكون ماشيًا على الرصيف، ينظر في أقدام الذين أمامه، فتتكوّم تلك الرغبة في رأسه، ويشتهي أن ينقر كعب قدم العابر أمامه برأس قدمه، يختلّ عندها توازن من نقَرَ كعب قدمه، فيكاد يقع، وينهي الموقف بالاعتذار أو ربّما بمشاجرةٍ كلاميّة عابرة، هذا الفعل يثلج قلبه، حتى إن شتمه الآخر، يتابع طريقه ونشوة المشهد تملأ قلبه.

يحبّ الأدوار القصيرة وتُلهمه كثيرًا، وما من فيلمٍ إلّا استوقفه فيه هذا النوع من الأدوار، ولا يجد فارقًا كبيرًا ما بين أبطال الأفلام وبين أولئك الذين بهروه بمشهدٍ أو مشهدين. فهو معجبٌ إلى حدٍّ كبير بذلك الممثّل الذي دخل على العرّاب ليخبره عمّا فعلوه بابنته الوحيدة، لقد استطاع هذا الممثّل أن يجاري مارلون براندو في المشهد الافتتاحي للفيلم، وكلّما أعاد رؤية هذا المشهد يشعر بالغبطة، وتنتابه الحماسة لهذه الفئة من الممثّلين الذين تركوا وراءهم لذّةً في الاكتشاف، ومتعةً في التوقّف عندهم.

وما إن أنهى سيجارته، حتّى رأى السيّدة تهاني قادمةً نحو البوتيك، كانت ترتدي جاكيت ورديّة اللون على كمّيها تطريزٌ بلونٍ ذهبي، وبنطالًا من الكتّان بلونٍ سكّري، وتركت غرّتها تغطّي جبينها بموديل شعرها الكيرلي، بينما سرّحت الجانبين إلى الوراء، وكان صدرها مشدودًا نحو الأعلى بطريقةٍ جعلتها ترفع رأسها قليلًا بشيءٍ من الغرور والثقة بالنفس.

ألقت التحيّة عليه ثمّ أخبرته أنّ إحدى صديقاتها مريضة وأتت لزيارتها، ثمّ أشارت له بيدها نحو البناء الذي تقيم فيه هذه الصديقة، واقترحت عليه أن يرافقها في هذه الزيارة كي يحظى بسمعةٍ حسنة في هذا الحيّ، فزيارة المرضى واجبٌ على الجيران. قالت له كلماتها هذه بنبرةٍ رزينة، وبملامح وجهٍ طغت عليها العاطفة، ثمّ أشعلت سيجارةً كما لو أنّ الموقف يحتاج إلى مثل هذه السيجارة.

تابعت حديثها وأخبرته أنّ تلك السيّدة هي إحدى أهمّ زبونات البوتيك، وعلاقتها ممتازة بجوجو، ولكنّ مرضها هو ما جعلها تعكتف في البيت منذ تسلّمه البوتيك، ولكي لا تترك أيّ حجّةٍ لبديع، أخبرته أنّ إغلاقه للبوتيك نصف ساعة لن يؤثّر عليه.

تردّد بديع وشعر بشيءٍ من الحرج، فامرأةٌ مثل السيّدة تهاني لها مكانتها في الحيّ، وإذا رفض ذلك فسوف تؤثّر على سمعة البوتيك، وسوف تتّهمه بقسوة القلب وعدم مراعاة حسن الجوار في هذا الحيّ. ومن جهةٍ ثانية شعر بأنّ هذه الزيارة ستكون غنيّة بأحاديث الجارات اللواتي سيجدهنّ عند الجارة المريضة، وهو شغوفٌ بهذه المواقف الغريبة التي راودته قبل قدوم تهاني بقليل.

وبينما كان يغلق البوتيك استعدادًا للذهاب مع تهاني، جاءت علياء وألقت التحيّة عليهما، أخبرته أنّها تودّ الذهاب إلى المقهى، وأنّ سوسن سوف تأتي لرؤية البوتيك عمّا قريب، وأنّه إذا أراد اللحاق بها إلى المقهى فهي هناك. أخبرها بأنّه ذاهب لزيارة جارته المريضة، وسيعود لفتح البوتيك، ولن يكون لديه الوقت للّحاق بها، ثمّ طلب منها أن توصل تحيّاته إلى سوسن، وقبل أن تغادر علياء سألت بديع:

– أتعرف رجلًا اسمه مهران، كان يأتي إلى مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، ويلعب الشطرنج؟

وقبل أن يجيب، رفعت السيّدة تهاني رأسها ومالت بعنقها قائلة:

– يُطلقون عليّ مختارة اللاذقيّة، وهذا الاسم ليس غريبًا عليّ، أظنّ أنّني عرفته، أشقر بعينين خضراوين، يعمل سائقًا في المشفى الحكومي، وله شعرٌ كثيف ومجعّد، لكن لم أكن أعلم أنّه يلعب الشطرنج ولا أنّه من روّاد المقهى الذي ذكرته.

ابتسمت لها علياء باحترام وأخبرتها أنّ هذه الأوصاف لا تنبطق عليه، فهو ليس أشقر وعيناه ليستا خضراوين، بل كان أصلع.

قالت تهاني:

– لم أره منذ سنوات، ربّما أصبح أصلع في ما بعد، فالأوضاع الأخيرة في هذا البلد تجعل النساء يُصَبن بالصلع.

ولكي تبرّر موقفها بعدم معرفتها بمن سألت عنه علياء، غيّرت مجرى الحديث، ابتسمت وقالت:

– للصلعان جاذبيّةٌ خاصّة، عاطفيّون، وأذكياء جدًّا، فلا غرابة أنّه يلعب الشطرنج.

قالت علياء:

– أوافقك الرأي.

ثمّ غادرتهما متوجّهةً نحو المقهى لتسأل سوسن عن الأستاذ مهران.

كانت سوسن وافقةً عند رفوف مكتبة المقهى تتحدّث مع إحدى الزبونات حول كتاب استعارته ولم تعده بعد، وطالبتها بثمنه، لكنّ الزبونة قالت لها إنّها سوف تعيده خلال يومين كآخر مهلةٍ لها، وافقت سوسن على المهلة مقابل منعها من استعارة أيّ كتاب إلى أن تعيد الكتاب السابق. عادت الزبونة إلى طاولتها وجلست تكمل قهوتها، بينما دخلت علياء وألقت التحيّة على سوسن التي فرحت بقدومها، وتبادلتا أسئلة الاطمئنان، وبعد ذلك ومن دون مقدّمات همست سوسن لعلياء:

– إن من يستعير كتابًا ولا يعيده كمن يحتجز رهينة ويطالب بفدية مقابل إطلاق سراحها.

ابتسمت علياء لها، وأدركت من سياق حديثها أنّ ثمّة من يستعير كتبًا ولا يعيدها.

بعد ذلك سألتها سوسن:

– ماذا ستشربين؟

قالت علياء:

– بدايةً أودّ أن أسألك عن شخصٍ كان من روّاد هذا المقهى منذ عدّة سنوات، الأستاذ مهران، يلعب الشطرنج.

تغيّرت ملامح سوسن بعض الشيء، وساد الصمت لحظات، تنهّدت ثمّ قالت:

– هذا أبي، أستاذ الموسيقى، لقد رحل منذ سنوات، وصاحب هذا المقهى كان صديقًا له، لذلك تعاطف معي وطلبني للعمل هنا، وفاءً منه لروح أبي.

شعرت علياء بالحرج، وبدت تعابير عينيها كما لو أنّها تقدّم العزاء لها، ثمّ فتحت ذراعيها وضمّت سوسن إلى صدرها، وهمست لها:

– أخي رواد قال إنّه بروفسور في الشطرنج، ولا تزال ملامح وجهه في ذاكرتي، رجلٌ لطيف للغاية.

قالت سوسن:

– لم أزل أستمع للمقطوعات الموسيقيّة التي كان يحبّها، لتكون روحه حاضرةً معي.

جلست علياء وهي تشعر بشيءٍ من الأسى، فقد تمنّت لو أنّها استطاعت تحقيق رغبة لوكاس في لقاءٍ يجمعه مع الأستاذ مهران في بيتها ليلعبا الشطرنج. أرادت رؤيته وهو يستعيد ذكريات مراهقته وحبّه للشطرنج من جديد، وأرادت أن يعود إلى ذاته التي تاهت منه، فهذا الرجل يحتاج إلى امرأةٍ تهتمّ بترميم روحه التي أصابها الكثير من العطب، وتعيد إليه الألق الذي فقده بعد التحاقه بسلاح الطيران. ثمّة براءةٌ دفينة في داخله، وثمّة غرامٌ لا حدود له قد وقعا فيه، فأمس استطاع أن يجعلها تشعر بكلّ ما في هذا العالم من أُنسٍ وسكينة، ولا تزلل نظراته إليها تسكن قلبها، وكلماته تدور حول رأسها كعطرٍ لا يزول، ورافق خطواتها من البيت إلى المقهى أثر يده الذي كان لا يزال بين أصابعها، فكان للأرصفة بريقٌ يسبقها، وللأفق أغنية حبٍّ على وقع خطواتها.

شربت قهوتها بشيءٍ من المرارة، ثمّ وقفت لتغادر المقهى، أخبرت سوسن بتحيّات بديع لها، ثم ودّعتها. في طريقها كانت مشتاقةً للوكاس، إلّا أنّ شوقها هذا دفع بها إلى المقبرة لزيارة أمّها وأخيها رواد، وفي طريقها إلى هناك مرّت على كشك أبي ريحانة ليرافقها في زيارة ابنته ريحانة، فكما يستأنس الموتى بعضهم ببعض، كذلك يبحث الأحياء عمّن يرافقهم ليخفّف بعضهم عن بعض هواجس وحشتهم ما بين الموت والحياة.

مرّ أسبوعٌ بحاله ولم يأتِ لوكاس لرؤيتها، شعرت بوحدةٍ جارفة استقرّت في قلبها، وأيّ صوتٍ تسمعه بات يتبادر إلى ذهنها أنّه صوت باب بيتها، وحين تعود إلى البيت تنظر نحو زاوية الشارع التي وقف لوكاس ينتظرها فيها تلك المرة. في ليلة أمس تناولت سندويشة الزيت والزعتر مع قطع الجبنة وشعرت بطعم حضوره معها، وكانت في كلّ يومٍ تقف أمام البساط الإسباني كما لو أنّها تقف لتشكو إليه سوء الحال، فهي تعلم أنّ حياة المرء شاسعة، وحين يتوه فيها فإنه يكثّفها في زاويةٍ واحدة ليجد نفسه. هذه الزاوية التي يكون قد راهن عليها بعد إيمانه بها، هذه الزاوية باتت مرهونةً بلوكاس، آخر ما بقي لها، وأغرب ما حدث معها. وإن كانت أحبّت لعبة عجن الكلام العابر، فلوكاس كان بمثابة رغيف الخبز والكيك الناتج عن ذلك العجن دون تخمينات. المرء عادةً لا ينتشي بتأثير الكحول حين يقع فيه، بقدر ما ينتشي باللحظة الأولى من إدراكه لتلك النشوة، كما لو أنّه كان شاهدًا على ضالّته وضياعه معًا، فالمعرفة

أكبر عزاءٍ للمرء مهما حدث له. لذلك كان الانتحار وسيبقى المأساة الحقيقيّة في تاريخ البشريّة، إذ يفتقر المنتحر إلى تلك اللحظة الفاصلة ما بين الوعي والنهاية، تلك الحلقة المفقودة التي لا يمكنه أن يُدركها دون مساعدة أحدٍ يحيط به، ويدرك تلك الدلالات التي تشير إلى الانتحار قبل حدوثه.

ثلاثة لقاءات حدثت في هذا الأسبوع بين بديع وسوسن؛ واحد في البوتيك، والآخر في المقهى، والثالث في بيته. حدّثها عن معرفته بعلياء، وعن طرده من مطعم أبيه والبيت، وعن صفوان الذي يتقزّز منه، وعن مسرحيّة «مطعم القردة الحيّة» التي يعمل على إعدادها. أعربت عن رغبتها في تجسيد شخصيّة الفتاة التي سيتقدّم ذلك الشابّ لطلب يدها، مع أنّها شخصيّة سيّئة ومستفزّة إلّا أنّها تستطيع فعل ذلك. شعر بديع بالسعادة وبدأ يجري لها بعض الاختبارات لرؤية مدى موهبتها، أسعده الدور، أنّه يملك القرار في تحديد مصير موهبة شخصٍ يقف أمامه، كما لو أنّ ذاكرته تستعيد عضو لجنة التحكيم خلال ذلك اليوم المشؤوم في المعهد العالي للفنون المسرحيّة.

كانت سوسن سعيدةً بذلك، لقد وجدت شخصًا ينتشلها من الضجر الذي بات ثقيلًا عليها. لدى المرء عادةً توقٌ لأداء تجربة التمثيل، ولطالما قام بذلك أمام المرآة، أو في أحلام اليقظة حين يزجّ به الواقع في زاويةٍ غير عادلة، حتى إنّ البعض يستحضرون أعداءهم في أحاديث تدور في أنفسهم. يحدث هذا عندما يصل المرء إلى فقدان ثقته بلغة الآخر، فيفعل ذلك ليُفسح لنفسه إجراء المحاكمة وإصدار الحكم للآخر الغارق في الخطايا والانتهاكات التي ارتكبها بحق هذا الواقع في أحاديث أحلام اليقظة بحثًا عن العدالة.

من الصعب أن يستسلم أيّ أحد ممّن بقوا في هذه البلاد. كلّ واحدٍ منهم يستشرس في حلمه كما لو أنّه ينتقم من الذين أتيحت لهم فرصة الرحيل خارج البلاد. حين تقع الحرب وتعمّ الفوضى في بلدٍ ما فإنّ دوائر الصراع تتّسع إلى دوائر أخرى، كتلك الدوائر التي تحدث إثر رمي حجرٍ في مياهٍ راكدة، فيصبح الصراع الأساسي هامشًا، وتصبح الدوائر الأخرى أساسًا. وعندما يعجز المرء عن معرفة صيغة ذلك الحجر، يذهب إلى تفسير الدوائر المنبثقة عن تلك الرمية، وهذا يشبه إلى حدٍّ كبير المسائل المعقّدة التي وضعها ديمتري للوكاس كي يحظى بمضاجعة أمّه على البلكون.

كان لوكاس جالسًا في الصالة المخصّصة لعقد الاجتماعات مع بعض الرفاق والقادة في قاعدة حميميم، وكان أحد القادة يتحدّث عن آخر التطوّرات العسكريّة والسياسيّة مع الأوكرانيّين حول شبه جزيرة القرم، وعن أنّ الأوروبيّين ومن ورائهم الولايات المتّحدة الأميركيّة يحاولون الضغط على سياسة بلادهم في هذا الصدد، وأنّ القيادات العليا في روسيا تملك رؤيةً جديدة للأوضاع التي ستكون عليها. كانت الندوة أقرب ما تكون إلى الخطاب الحماسي الذي يُبقي القوّات الروسيّة على اطّلاعٍ مباشر على كلّ ما يحدث وما سيحدث، كما أخبرهم بزيارة أحد القادة الكبار للقاعدة عمّا قريب، وأنّ الحكومة الروسيّة تعمل على سحب قوّاتها من الأراضي السورية والاكتفاء بوجودها العسكري في طرطوس وقاعدة حميميم

في اللاذقيّة، فالمهمّة التي جاءت قوّاتهم لأجلها حقّقت أهدافها، وسيحافظ العلم الروسي على أمجاده في الأمكنة الاستراتيجيّة التي تدعم مصالح بلادهم في المنطقة.

عند انتهاء الاجتماع طلب القائد من لوكاس البقاء. انصرف الرفاق، وبقيا وحدهما، دار حديثٌ بينهما حول الوضع الصحّي للوكاس، وحول تفاصيل غريبة لاحظها عليه أخيرًا من شرورٍ وقلّة نشاط، وثمّة شكوى وصلته من أحد ضبّاط هندسة صيانة الطيران. أخبره أيضًا أنّ فرع الأمن في اللاذقيّة قد أعلمه بضرورة الحيطة والحذر وعدم النزول إلى اللاذقيّة كيفما شاء، فثمّة بعض المندسّين الذين قد يشكّلون خطرًا على حياته، وأنّ هذه التصرّفات تخالف النظام العسكري في هذه القاعدة، وذكّره بأنّ وزارة الدفاع الروسيّة تنظر إليه نظرة اعتزازٍ وثناء، وأنّه يكنّ له احترامًا وتقديرًا، ومن واجبه كقائد أن يقوم بمهامّه على أكمل وجه في ما يتعلق بضبّاط القاعدة الذين تحت إمرته، وفي كلّ ما يتعلّق بسلامتهم. وأضاف أنّه يراعي ظرفه النفسي إن كان يعاني من اكتئابٍ أو حزن على أثر وفاة أمه، وأنّه على استعدادٍ لمنحه إجازةً طويلة للسفر إلى موسكو لزيارة قبرها واستعادة تلك الحماسة التي كان عليها من قبل.

عاد لوكاس إلى غرفته وهو يشعر بشيءٍ من الغثيان، شوقه لعلياء من جهة، والتوبيخ الذي تعرّض له من قائده من جهةٍ ثانية. انتابه شعورٌ بأنّ صفوان له يدٌ في الحديث الذي دار بين فرع أمن الدولة وبين قائده في قاعدة حميميم، فمن مهامّ الحكومة السوريّة اتّخاذ كلّ الإجراءات اللوجستيّة المتعلّقة بأمن الروس على أراضيها.

انتابه حقدٌ عميق نحو صفوان، احتار في أمره، وتمنّى لو كان بمقدوره التحليق بطائرته وقصفه بصاروخ. استنتج أنّ صفوان يرغب في علياء، وأنّ أبناء البلد الواحد عادةً لديهم أحقاد في ما بينهم. وكانت لديه شكوك تتعلّق بتصرّفاته مع ابنة خالته كارمن حين جاءت إلى اللاذقيّة من باب السياحة، فهو الذي رافقها واهتمّ بها، ولكن في ما بعد لاحظ أنّ ثمّة شيئًا حدث بينهما. وبطبيعة الحال، لم يكن صفوان بالنسبة إليه سوى ضابطٍ سوري يقدّم له خدمات بسيطة على الصعيد الشخصي، مقابل ذلك الشعور الذي يحظى به صفوان أمام رفاقه من ضبّاط وشخصيّات لها وزنٌ على الصعيد الاجتماعي في اللاذقيّة، فهذا الجانب يمنحه شيئًا من الامتيازات المعنويّة.

وما زاد لوكاس سوءًا أنّ الاجتماع الذي عُقد لم يكن يتعلّق بالوجود الروسي في قاعدة حميميم، بل حول المستجدّات التي باتت تقلق بلاده في ما يتعلق بشبه جزيرة القرم والحراك الأوكراني في تلك المنطقة. هذا بحدّ ذاته يجعل أيّ ضابط يأخذ المسألة باهتمامٍ يليق بصورة الجيش الروسي من جهة، وبالخطاب السياسي الذي بات واضحًا من جهةٍ أخرى، فما من توتّر يحدث في موسكو، إلّا يصل إلى قاعدة حميميم بصورةٍ طبق الأصل. الدول العظمى لا تهدأ، تبقى في حالة غليان، ترسل تهديدًا لدولةٍ في المساء، فيأتيها تهديدٌ من دولةٍ حليفة في الصباح، وتبقى الأمور في حدود التعطّش إلى اللعب، إلى أن تتقارب الأمور، فتسيل الدماء ويعمّ الدمار، وتندثر مصائر الأفراد، وينحرف مجرى حكاياتهم في ظلّ ذلك.

انتابه شعورٌ بأنّ يد قائده كانت ثقيلة عليه حين ربّت له كتفه بعدما أنهى حديثه معه. هذه اليد العسكريّة التي لا تربّت كتف أحدٍ ما لم تقترن بحماسةٍ نحو حربٍ جديدة، لمواصلة أمجاد البلاد هنا وهناك، وكأنّه سيقضي نصف حياته في السماء، إلى أن تأتي تلك اللحظة ويُضطرّ إلى سحب مقبض كرسيّ النجاة كما حدث لأحد رفاقه، فيما كلّ تفكيره كان يدور حول مدّ يده ليسحب تلك المطّاطة الصغيرة من شعر علياء، ليتناثر على ظهرها اللامع كفنجان القهوة الأبيض الذي قدّمته له.

من الخيانات الكبرى في سلاح الجوّ أن يمضي الطيّار بطائرته ويحطّ بها على أرض العدوّ ويسلّم نفسه، ويقدّم لهم معلوماتٍ عسكريّة، ويصرّح بمعاداته للبلد الذي ينتمي إليه لكسر الروح القتاليّة في صفوف مقاتليه، لكن ما يفكّر فيه لوكاس هو المضيّ بقلبه ليحطّ به في بيت علياء، ويطلب لجوءًا أبديًّا بين أحضانها. هذا كلّ ما يفكر فيه في هذه اللحظات السيّئة التي تنتابه وسط كلّ الهواجس التي باتت تسيطر عليه بطريقةٍ تجعله يشعر بأنّه بات بحاجةٍ إلى طبيبٍ نفسي، فكلّ التراكمات التي مرّت به باتت تظهر عليه في هذا الوقت، وعلى رأسها ذلك السبب الذي دفعه إلى الالتحاق بمدرسة سلاح الجوّ، يكاد يفتح ذراعيه ليسأل نفسه بصوتٍ صارخ عن سبب وجوده في هذا المكان.

مرّت علياء من أمام الخضرجي وكان الإرهاق ظاهرًا عليها، فقلّة النوم تركت لونًا رماديًّا حول عينيها المتعبتين، وخطواتها بدت ثقيلة، وكان شعرها المبعثر يُشير إلى عدم رغبتها في الخروج لولا ظروف الحياة. بدت شوارع الحيّ باهتةً في عينيها وهي عائدةٌ إلى البيت، حتّى التحيّة التي ألقتها على جارتها التي كانت واقفةً تشتري الخضار كانت تحيّةً صامتة، اكتفت بهزّ رأسها لها كما لو أنّ لوكاس أغلق لها فمها بتلك القبلات. وصلت إلى البيت، خلعت الجاكيت وحذاءها وتمدّدت على بطنها فوق الأريكة، وقد توسّدت يدها، أغمضت عينيها وقرأت أمنياتها وأمنيات أخيها رواد الذي كانت كلّ نوارس البحر الأبيض المتوسّط تظهر في عينيه، ثم غطّت في نومها.

يرتبط النوم في بعض الحالات بالوجد الذي يسبقه، يغوص صاحبه فيه أثناء النوم، فيرى شيئًا من تلك الأمنيات، يضمّها بروحه، ويحلّق بها، ليجد الوجهة الأخرى لما كان يُمكن أن يكون عليه العام، شفّافًا وخفيفًا على النفس كما الموسيقى، يُشبه لمسةً إلهيّة على الجبين. يتّسع الصدر لكلّ تلك المشاعر التي تأتي على شكل أحلامٍ من نوعٍ آخر، كما لو أنّها من صنع صاحبها، ويصل إلى الحدّ الذي يكون فيه حاضرًا، دون أن ينوب طيفه عنه، فيستيقظ مفعمًا بشيءٍ قد تدفّق في روحه، وملأ قلبه بذلك الوجد الذي توسّده لحظة نومه.

هذا ما شعرت به علياء حين استيقظت من غفوتها، بقيت ممدّدةً ومسترخية وغارقة بالطيف الذي راودها، من أضواءٍ وأنوار، وخطواتٍ تركت أثرها على الرمال الرطبة بأمواج البحر، وابتساماتٍ على وجه رواد، وتشابك يديها بيدي لوكاس. كانت السماء صافيةً فوق الجميع، والغيوم البيضاء قد اخترقت جدار

الصوت بدلًا من تلك الطائرات، وكان الشاطئ يعجّ بوجوه سيّاحٍ أتوا من أماكن بعيدةٍ ليروا ابتسامة رواد، وعينَي علياء، وأصابع لوكاس وهي تخطّ اسم علياء على رمال البحر.

تحدّثت سوسن مع صاحب المقهى الذي تعمل فيه، وطلبت منه الموافقة على تقديم عرضٍ مسرحي لبديع، ستجسّد شخصيّةً فيه، لم يوافق في بداية الأمر، لكنّها حين قالت له «لأجل أبي»، شعر بالحرج. الأستاذ مهران كان من أعزّ أصدقائه، ويرى أنّ سوسن من رائحة أبيها، ابتسم لها ومنحها الموافقة. بعد ذلك بيومين، جلس معها ومع بديع لأجل التحدّث في تفاصيل العرض، وفحوى المسرحية، فهو حريص على ألّا تكون لها دلالاتٌ رمزيّة تتعلّق بالسياسة. تعامل معهما كما لو أنّه لم يبقَ من حياته أكثر ممّا فات، وأنّه طوال الوقت كان يحاول أن يجعل من هذا المقهى مكانًا جميلًا لزبائنه، واقترح عليها أن ينظّم بطولةً للشطرنج تخليدًا لذكرى روح أبيها الذي سبق له أن فاز على جميع من كانوا يأتون إلى هذا المقهى، وكان بمثابة أستاذٍ لهم ، ولم يكن يبخل على بنات وأبناء هذه المدينة ، سواء كان ذلك في الموسيقى أو الشطرنج. أكّد أنّ المقهى منذ زمنٍ طويل لم يقم بنشاطاتٍ ثقافيّة وفنيّة، وشكرها على تحريضه على ذلك. شعر ببعض حماسة السنوات السابقة، حين كان مقهى «زهرة عبّاد الشمس» من المقاهي الرائدة بنشاطاتٍ كهذه، ولهذا المقهى تاريخٌ طويل في هذه المدينة.

شعر بديع بفرحٍ لامس قلبه، وشعرت سوسن بأنّ أباها طبع قبلةً على خدّها. راقتها فكرة مسابقة مهران للشطرنج، حتى وإن كانت على الصعيد المحلّي، ومهما كانت بسيطة، فهذا شيءٌ لطيف للغاية، ويؤنس قلبها الذي يحتاج إلى لمسة فرحٍ في ظلّ هذه الظروف الخانقة، فما يحدث من اجتماعاتٍ في وزارة الدفاع، يمكن أن تقابله اجتماعاتٌ أخرى في مقهى «زهرة عبّاد الشمس» لأجل المسرح والموسيقى والشطرنج.

بعد ذلك، منح صاحب المقهى سوسن إجازةً مدفوعة لأجل أن تتفرّغ للبروفات مع بديع، ووعدهما بأن يضع إعلانًا يتعلّق بهذه النشاطات، والبدء بترتيب بعض التفاصيل لأجل ذلك. ضمّته سوسن كما لو أنّها تضمّ أباها، وقدّم له بديع الشكر، ثمّ خرجا من المقهى وذهبا إلى الكورنيش الجنوبي يدًا بيد، كعاشقين وقعا في الحبّ للتوّ، فالأخبار السعيدة كفيلةٌ بصناعة الحبّ وحثّ الآخرين عليه.

عند العاشرة مساءً جاء بديع ومعه سوسن إلى بيت علياء، رحّبت بهما وجلسوا في الصالون، حاولت أن تتحدّث معهما ببعض عبارات الاطمئنان والأحاديث القصيرة، فلم تكن لديها القدرة على الخوض بأكثر من ذلك. أخبرها بديع بأنّه سيقدّم مسرحيّته في مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، بينما سوسن أخبرتها عن بطولة الشطرنج التي ستقام في المقهى لأجل ذكرى روح أبيها الذي سألتها عنه في المرّة الماضية. تغيّرت ملامح علياء، وفتحت عينيها بشيءٍ من الدهشة، وقالت إنّها فكرةٌ رائعة، ثمّ طلبت من بديع أن يدخل المطبخ ليقوم بتحضير المتّة، بينما بقيت جالسةً مع سوسن لتسألها عن موعد البطولة وطريقة المشاركة وبقيّة التفاصيل، وبعدما ساد الصمت قليلًا، طلبت من سوسن أن تضع اسم لوكاس في قائمة المشاركين.

شعرت علياء بأنّ شيئًا من الأسى الذي في داخلها انزاح، وتمنّت لو أنّ لوكاس معها ليجلس بقربها كما جلس بديع بقرب سوسن وكتفه تلتصق بكتفها. عرفت أنّ شرارات الحبّ واقعةٌ بينهما دون أن يخبراها بهذا، فكأنّ حكايات الحبّ في هذا الحيّ تنتقل بالعدوى، بدءًا من حكاية جوجو مع جبران، ومرورًا بحكاية علياء مع لوكاس، ولن تكون حكاية بديع وسوسن الحكاية الأخيرة، فلا شيء يبقي المدن والأحياء على قيد الحياة مثل وقوع الحبّ في شوارعها ومقاهيها، وعلى أبواب بيوتها التي تُفتح من تلقاء نفسها من نسمةٍ صغيرة أو يد عاشقٍ تطرق الباب على من يحبّ، كما فعل لوكاس.

بعد ذلك راح بديع يشرح لعلياء فحوى المسرحيّة، والإسقاطات التي أرادها من مسرحيّة «مطعم القردة الحيّة»، وعن تفاصيل الشخصيّات الثلاث. أخبرها بأنّ أحد أصدقائه القدامى هو من سيقوم بدور الأب، وشعرت علياء بأنّ تجسيد الدور سيكون صعبًا عليهما، فالحقيقة التي بينهما شيء، وما سيحدث في المسرحيّة شيءٌ آخر، صعبٌ وحزين. رأي علياء أسعد بديع، وأخبرها بأنّ التمثيل يكمن في هذا الجانب، وأنّه يثق بقدرات سوسن وبصديقه، وأنّ العرض على أفضل حال، وأضاف أنّ الرسالة تدور حول لذّة المرء وحبّه لممارسة سلطته حين تسمح له الفرصة بذلك، كما سيفعل الأب بتحويل الممثّل إلى مهرّجٍ في سهرة عيد ميلاد ابنته.

سألته علياء:

– ولماذا سينصاع الممثّل لأداء تلك المشاهد التي أراد الأب أن يذلّه من خلالها؟

قال بديع:

– لينتقم من نفسه أمام التي ظنّ أنّها تبادله الحبّ.

عندما أنهى عبارته هذه، أمسكت سوسن يده ونظرت إليه، كما لو أنّها تخبره عن حبّها له، وتعاطفها مع شخصيّة الممثّل في المسرحيّة.

قالت علياء:

– لا تقلّ قسوةً عن النسخة الأصليّة لـ«مطعم القردة الحيّة»، ولمسرحيّتك دلالاتٌ كثيرة غير مباشرة.

قال:

– النصّ الجيّد يحتمل الكثير من التأويلات، فليكن هذا.

وبعد ذلك فوجئت علياء حين قالت لها سوسن:

– لنلعب لعبة عجن الكلام.

قال بديع لعلياء:

– لقد علّمتها هذه اللعبة، وأخبرتها أنّني تعلّمتها منك.

أخبرتهما سوسن أنّها عندما كانت تمشي مع بديع سمعت شخصًا يقول لمن معه:

– من سابع المستحيلات أن يحدث هذا.

وراح كلّ واحد منهم يخمّن الأحداث والسيناريوهات والقصد من وراء هذه العبارة التي دارت بين الشخصين العابرين.

استيقظت علياء عند العاشرة صباحًا عندما سمعت أحدًا ما يطرق الباب، قامت وفتحت الباب فكان الملازم صفوان، فتحت عينيها كما لو أنّها في كابوس، كان واقفًا باستقامةٍ ويداه خلف ظهره، تبادلا النظرات ثمّ قال لها:

– صباح الخير.

قالت:

– صباح النور، ماذا تريد؟

دخل البيت رغم أنّها لم تأذن له بالدخول، جلس على الكرسيّ تاركًا مسند الظهر أمام صدره، واضعًا يديه فوق حافة المسند، بقيت علياء واقفةً تنظر إليه منتظرةً أن يقول شيئًا، ثمّ طلب منها أن تجلس. جلست على الأريكة وبقيت تنظر إليه دون أن ينظر إليها، إذ بقي يجول بنظره في المكان، إلى أن نظر إليها وراح يخبرها عن أحد أصدقائه السوريّين في ألمانيا، جاء لزيارة والدته قبل يومين، وبينما كان يحدّثه عن أخبار أهل اللاذقيّة جاء ذكر خالها فادي، وعرف أنّ بعض المشاكل وقعت بينه وبين أبن أخته فادي، ووصل الأمر بينهما إلى تقديم الجيران شكوى للبوليس على أثر تلك المشاجرات التي كانت تزعجهم.

لاحظ صفوان حجم القلق على وجه علياء، وأنّها باتت مهتمّةً لسماع بقيّة الحديث، نظر إليها وقال:

– أليس لديكِ قهوة.

قالت:

– بلى.

ذهبت إلى المطبخ، وأعدّت القهوة وهي متوتّرةٌ من مجيء صفوان عند هذا الصباح. شعرت بالقلق من الحديث الذي دار حول خالها وأخيها، ومن نيّات صفوان الكريهة، وإصراره على إزعاجها وإزعاج من حولها. ينتابها النفور من نظراته، وهو يتقصّد استنشاق الهواء من أنفه ليُصدر صوتًا بعد نطقه عباراتٍ محدّدة، كما لو أنّه يُصدر شخيرًا.

وضعت فنجان قهوته أمامه وجلست تنتظر أن يُكمل حديثه، لكنّه لم يفعل ذلك، أشعل سيجارةً منتظرًا أن تطلب منه متابعة الحديث الذي بدأ به، فعلت ذلك، وراح يتكلّم ببرودٍ شديد وبلفٍّ ودوران إلى أن أخبرها أنّ أخاها فادي على علاقة حبٍّ مع شابّ ألماني، وأنّه مثليّ الجنس، وعندما علم خاله بذلك بدأت المشاجرات بينهما، وبعد ذلك طرده.

لم تنزعج علياء من الخبر، بقدر ما أحزنها هذا الشتات الذي وقعت فيه العائلة، وتخيّلت مشاهد المشاجرات التي حدثت ما بين أخيها وخالها، وإن كان لا بدّ من أن تغضب من شيء، فسيكون غضبها من هذا الذي جاء ليخبرها خبرًا كهذا بطريقةٍ تخفي وراءها الكثير من الشماتة والاستفزاز. شعرت بالتعب

وبحاجةٍ كبيرة إلى النوم أو الخروج، لم تعد لديها القدرة على الكلام أو البقاء للحظة بوجود صفوان الذي كان لا يزال جالسًا بمنتهى البرود وهو يدخّن سيجارة ويشرب قهوته كما لو أنّه جالسٌ في مكتبه يُحقّق مع أحد المتّهمين بجريمةٍ ما.

نظرت إليه قائلةً:

– شكرًا لك. هل تودّ أن تقول شيئًا آخر؟

قال:

– ما رأيك في الروس؟

قالت:

– لا أتحدّث في السياسة.

قال:

– حسنًا، وماذا عن لوكاس؟

اقتربت منه، وهمست في أذنه:

– أحبّه، ويحبّني، ومارسنا الحبّ في تلك الليلة، وسنفعل ذلك في الشاليه الذي كانت فيه كارمن.

ما إن ذكرت كارمن حتّى شعر بأنّ أحدًا ما صفعه من جديد. لم يستطع النظر إليها، وشعر بأنّ ذكورته أصابها العطب حين أخبرته بما حدث بينها وبين لوكاس، فقد استطاعت أن تردّ له الصاع صاعين. شعر بأنّها في حالة استشراس، وبأنّها اكتشفت حجم الهشاشة التي يخفيها برتبته كملازمٍ في فرع أمن الدولة.

انقلبت الموازين برمشة عين، وشعرت بأنّه لم يعد يقوى على الحراك. في هذه اللحظة وضعت يديها على كتفيه، وراحت تدلّكهما له، أغمض عينيه مستسلمًا، كما لو أنّه لم يسبق أن لمسته امرأةٌ بمقام علياء من قبل، ثمّ قالت له:

– في الوقت الذي تشغل به نفسك بالحفاظ على أمن الدولة، عليك أن تبحث عن الحنان الذي تفتقر إليه، أشعر بك، وأفهمك جيّدًا، ولا أستغرب أنّك قد تحقد على اللواتي لم يبادلنك الحبّ، ومن الواضح أنّ الحياة العسكريّة جعلتك دون قلبٍ ودون مشاعر. لقد تعرّضت للتوبيخ من ضبّاطٍ أكبر منك، وربّما ليس لديك أصدقاء سوى سيّارتك التي تقضي فيها أغلب الأوقات في شوارع اللاذقيّة بحجّة ضبط الأمن. هؤلاء الناس هم أبناء البلد، تأتي أنت لتزيد عليهم، كما لو أنّك تنتقم من الوحدة التي تفتك بك، من المؤكّد أنّك أقمت علاقاتٍ عابرةً مع نساءٍ يتحاشين شرّك، فلا أثق بأنّ ثمّة امرأةً حرّة أغمضت عينيها في عينيك.

رفعت يديها عن كتفيه وكان رأسه مسدلًا نحو الأسفل دون حراك، ثمّ تحرّكت وأصبحت أمامه، جلست ووضعت يديها على ركبتيه، لم يجرؤ على النظر في وجهها، كان كمن خُدّر، وكانت علياء كأنّها قامت بترويضه إلى أن بدا على هذه الهيئة، ثم تابعت حديثها:

– تستطيع أن تصبح صديقي، وصديقًا لبديع وسوسن، تستطيع أن تأتي وتشرب المتّة معنا، وأستطيع أن أطلب منك أن توصلني بسيّارتك إن صادفتك في الطريق، وتستطيع أن تنزل من سيّارتك وتطلب القهوة من أبي ريحانة، وسيمرّر يده على نبتة الريحان ليفوح عطرها في المكان، ويمكنك أن تشاركنا شرب القهوة في «زهرة عبّاد الشمس» ونحن نستمع لموسيقى شوبرت، إن فعلت ذلك فسيكون أمن الدولة على ما يُرام من تلقاء نفسه.

شعر صفوان بأنّه كمن دخل كنيسةً ليعترف بخطاياه، وأنّ هذا البيت ليس مثل أيّ بيتٍ آخر. كان يستطيع أن يستأذن علياء لينام على الأريكة لساعةٍ من الوقت، لأوّل مرّةٍ تنتابه هذه السكينة التي سرت على كتفيه من ملامسة علياء لهما، وشعر بأنّ ركبتيه اغتسلتا بيديها، وخفق قلبه بكلماتها، وبحثت عيناه عن دمعةٍ ليذرفها، رغم أنّ بعض العيون يصعب عليها فعل ذلك.

نظر إلى علياء وقال لها:

– سآخذ إجازةً طويلة وأذهب إلى الشاليه الذي أملكه في طرطوس، أحتاج إلى بعض الوقت للبقاء وحدي.

وقف دون أن ينظر في وجهها، مشى بخطواتٍ بطيئة نحو باب البيت، وبقيت علياء تنظر إليه كما لو أنّها تنظر إلى شخصٍ غير ذلك الذي دخل عليها. أغلق الباب وراءه، ونظرت إلى يديها، شعرت بأنّهما أعلى رتبةٍ يمكن للرجل أن يحظى بها إذا ما حطّتا على كتفه برفقة كلمتين دافئتين.

7

لو حلّق طائر نورسٍ فوق سماء اللاذقيّة لرأى قاعدة حميميم وسطح بيت علياء مثل نقطتين لمستقيمٍ يصل ما بين علياء ولوكاس، ولرأى الشارع الممتدّ أمام مقهى «زهرة عبّاد الشمس»، والشجرة الكبيرة التي بجوار مدخل بوتيك «الزمن الجميل»، والمقبرة التي دُفن فيها أشخاصٌ ماتوا بطرقٍ غير مقنعةٍ بالنسبة إليها، وكشك أبي ريحانة مثل شامةٍ على ذراع الكورنيش الجنوبي.

سيبقى اللعب أوّل عقدةٍ واجهت الإنسان منذ اللحظة الأولى لخلقه، حين انتابه خوفٌ هائل من الوحدة. إبليس لم يسجد لآدم لأنّه لو فعل ذلك لخسر شرعيّة اللعب لعدم التكافؤ ما بينهما، فرأى في عدم سجوده لآدم شكلًا آخر للّعب. كثيرة هي الأفعال التي يأبى المرء فعلها لكي يجد بذلك مساحةً صغيرة للّعب باللغة المتبادلة ما بينه وبين الطرف الآخر، كالذي يحدث ما بين بديع وأبيه. ومن فكّر في الطيران أراد محاكاة النوارس، فاتّسعت دائرة اللعب من بعده، فجاءت الطائرات الحربيّة بدلًا من تلك النوارس.

احتفل الجيش الروسي المقيم في قاعدة حميميم بعيد النصر السنوي، وقد شارك معه بعض الجنود والضبّاط والقادة من الجيش السوري، بينما الاحتفال الكبير كان في الساحة الحمراء على أرض موسكو. كان العرض برّاقًا وأنيقًا بثياب القادة والضبّاط والجنود، وكانت موسيقى فرقة المراسم تعيد أمجاد ذلك النصر من خلال عازفيها الذين كانت عيونهم تلمع بالحماسة، وكان كبار القادة من المتقاعدين حاضرين. مرّت الآليّات القديمة التي شاركت في الحرب العالميّة وسط الساحة لتعيد ذاكرة تلك الأمجاد، ومرّ جنود البحريّة من أمام القادة مرتدين الزيّ الخاصّ بهم كما لو أنّهم موجة بحرٍ تتحرّك بمنتهى الدقّة. كانت الأعلام ترفرف فوق الأكتاف والبنادق والمركبات، وكان القائد الأعلى ينظر إلى الساحة كما لو أنّه هو من اخترع كلّ برغيٍّ في كلّ مركبةٍ ودبّابة مرّت من أمامه، لقد كان عرضًا يحمل كلّ دلالات الزهو مثل طاووسٍ يفرد ريشه تحت ظلال قباب الكرملين، وكانت الرسائل تصل إلى تلك الدول التي كانت صديقة الأمس وعدوّة اليوم، على أثر ما يجري تداوله في السرّ والعلن حول مسألة شبه جزيرة القرم. وجوه القادة والضبّاط والجنود كانت تشي بالسطوة التي أراد الروس إظهارها من خلال هذا العرض. قامت الطائرات بعرضٍ جوّي جعل الرؤوس تُحملق نحو الأعلى، وقامت بمناوراتٍ وتداخلاتٍ تاركةً خلفها شُهبًا مضيئة،

وألوانًا شكّلت العلم الروسي. كان الشعب الروسي يتابع هذا العرض عبر شاشات التلفاز من كافّة أنحاء روسيا، وقد رأى لوكاس هذا العرض من خلال نشرات الأخبار، راقته تلك التشكيلات، وذلك العرض الجوّي الذي وجد فيه لمسةً فنّيةً في السماء، وما زاد المشهد جمالًا تلك الموسيقى التي رافقت العرض. تمنّى في اللحظة التي كان فيها منسجمًا مع هذا العرض أن تصبح الغاية الوحيدة من كلّ هؤلاء الجنود وهذا العتاد والطائرات هو هذا الكرنفال البديع، وانتابه شعورٌ بالحماسة، فكّر أن يملأ سلّةً بالورد وبقصاصاتٍ من الورق عليها اسمه واسمه علياء، أن يحلّق بطائرته فوق سماء اللاذقيّة ويرمي الورد وتلك القصاصات فوق الحيّ الذي تعيش فيه علياء، سيكون ذلك أجمل استعراضٍ يقوم به سلاح الجوّ.

ذهب لوكاس إلى مكتب قائده، أدّى التحيّة العسكريّة ثمّ جلس يتحدّث معه، قال له إنّه متعبٌ وكئيب، وهو بحاجةٍ إلى فترة نقاهةٍ يقضيها في مدينة صلنفة. أخبره أنّ ثمّة فيلا يملكها أحد الضبّاط السوريّين، آمنة وشبه معزولة، وسيخبر أمن الدولة بوجوده فيها، وبعد فترة النقاهة هذه سيعود إلى القاعدة إن شعر بالتحسّن، وإن لم يشعر بذلك فسوف يغادر إلى موسكو، فله الحق في زيارة قبر أمّه، واستعادة ذكرياته معها ومع شوارع موسكو التي اشتاق إليها. وأضاف أنّ الوجود الروسي في سوريا يسير على أفضل حال، وليس هناك ما يدعو إلى القلق، فكلّ شيءٍ تحت السيطرة، وهذه فرصةٌ جيّدة للسماح له بذلك. ثمّ لمّح إلى أنّه غير متوازنٍ على الصعيد النفسي، يمرّ باضطراباتٍ جديدةٍ عليه، فلم يعد الشخص ذاته الذي كان عليه في ما مضى، واستطاع أن يستجرّ عاطفة قائده حين لمّح له بإحدى عباراته إلى أنّ حديثه معه بمثابة حديث الابن مع والده.

لامست كلمات لوكاس جانبًا من قلب قائده، فالقادة عادةً يحبّون ممارسة عاطفتهم مع من يلجأ إليهم بأحاديث كهذه، كي لا يتراكم الصدأ على قلوبهم بحكم حياتهم العسكريّة، ولكي يتركوا حادثةً في ذاكرة من هم أصغر منهم سنًّا ليأتي يومٌ ويحكي أحدهم عنها. هذا يمنحهم شيئًا من التوازن بعد تسريحهم، تمامًا مثلما شعر أحد القادة السابقين، حين زاره الرئيس الروسي في بيته، وصُوّرت تلك الزيارة وعُرضت في نشرات الأخبار وتداولتها الصحافة.

وقف قائده ثمّ وقف لوكاس كذلك، دام صمتٌ للحظات بينهما، ثمّ قال:

– سوف أتّصل بوزارة الدفاع في موسكو للنظر في أمرك، سأتولّى موضوعك شخصيًّا، أنت بمثابة الابن البارّ للعلم الروسي، وبات وجودك في موسكو أهمّ من وجودك هنا، فالحرب الحقيقيّة أصبحت على الأبواب.

ابتسم لوكاس لقائده، وطلب أن يسمح له بضمّه، فهو بحاجةٍ إلى التعبير عن شكره له، تقدّم القائد وفتح ذراعيه للوكاس، وضمّه، فالقائد وكلّ الذين في قاعدة حميميم العسكريّة بحاجةٍ إلى لحظةٍ عاطفيّة تعيد تدفّق الدماء في وجوههم المتجهّمة طوال الوقت كما البنادق ورؤوس الطائرات لحظة إقلاعها.

في الوقت الذي كانت فيه قاعدة حميميم والساحة الحمراء تعجّان بالعرض العسكري، كان بديع وصديقه وسوسن في البيت يتدرّبون على العرض المسرحي، وكانت علياء قد حضرت معهم إحدى البروفات، وأبدت بعض ملاحظاتها. كانت قد أخذت على عاتقها مسألة تدوين الأسماء التي ستشارك في مسابقة الشطرنج التي ستُقام في المقهى، فمثلما هناك حماسةٌ ترافق العروض العسكريّة، كذلك هناك حماسةٌ من نوعٍ آخر تتدفّق في الأمكنة الضيّقة، كأنّ موسيقى فرق المراسم للعروض العسكريّة يمكنها أن تتجاوز الساحات عبر الأثير لتحطّ في أمكنة أخرى، وتنشر موسيقاها في قلوب من يحتاجون إلى لمسة حماسة.

إنّه يوم السبت، الحادية عشرة ليلًا، كانت علياء تستعدّ لدخول غرفة نومها بعدما أنهت ترجمة مقالةٍ من العربيّة إلى الإنكليزيّة لأحد الكتّاب، مقابل بعض المال، وهي لا تترك فرصةً إلّا تقبل بها في هذا المجال، فالترجمة والتدريس مصدرا رزقها الوحيدان، وهي راضيةٌ بهذا. تفضّل علياء هذا النوع من العمل على الوظائف الثابتة التي سبق لها أن خاضتها، كتلك المنظّمة التي عملت فيها، وأخيرًا أخبرتها أختها أنّ ثمّة فرصة عملٍ لها في دبي، لكنّ علياء لا ترغب في مغادرة اللاذقيّة، وينتابها شعورٌ بأنّها إن فعلت ذلك فستفقد قدرتها على المشي من جديد، ففي شوارع هذه المدينة تمشي وهي تمسك بيدها الداء، وتمسك بيدها الثانية الدواء.

فجأةً سمعت أحدهم يطرق باب البيت، نظرت إلى الساعة المعلّقة على جدار الصالون، ثمّ تقدّمت لفتح الباب ما بين توتّرٍ وشغف، وقد تسارعت دقّات قلبها، وتكثّف الهواء في صدرها، وتبخّر شعورها بالنعاس الذي راودها قبل قليل. فتحت الباب فكان لوكاس، يداها اللتان أحاطتا به أسرع من يديه اللتين أحاطتا بها، فكانت صورة رأسها الذي التصق بصدره تصلح لأن تكون ميناءً لساعة الحائط التي على الجدار. تنفّست أشواقه من دقّات قلبه، وتنفّس أشواقها من الأنين الذي رافق أنفاسها، وبدا العالم سهلًا للغاية، والحياة لا تحتمل غير هذا العناق، والوقوف عند الأبواب يكفي المرء ليقول كلّ ما يمكنه أن يقوله، وما عدا ذلك فائضٌ عن شؤون الحياة، ومربكٌ للهيئة التي تحبّ أن تكون عليها.

تبادلا النظرات، والقبلات، والكلمات بطريقةٍ عشوائيّة، فلم يكن أحدٌ منهما قادرًا على احتمال هذه اللحظات التي حملتهما نصف مترٍ فوق الأرض. عاودا العناق من جديد، إلى أنْ حملها على صدره، ولفّت ساقيها حول خصره، مشى بها نحو المطبخ، وأجلسها على الطاولة، وبقي أمامها واقفًا، في هذه اللحظة استيقظا من تلك اللحظات التي دارت بينهما، كما لو أنّهما نزلا على الأرض، قال لها:

– بلادي أخذت قاعدة حميميم، أمّا أنا فأكتفي بهذه الطاولة التي تجلسين عليها.

أمسكت يديه وقالت له:

– وبلادي تغنّي لمرتفعات جبل قاسيون، أمّا أنا فأرى أنّ هذه الطاولة أعلى منه، ما دمتَ تقف أمامي.

أمسك يدها وقبّلها، دفن رأسه بين ساقيها، وراحت تحكّ له شعره الكثيف ككثافة الدفء الذي أحاطها به، ودون أن يرفع رأسه قال لها:

– أحبّك كثيرًا.

قالت:

– طوال الوقت وأنا أفكّر فيك.

عادا إلى الصالون ومعهما القهوة، وجلسا يتحدّثان عن غيابه، وعن الأشياء التي اعترت كلّ واحدٍ منهما في ذلك الغياب. بعد ذلك أخبرته بأنّ الأستاذ مهران فارق الحياة، قالت له ذلك بوجهٍ هادئ يليق بمن فارقوا الحياة، ثمّ حدّثته عن مشروع مسابقة الشطرنج بوجهٍ مبتسمٍ يليق بتلك الرغبة التي أرادها، وأبدت سعادتها والكثير من الحماسة أثناء حديثها عن ذلك، كما لو أنّها تجلس بين جمهورٍ يهتف باسمه. قامت وأحضرت له طاولة الشطرنج التي اشترتها له، وضعتها أمامه وقالت له: أريدك أن تلعب وتكسب البطولة، لم يحرّك ساكنًا، وكان مكتفيًا بالنظر إلى الحماسة والاهتمام اللذين في عينيها، وقال لها:

– أنتِ البطولة التي كسبتها، لا أرغب في أيّ شيء آخر.

قالت له:

– ولكن يجب أن تشارك.

قال:

– ليس من المسموح لي أن أكون في الأماكن العامّة.

في بعض الأحيان يصل المرء إلى حالةٍ من الاكتفاء، ينتابه شعورٌ بأنّه سعيدٌ ولا يرغب في أيّ شيءٍ آخر، وأنّ عالمه الداخلي ممتلئٌ بما أراده. يظهر ذلك على ملامح وجهه، وطريقة جلوسه باسترخاء كما لو أنّه يعتلي صخرةً عاليةً تحيط بها سواقي المياه العذبة، وظلال الأشجار العالية. هذا ما شعر به لوكاس في هذه اللحظات وهو ينظر في وجه علياء التي تهتمّ به كما لو أنّها تربّت كتفيه ليكون بأبهى صورة، وبأسمى حالةٍ تلامس قلبه الذي يفيض بحبّها.

انقطع التيّار الكهربائي، فقامت وأشعلت شمعة، ثمّ تمدّدت في حضنه على الأريكة، وراح الصمت يحيط بها وبتلك الشمعة التي على الطاولة. كانت عقارب ساعة الحائط تدور باتّجاه أصابع يديهما المتشابكة، وكان ميناؤها كما لو أنّه وجه أمّها وهي تبتسم لابنتها وهي بين أحضان رجلٍ اختصر قلوب أفراد أسرتها.

كان ظهرها ملتصقًا بصدره، وفمه قريبًا من أذنها، وكانت مغمضة العينين حين همس لها بعباراتٍ بطيئة تخلّلها بعض الصمت، كما لو أنّه كان يتحدّث مع نفسه:

– بلادنا تقاتل في كلّ مكانٍ لأجل مجد روسيا، وثمّة أخبارٌ عن تورّط مجموعة فاغنز بجرائم حربٍ في ليبيا، وأميركا تريد أن تلقي بروسيا في مستنقعٍ يشبه المستنقع الذي وقعت فيه في أفغانستان، والحرب

مع أوكرانيا على الأبواب. لقد بلغت الهستيريا ذروتها لدى صنّاع الحروب التي تُتَّخذ قراراتها بالشوكة والسكّين على وجبة عشاء. منذ رأيتك يا علياء عرفتُ حجم القبح الذي يسير عليه العالم، لقد كان وجهك بمثابة النجاة. في ما مضى كنتُ أنفّذ التحيّة العسكريّة بيدٍ مشدودة وقامةٍ منتصبة، وجبينٍ شامخ للأعلى، وبعدما عرفتك صرتُ أشعر بأنّ جسدي لم يعد قادرًا على تلك الاستقامة ما لم أكن واقفًا أمامك، وما من تحيّةٍ عسكريّة عند الانصراف إلّا تكمن بين أصابعها المشدودة دماءٌ ستسيل في مكانٍ ما.

قالت له وهي مغمضة العينين:

– أشعر بأنّ روح رواد تحوم حولنا، وتصغي لكلامك العذب، لقد مات مثل زفرةٍ على ضوء شمعة، هكذا بمنتهى البساطة، ودون أيّ معنى.

قال:

– أخبريني شيئًا جميلًا عنه.

قالت:

– ينظر إليّ بعينَين باسمتين وأنا بين أحضانك.

في هذه اللحظة تذكّر لوكاس أمّه، فهو لم ينظر إليها بعينين باسمتين حين كانت بين أحضان ديمتري الذي غدر به بطريقةٍ جارحة.

في الصباح استيقظت علياء وكان لوكاس نائمًا بجانبها، نظرت إليه مليًّا، وكان قلبها مفعمًا بيده التي كانت على كتفها، قامت بكلّ هدوءٍ وخرجت من غرفة النوم، جلست في الصالون تشرب المتّة، وبعد دقائق استيقظ وخرج إليها. وقف عند باب غرفة النوم مسندًا كتفه إلى إطار الباب ينظر إليها، فهمت أنّه ينتظر أن تأتي وتقف أمامه، فقد بات يعرف أنّ لوقوفهما عند الأبواب طعمًا آخر، فعلت ذلك، ثمّ تعانقا طويلًا.

عند التاسعة مساءً عاد لوكاس وعلياء إلى البيت بعدما أمضيا ثلاثة أيّامٍ في صلنفة، وما إنْ بدّلا ثيابهما، حتّى جاء بديع ومعه سوسن ونعيم الذي سيشاركهما في المسرحيّة بدور الأب. جلسوا في الصالون وكانت علياء سعيدةً بقدومهم، أمّا لوكاس فبات يشعر بأنّه أحد أفراد هذه المجموعة التي تسعى إلى التشبّث بالحياة. وكلّما زادت معرفته بهم زاد استغرابه من كلّ ما حدث ويحدث في سوريا، ومن الأسباب التي أتاحت لقاعدة حميميم أن تكون في هذا البلد، وغيرها من قوّاتٍ عسكريّة، سواءٌ كانت حليفةً أو معادية. كان بودّه أن يخبرهم بما يعتريه، ليعرفوا حجم الحبّ الذي بات يضمره في داخله لهذه البلاد، وتمنّى لو أنّه كان بمكانة الأميركي بوبي فيشر، بطل العالم للشطرنج، الذي ترك بلاده وعاش في إيسلندا التي أحبّها ومات فيها، لقد انتقد سياسة بلاده، ورفض العودة إليها، حتّى إنّه انتقد الروس واحتكارهم لبطولات العالم للشطرنج عن طريق سياسة البطولات التي لم تكن عادلة. تمنّى لو أنّه موهوبٌ في الكتابة، كي يكتب مذكّراته عن هذه البلاد كما فعل المستشرقون في كتاباتهم عن المدن التي أحبّوها،

فلقد بدأ يزداد شعورًا يومًا بعد يوم بأنّ اللاذقيّة وعلياء لامستا جانبًا عميقًا من قلبه، وبأنّه بات حائرًا في مصيره مثله مثل هذه البلاد التي لا يُمكن لأحدٍ التكهّن بمصيرها.

قاموا بترتيب الصالون بما يتناسب مع ديكور المسرحيّة، وضعوا الطاولة التي من المفترض أن يكون عليها قالب الكاتو والشموع، ومن حولها بعض الكراسي، والأريكة التي سيجلس عليها الأب وابنته بعد ذهاب أصدقاء وصديقات الابنة، حينها سيبقى الممثّل الذي سيخبر الأب بحبّه لابنته، حيث سيبدأ بالاستهزاء به.

جلس لوكاس وعلياء ليشاهدا البروفة، فقد اقترب موعدا عرض المسرحيّة وبطولة الشطرنج. في هذه اللحظات طرق أحدٌ باب البيت، قامت علياء لتفتح، فكان الملازم صفوان، رحّبت علياء به وطلبت منه الدخول بصمت، فوجئ صفوان بالموجودين، وفوجئ لوكاس بصفوان، تبادلا النظرات بصمت، ثمّ جلس بجانب علياء التي أصبحت ما بينه وبين لوكاس. شعر بديع ببعض الارتباك من دخول صفوان، لكنّ وجود لوكاس كضابطٍ روسي منحه شيئًا من الأمان، وعلاوةً على ذلك ابتسمت له علياء كي تمنحه شيئًا من الارتياح ليتابع البروفة، ووجود صفوان قد يمنح بديع شيئًا من تجلّيات الأداء، فهو لا يجد فارقًا كبيرًا بين صفوان المتسلّط وبين الأب المتعجرف في هذه المسرحيّة، وأنّ صفوان وأمثاله هم من سيأكلون مخّه كما حدث لنادل المسرحيّة.

كانت علياء تتوسّط ضابطين على الأريكة التي جلسوا عليها لمشاهدة بروفة المسرحية. لوكاس لا يفهم العربيّة، لكنّه سيخمّن ذلك من خلال الأداء، فقد سبق لعلياء أن شرحت له المسرحيّة الأصليّة، والإعداد الذي قام به بديع، كما أطلعته على الدلالات التي أرادها بديع من ذلك، ولم يبقَ له سوى أن يرى الأداء، ويشعر بالإيقاع الذي ستسير عليه الأحداث في فصلٍ واحد، أمّا صفوان فقد اكتفى بقدومه وجلوسه بالدرجة الأولى، وقد يجد شيئًا يفهمه أو يترك انطباعًا لديه.

انتابها شعورٌ غريب وهي تجلس بين ضابطٍ سوري غادرها في اللقاء السابق وهو شبه مشوّش، وبين ضابطٍ روسي بات شبه مشوّشٍ ممّا راح يعتريه أخيرًا، والأكثر غرابةً أنّهما يجلسان مثل طفلين صغيرين يودّان مشاهدة مسرح عرائس الأطفال، أو فيلمًا للرسوم المتحرّكة على شاشة التلفاز. نظرت سوسن إلى صفوان نظرةً خاطفة وانتابها شيءٌ من التوتّر، إلّا أنّ نظرة بديع إليها منحتها ذلك الثبات الذي تحتاج إليه قبل البدء بالبروفة، أمّا نعيم فلم يكن يعرف صفوان، ولا لوكاس، وكان سعيدًا بمشاركته في هذه المسرحية. فقد سبق له أن شارك في أحد المسلسلات التلفزيونيّة بدورٍ ثانوي، أدّى شخصيّة لصٍّ يدخل بيت البطل لسرقة بعض الأوراق من مكتبه مقابل مبلغٍ مالي سيتلقّاه من الجهة التي كلفته بذلك، لكنّ البطل يمسكه ويضربه لمعرفة الجهة التي يعمل لها. وبعد هذا الدور الصغير الذي قام به، شعر بندمٍ كبير، فبعدما شاهد ابنه ذلك المشهد عبر التلفاز شعر بالاستياء، وبالحرج من رفاقه في المدرسة، بسبب الصفعة التي تعرّض لها والده من بطل المسلسل، حتى وإن كانت الصفعة تمثيلًا، أمّا زوجته فقد التزمت

الصمت أمام إحدى جاراتها التي أخبرتها بأنّ الصفعة كانت مدوّية ومضحكة، وبقي نعيم عدّة أسابيع يشرح لابنه أنّه مشهدٌ درامي قام به كي يأخذ فرصةً ثانية في التمثيل، وأنّ البطولة في الدراما مختلفةٌ عن البطولة في الحياة، وأنّه يستطيع تحطيم رأس ذلك الممثّل المشهور الذي صفعه في المشهد المشؤوم. بقيت زوجته ترفض أن يمارس الحبّ معها لأسبوعٍ كامل، طلبت منه التوقّف عن الاقتراب منها في السرير حتّى تنسى أثر تلك الصفعة، وكان لاستهزاء الجارات أثرٌ كبير عليها. رأى نعيم جانبًا آخر يختلف عمّا شعر به ابنه وزوجته، لكنّه لا يقلّ سوءًا عن ذلك الجانب الذي يتعلّق بمفهوم البطولة والكومبارس حتّى في الفنّ ذاته، فليس بوسعه أن ينكر النظرة الدونيّة له في عيون كاست العمل، وقد يشعر بالخجل إذا صادف بطل المسلسل في مكانٍ ما، هذا إن تمكّن البطل من تذكّره أو معرفته له كممثّل، لذلك هو سعيدٌ بالدور الذي سيؤدّيه في هذه المسرحيّة، وسعيدٌ برؤية ابنه وزوجته وتلك الجارة له أثناء العرض، كي يروا الجانب المتسلّط منه في هذا الدور، كما لو أنّه يتيح لهم فرصة اللعب معه من خلال رؤيتهم له.

بدا المشهد داخل بيت علياء غريبًا، مسرحيّتان في وقتٍ واحد؛ رجلان تتوسّطهما امرأةٌ يجلسان لمشاهدة بروفة مسرحيّة بديع، ورجلان بينهما سوسن يستعدّان للبدء بالبروفة، وعيونهما بمثابة جمهورٍ ترمق مسرحيّةً صامتة تدور أحداثها على الأريكة التي يجلس عليها صفوان وعلياء ولوكاس. كلّ واحدٍ من هؤلاء الستّة يفكّر في تراكمات السنوات السابقة، فالمرء قد يقوم بسلوكٍ مرئيّ، لكنّ ثمّة مساحاتٍ سرّيةً لا يمكن للرائي أن يُدرك أبعادها، ولو أنّ الإنسان باح بما لديه على الملأ، فقد تحدث خيانةٌ من الآخرين على أثر هذا البوح، وعدم مقابلته ببوحٍ آخر، فمن النادر جدًّا أن نجد شخصين يبكيان في الوقت ذاته على ذات السبب الذي تمّ البوح به، إذ إنّ البوح يحدث بدافع لحظة ضعف، والنشوة التي تقابله تحدث بدافع الفرصة، هكذا مثل لعبة عضّ الأصابع.

تبدأ البروفة بالابنة (سوسن) وهي تودّع مجموعة أشخاصٍ افتراضيّين عند باب البيت، وتشكرهم على قدومهم لحضور حفلة عيد ميلادها، بينما يكون الممثّل (بديع) جالسًا على الكرسيّ ويبدو عليه الخجل والارتباك، ويكون الأب (نعيم) يدخّن الغليون وهو ينظر إلى الممثّل نظرة خبثٍ واستعلاء. تعود الابنة وتجلس بجانب أبيها، ينظران إلى الممثّل كما لو أنّهما يدفعان به ليتحدّث عمّا لديه، ليكسر حالة الصمت المربكة بنظراتهما إليه بهذه الطريقة، يبدأ حديثه وهو غير قادرٍ على وضع عينيه في عينَي الأب، يتحدّث عن حبّه لابنته، وبرغبته في طلب يدها، يقف الأب ويتحرّك في المكان مدّعيًا التفكير في المسألة، بينما تكون نظرات الابنة على الحياد لتزيد الممثّل حيرةً، ولتمهّد الطريق أمام أبيها لممارسة السخرية والاستهزاء منه. في حقيقة الأمر، كانت الغاية مجّانيّة، فلم يكن مضطرًّا لذلك، كان بإمكانه أن يرفضه فحسب، لكنّ السخرية التي قرّر القيام بها جاءت كهديّةٍ مضحكة في عيد ميلاد ابنته، وهذا ما تمّ الاتّفاق عليه بين الأب وابنته حين سألها عنه أثناء شرب الكحول برفقة الموسيقى الصاخبة أثناء الحفلة، كما

حدث ذلك القرار اللحظوي في مسرحيّة «القردة الحيّة»، ومن بعد ذلك بدأ التفاوض مع النادل الذي وافق على تقديم مخّه وجبةً للرجل وزوجته، مقابل المال لأجل عائلته.

بدأ الأب يتحدّث عن الحبّ بطريقة ماكرة، وعن الفنّ وأهمّيته في المجتمع، ابتسم الشابّ الممثّل، وشعر بدفقة حماسةٍ حرّرته من التكوّم الذي كان عليه، ونظر إلى الابنة بعينين واسعتين، ثمّ حرّك أصابع يديه كما لو أنّه ينفض الثلج الذي تجمّع بينها، وبعد ذلك تشجّع وتحدّث قليلًا عن حبّه للفن والتمثيل ببراءة الأطفال، وابتسامة الحالمين. كان الأب يتحرّك في المكان بيدين متشابكتين خلف ظهره، بينما جلست الابنة وبدأت تقضم أطراف أظافرها وهي تختلس النظرات إلى الممثّل الذي تعرّفت إليه قبل شهرٍ واحد من عيد ميلادها هذا. حدث تعارفهما بعد تقديمه أحد العروض المسرحيّة في الجامعة التي يدرسان فيها معًا، جلست معه ذات مرّة برفقة الزملاء، ومرّةً جلست معه في حديقة الجامعة بمفردهما، وذات مرّة تناولا الطعام في مطعمٍ قريب من جامعتهما. كان معجبًا بها، وشعر بأنّه واقعٌ في حبّها، وهي بالغت في ترحيبها بحبّه لها من باب كسر السأم وضغوط الدراسة فحسب، فهي نسخةٌ أصليّة عن مكر أبيها الذي كان طوال الوقت يخبرها أنّ الرجال انتهازيّون، وأنّ الحبّ مجرّد وسيلةٍ لتعرية المرأة من ثيابها عند أوّل فرصة، وبعد ذلك يركل ثيابها بقدميه كما يركل الإنكليز الكرة. على هذا الأساس قام بديع بإعداد مسرحيّته، ليصل بها إلى هذه الأحداث التي تدور بين الشخصيّات الثلاث.

يسأل الأب:

– أخبرتني ابنتي أنّك ممثّلٌ مسرحي.

يجيب:

– نعم.

ثمّ يتظاهر الأب بإعجابه به، ويطلب منه أن يجسّد دور طفلٍ صغير يبكي، فيفعل، وشيخٍ كبير يمشي على عكّاز، فيفعل، وقرصان سفينةٍ مع بحّارةٍ وهميّين، فيفعل. كان الأب والابنة يتبادلان نظراتٍ ساخرةً دون انتباه الممثّل لهما، وتحاول الابنة كتمان ضحكتها، فيعضّ الأب شفته كي تتمالك نفسها ولا تضحك.

كان الممثّل جادًّا في أداء هذه الأدوار، إلّا أنّهما كان ينظران إليه كمهرّج، لاحظ الممثّل ذلك، وعرف الحقيقة التي يقومان بها، إلّا أنّه تمالك نفسه، فهو ممثّلٌ ويستطيع التظاهر بعدم اكتراثه لهما.

تحمّس صفوان وشعر بالتعاطف مع الممثّل، وكان بودّه لو يستطيع إخراج مسدّسه ليفرغ في رأس الأب عدّة رصاصات. انتبهت علياء إلى صفوان وهو مشدودٌ بكلّ مشاعره لأحداث البروفة، أمّا لوكاس فقد اعتمد على العبارات القصيرة التي كانت تهمسها علياء في أذنه، تخبره بما يحدث، رغم أنّه على اطلاع على ذلك قبل البدء بالبروفة، لكنّها كانت تفعل هذا من باب التودّد وهي تجلس بجانبه، كما لو أنّها تخبره بحبّها له وهي تترجم له بعض التفاصيل التي تمرّ أمامه.

هذه المسرحيّة التي قام بديع بإعدادها لم تكن على درجةٍ عالية من الأهمّية، فما من محاكاةٍ لعملٍ إلّا تبقى دون أهمّية النصّ الأصلي، لكنّه أثناء هذه البروفة انتابه شعورٌ رائع، فحضور صفوان جعله يتذكّر هاملت الذي قدّم مسرحيّةً بحضور عمّه كلاوديوس بين الجمهور، لمعرفة إن كان عمّه متورّطًا في قتل أبيه أم لا. هذا ما حدث لصفوان حين بدأ يشعر باستفزاز شخصيّة الأب، فالبعض يحتاج إلى رؤية الشرور في وجوه غيره كي يدرك تلك التي يمارسها. تضاعف شعور بديع بأنّ للفنّ سلطةً يمكنها أن تكون بمثابة درعٍ من حديد، ولقد شعر لوكاس بأنّه كان قادرًا على الاكتفاء طوال حياته بحبّه لعلياء والشطرنج دون أيّ شيءٍ آخر، وكلّ ما عدا ذلك مجرّد ضجيجٍ مقصودٍ للإطاحة برغبة المرء باكتفاء. وكانت الحروب ذروة هذا الضجيج، حتّى هتلر عندما أراد تبييض وجهه ووجه ألمانيا كان يدرك أهمّية اللعب في قرارة المرء، فقام بافتتاح دورة الألعاب الأولمبيّة في برلين، لينسف بعد ذلك كلّ ما قام به من مظاهر، كما لو أنّه استخدم لعبة الحصان والجزرة. هو الآخر كان بحاجةٍ إلى اللعب بالألوان على وجه الأقمشة ليرسم، ويتجمّع المعجبون حول لوحاته، لتدور الأحاديث بينه وبينهم، لكنّ الرفض الذي جاءه من أكاديميّة الفنون في فيينا جعله يبحث عن مكانٍ آخر للّعب، فكانت الحروب. واللغة الحماسيّة المكثفة التي كانت تأتي على لسانه أثناء إلقاء خطبه على الشعب والجنود، تفسّر إلى حدٍّ كبير تلك الرغبة العارمة التي تشبه أولاد الحيّ وهم يتجمهرون حول ملعبٍ لكرة القدم، ويهتفون لأجل دخول هدف في المرمى. حتّى الفترة التي كان فيها جاسوسًا على «حزب العمّال الألماني» تُعدّ أحد أشكال الرغبة في اللعب، وهذا لا يختلف كثيرًا عن صفوان حين كان يتوقّف بسيّارته أمام كشك أبي ريحانة ويتحدّث مع الآخرين بحجّة ضبط الأمن. حتى نابليون عندما كان يُحتضر، ردّد ثلاث كلماتٍ وهو يهذي: «فرنسا، جوزفين، الحرب»، ولو أتيح له غير ذلك لردّد: «فرنسا، جوزفين، سباق الخيول»، كانت الصورة ستبدو أجمل بكثير لو أنّه شارك في سباقات الخيول بدلًا من حروبه تلك، ولكانت جوزفين هتفت له بدلًا من خيانتها له أثناء انشغاله عنها بتلك الحروب، حتّى خيانتها المزعومة ربّما كانت أحد أشكال اللعب في الفراغ الذي تركها عليه، فرغبة المرء في اللعب ربّما تكون هي الشفيع الوحيد له، والصورة الأكثر براءةً في تاريخ البشريّة.

في النصف الثاني من البروفة، يصل الأمر بالأب إلى حدّ الثمالة من أثر الكحول وأثر الضحك الذي بات جليًّا، يقول لابنته أن تطلب من الممثّل أن يقف على الطاولة ويثني ركبته ليطلب يدها. فتكون الطاولة محاكاة لتلك التي تناول عليها الزوج وزوجته وجبة مخّ الشاعر بدلًا من مخّ القرد الذي هرب من المطعم حينها. يفعل الممثّل ما طلبته الابنة منه، لكنّ الأب الجالس على الأريكة يدفع الطاولة برجله لحظة ثني الممثّل ركبته وهو يتفوّه بكلماته الأولى، يقع الممثّل على ظهره، ينظر نحو السقف مثل جثّةٍ دون حراك، ويسود الصمت المشهد، وتنحبس الأنفاس على الأريكة التي يجلس عليها صفوان ولوكاس وعلياء.

ينهض الممثّل بهدوء، ثمّ يبتسم ويضحك، إلى أن يقهقه، يستغرب الأب والابنة من قهقهته هذه، وينظر كلٌّ منهما إلى الآخر (شعر بديع وهو يقوم بدور شخصيّة الممثّل بأنّ مخّ الشاعر وونك أصبح في رأسه، وبأنّ هذا الأب وهذه الابنة ما هما إلّا ذلك الزوج وتلك الزوجة اللذان أكلا مخّه، فتقمّص روح المعذّبين على هذه الأرض ليقف في وجه قتلة قلوب الحالمين). شعر بقوّةٍ سرت في عينيه، واستطاع النظر مليًّا للحظات في عينَي صفوان قبل أن يستدير نحو الأب والابنة، فالمسرح يمنحه قوّةً تجعله يفعل ما لا يستطيع فعله وقوله على أرض الواقع. اقترب من الطاولة التي عليها أطباقٌ فارغة وشوكٌ وسكاكين، أمسك شوكةً وسكّينًا ثمّ اقترب منهما وطلب ألّا يتحرّكا كي لا يُضطرَّ إلى طعنهما، فالذي كان يبدو لهما كقردٍ للتسلية والتهريج تحوّل إلى قصيدة شعرٍ غاضبة جاءت على لسان الشاعر وونك. جلسا في مكانهما وصار مقابل الأريكة التي يجلس عليها صفوان ولوكاس وبينهما علياء، وراح يمشي أمامهما جيئةً وذهابًا وهو يشحذ الشوكة والسكّين ببعضهما، فهمس صفوان في أذن علياء:

– هل سيقتلهما؟

همست علياء:

– ربّما.

نظر لوكاس إلى صفوان نظرة استياءٍ خاطفة لأنّه همس في أذن علياء، انتبهت علياء لذلك، فمرّرت يدها على يد لوكاس كما لو أنّها تطلب منه التركيز في البروفة وعدم الاستياء من أيّ شيء آخر.

قرّر الممثّل أن يؤدّي مع الأب وابنته لعبة عجن الكلام التي شرحها لهما، مع مثالين، إلى أن فهما اللعبة، ثمّ قال للأب:

– وبينما كنت أنزل على الدرج في الجامعة سمعت ابنتك تقول لأحد زملائها «سيحدث هذا عندما يموت أبي».

نظر الأب إلى ابنته، وظهر عليه الاستياء، بينما حاولت الابنة أن تنكر هذا، لكنّ الممثّل قال لها:

– عليكِ أن تلزمي الصمت، يجب أن يحظى أبوكِ بالهدوء كي يعطينا تخميناته للحديث المرتبط بهذه العبارة التي جاءت على لسانك.

قال الأب لابنته:

– هل حقًّا قلتِ هذا؟

صرخ الممثّل في وجه الأب:

– نعم قالت ذلك، وعليك أن تتوقّع الحديث الذي دار بينهما.

شعرت علياء بالدهشة لأنّ بديع استخدم اللعبة التي ابتكرتها لأجل أبيها، وأسعدها هذا، بينما الأب شعر بحرقةٍ لامست قلبه، فلم يكن يدرك أنّ ابنته ماكرةٌ إلى هذا الحدّ، فهي تنتظر موته كي تحظى بالأموال التي سيتركها لها. هذا ليس غريبًا عليها، فلم يشعر يومًا من الأيّام بأنّ العلاقة حميمةٌ بينهما، فمنذ

انفصاله عن أمّها وهو يحاول أن يكسب ودّها لصالحه، ولديه شكوك ومخاوف من أمّها التي جعلت ابنتهما تحقد عليه وتكرهه، وبهذا استطاع الممثّل أن يبدأ لعبته معهما ويزيد ارتباكهما بهذه المكاشفة في ما بينهما.

ثمّ قال للابنة:

– حين كنتِ في المطبخ همس أبوكِ لإحدى صديقاتك «نلتقي في المكتب بعد العاشرة»، لمس أطراف أصابعها حينها أعطاها طبق قطعة الغاتو.

قالت الابنة:

– أنت تكذب، أبي رجلٌ كبير ولا يفعل هذا مع شابّةٍ بعمر ابنته.

قال لها وهو ينظر إلى أبيها:

– كانت موافقةً وسعيدة بذلك، فأبوك يبدو وسيمًا، وفاحش الثراء.

قال الأب بغضب:

– صحيح ما تقول، لكنّ هذا لم يحدث.

قالت الابنة:

– الآن عرفت سبب حبّك لإقامة الحفلات والمناسبات، وإصرارك الدائم على وجود صديقاتي، أنت رجلٌ مهووس.

قال الأب لها:

– وأنت نسخةٌ طبق الأصل عن أمّك التي جئتُ بها من الشارع لتعمل سكرتيرةً لديّ، ثمّ قامت بغوايتي لأجل الزواج بها، طمعًا بأموالي.

قالت الابنة:

– لا أستغرب أنّك قمتَ بملاطفة صديقتي ومواعدتها في مكتبك الذي تجد نفسك فيه مثل الطاووس.

راحت المهاترات والإهانات تتصاعد بينهما، بينما كان الممثّل جالسًا على الطاولة بقدمين متدلّيتين، وبيديه الشوكة والسكّين يعبث بهما، إلى أن صفع الأب ابنته على وجهها كما لو أنّ نعيم أراد أن ينتقم من ذلك الممثّل المشهور الذي صفعه. ساد الصمت في المكان، ووضعت الابنة يدها على خدّها غير مصدّقةٍ هذه الوضاعة التي تسكن هذا البيت الذي يشبه القصر ببنائه وأثاثه.

تخرج الابنة بنظراتٍ مكسورة، ويجلس الأب على الأريكة واضعًا رأسه بين يديه، بينما يضع الممثّل قطعة غاتو في طبق، ثمّ يضع الطبق على الطاولة التي كان واقفًا عليها، يتناول قطعة الغاتو بالشوكة والسكّين بشراهةٍ كما لو أنّه يتناول مخّ الأب الجالس على الأريكة دون حراك.

في هذه اللحظة أطفأت سوسن التي خرجت من البروفة المصباح الكهربائي للحظات، ثمّ أشعلته وعادت مسرعةً لتقف بين بديع ونعيم، كما لو أنّهم يقفون على خشبة المسرح بعد انتهاء العرض.

وقفت علياء ثمّ لوكاس وصفوان، وراحوا يصفّقون للعرض، بينما تشابكت أيادي بديع وسوسن ونعيم، ثمّ انحنوا أمام هذا التصفيق، وكلّ واحد منهم انتابه شعورٌ خاصٌّ به، عدا المشاعر التي تربطهم بالمسرح وبهذا العرض. وبعد هذا التصفيق فاجأ بديع سوسن على مرأى الجميع، فقد انحنى أمامها، وجثا على ركبته، وأخرج خاتمًا، وطلب منها الزواج. شعرت سوسن بالفرح والارتباك، ونظرت إلى علياء التي ابتسمت لها، ثمّ أعلنت موافقتها بوجهها الذي فاض بالحبّ والخجل.

نظر لوكاس إلى علياء وسألها:

– ما الذي يحدث؟

قالت علياء:

– تقدّم لطلب الزواج بها، ووافقت على ذلك.

قال:

– ظننتُ أنّها مزحة ما بعد العرض.

قالت:

– ولتكن مزحة، وليكن لعبًا، وليكن كالذي حدث بيننا فوق بساط مصارعة الثيران، هذا هو الحبّ.

شعر صفوان بدمعتين محبوستين في عينيه، كان بودّه لو أنّه يملك الجرأة ليعانق الجميع على هذا العرض، ثمّ يقدّم التهاني لسوسن وبديع بارتباطهما الذي حدث أمامه. لكنّه ليس معتادًا على القيام بفعلٍ كهذا، ولا يملك الرقّة التي تدفعه لترجمة ما شعر به. كان يتمنّى لو أنّ له مساحةً صغيرة ليلعب معهم كما كان يلعب الجميع داخل بيت علياء، ابتسم للجميع وغادر المكان بخطواتٍ هادئة.

تعانق كلٌّ من نعيم وسوسن وبديع، وعبّرت علياء عن إعجابها بما قدّموه، قائلةً إنّ بساطة الفكرة المأخوذة من المسرحيّة الأصليّة كانت موفّقة، وإنّ تجسيد الشخصيات كان رائعًا. كان لوكاس سعيدًا بذلك، ثمّ قرّروا المغادرة بعد قيامهم بالبروفة النهائيّة لهذه المسرحيّة، وانتابتهم الثقة بأنّهم على أكمل استعدادٍ لتقديم العرض في مقهى «زهرة عبّاد الشمس».

بعض البيوت بإمكانها أن تكون بمثابة مدينة، هكذا كان بيت علياء وسط كلّ الهشاشة التي تحيط باللاذقية والبلا د، ويمكن لدستور أ يّ بلا دٍ أن يُخرج بنو ده من دا خل البيوت قبل خروجها من مقارّ مؤسسات ووزارات الدولة، هذا ما شعر به لوكاس وهو ينظر إلى علياء التي أحبّها وآمن ببيتها أكثر من إيمانه بقاعدة حميميم العسكريّة.

بعد مغادرة الجميع بقيت علياء مُسْندةً ظهرها إلى باب البيت المغلق وهي تنظر إلى لوكاس الذي كان جالسًا على الأريكة يُحدّق فيها. ظنّ أنّها سوف تأتي إليه لترتمي بين أحضانه، لكنّه أدرك أنّها هي من

تنتظر قدومه إليها عند الباب الذي صار بمثابة نداءٍ لنظراتهما وحديثهما وعناقهما. قام إليها بخطوات كما لو أنّه يمشي فوق سلّمٍ موسيقي، وكان قلبه كطائر نورسٍ في سماءٍ صافية بعيدًا عن دخان الطائرات الحربيّة التي بات يمقتها. ولم يبقَ أمامه سوى أن يقلع بطائرته من قاعدة حميميم ليحوم فوق سماء اللاذقيّة وفوق بيت علياء، ليرمي الورد والكثير من أحصنة الشطرنج، وكذلك قصاصات ورقٍ عليها كلمات حبٍّ لعلياء، ومن بعد ذلك يسلّم نفسه لقادته، ويصبح حديث الناس في دمشق وموسكو، هكذا مثل افتتاح دورةٍ للألعاب الأولمبيّة.